هِرمَان هِسّه

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

تحت الدولاب

روايـة

ترجمة
أسامة منزلجي

- تحت الدولاب
- رواية
- تأليف: هرمان هسه
- ترجمة: أسامة منزلجي
- الطبعة الأولى: 1998

- جميع الحقوق محفوظة للناشر

- الناشر: دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - أشرفية صحنايا - هاتف: 6713079

ص.ب: 32105

twitter @baghdad_library

هرمان هسه

تحت الدولاب

رواية

ترجمة: أسامة منزلجي

twitter @baghdad_library

1

لم يكن هر يوزف غيبنراث، الذي يعمل وكيل مبيعات وسمساراً، يتصف بأي من مزايا خاصة ومواهب تميزه عن بقية مواطنيه، فقد كان ضخم الجثة صحيح الجسم، يتمتع بفطنة في إدارة عمله، وباحترام جم للمال. ويمتلك منزلاً صغيراً تحيط به حديقة، ومدفناً للعائلة في المقبرة. وكان مستنير العقل بشكل أو بآخر، وإذا كانت صلته بالكنيسة واهية، فإنه كان يبدي احتراماً خاصاً لله وللسلطات العامة، وطاعة عمياء للقوانين الصلبة للطبقة البرجوازية المحترمة. وعلى الرغم من أنه كان يعاقر الخمر، ولكن أبداً لم يصل إلى حالة السكر؛ وعلى الرغم من تورطه في أكثر من صفقة مشبوهة إلا أنه أبداً لم يتجاوز حدود الإجراءات القانونية. وكان يحتقر من هم أقل منه ثروة فيصفهم بأنهم "مدقعون"، والأشد ثراء منه أنهم "نفّاجون". وكان عضواً في مجلس تجار المدينة ويشترك في لعب البولينغ في نادي "إيغال" كل يوم جمعة، وأيضاً يتذوق المقبلات وحساء السجق عند حلول "عيد الخبز". ولم يكن يدخن إلا السيجار الرخيص، ويوفر النوع الفاخر إلى ما بعد وجبة العشاء أيام الآحاد.

كانت حياته الروحية من جميع النواحي حياة إنسان مادي محافظ. وكان الجانب الأكثر "حساسية" من شخصيته

قد تآكل منذ زمن طويل وعلاه غبار الإهمال. ولم يعد الآن يتألف من أكثر من اعتراف العائلة المتعجل التقليدي بفخرها بابنها الوحيد، وحافز للإحسان على الفقراء، بين حين وآخر. وكانت قدراته العقلية لا تتعدى البراعة النظرية المحدودة، ومهارة معينة في التعامل مع الأرقام. كانت قراءاته محصورة بمطالعة الصحف وتسليته مقتصرة على مشاهدة العروض السنوية التي يقدمها نادي الممثلين الهواة وقيامه بزيارة السيرك أحياناً. وكان في إمكانه أن يبادل اسمه وعنوانه باسم وعنوان أي من جيرانه دون أن يشكل ذلك أي فرق. بل إنه كان يشترك مع كل رب أسرة في المدينة، ومن أعماق روحه، في ريبته العميقة في كل من يفوقه نفوذاً، أو قوة في الشخصية، وغيرته العدائية من كل من هو فوق عادي، أو يبزه موهبة، وذكاء، وحساسية في البلدة.

كفانا حديثاً عنه، لأن عرض حياته الضحلة ومأساتها اللاواعية يتطلب اللجوء إلى هجَّاء ضليع. ولكن كان لديه ولد، ولدينا المزيد لنقوله عنه.

لقد كان هانز غيبنرات، بلا أدنى شك، طفلاً موهوباً، ويمكن بسهولة أن تُميِّز مدى تفرده واختلافه من ملاحظة الأثر المرهف والخارق الذي يتركه في أقرانه من التلاميذ. ولم يكن من عادة بلدتهم الصغيرة في منطقة "الغابة السوداء" أن تنجب أمثاله من الفلتات. فلم تكن حتى ذلك الحين قد أنجبت إبناً ذا رؤى وأثر يتجاوزان حدودهما الضيقة. يعلم الله من أين لهذا الفتى تينك العينين الجادتين، والنظرة الذكية والمشية الرشيقة. لعله ورثها عن أمه. وهذه كانت قد توفيت منذ أمد بعيد، ولا أحد يتذكر عنها أي شيء مميز، فيما عدا أنها كانت دائماً مريضة وتعيسة. أما كونه ورثها عن والده فأمر مستبعد تماماً. وقد بدا ذات مرة أن قبساً من السماء أصاب هذه القرية العتيقة التي

twitter @baghdad_library

أخرجت، خلال ثمانية قرون أو تسعة هي عمرها، الكثير من المواطنين الأقوياء الضخام، لكنها أبداً لم تنجب رجلاً عظيم الموهبة أو عبقرياً.

كان يمكن لمراقب متمرس، إذا ما تذكر مرض الأم، وأخذ بعين الاعتبار عراقة العائلة، أن يرى في تضخم الذكاء دلالة على بوادر انحطاط. غير أن البلدة الصغيرة كانت محظوظة في أنه لم يكن بين ظهرانيها شخص من هذا النوع، وحدهم الشبان والموظفون الدهاة والمدرسون كانوا يسمعون إشاعات غير موثوقة ويقرأون في المقالات الصحفية عما يسمى "بالإنسان المعاصر". وكان يمكن للمرء أن يعيش في هذه البلدة وأن يظهر بمظهر المثقف بدون أن يكون على علم بخطب زرادشت. لقد كان كامل نمط الحياة في البلدة يتسم بسِمة سلفيَّةٍ لا خلاص منها، وكان يعقد فيها كثير من الزيجات المحترمة والسعيدة. وكان العديد من المواطنين الأثرياء، ذوي المكانة الراسخة قد ارتفعوا من طبقة الحرفيين إلى أصحاب مصانع خلال السنوات العشرين الأخيرة، يرفعون قبعاتهم للموظفين الرسميين ويسعون إلى مصاحبتهم، لكنهم يقولون عنهم في غيابهم أنهم انتهازيون وبيروقراطيون مساكين. إلا أنهم لم يكونوا يطمحون من أجل أبنائهم لأكثر من أن يحصِّلوا من العلم ما يؤهلهم لأن يصبحوا موظفين رسميين. ولسوء الحظ، كان ذلك يظل في الواقع حلماً جميلاً كاذباً. وذلك لأن الجيل الجديد غالباً ما كان يجد صعوبة جمة في اجتياز المرحلة الثانوية، ذات المنحى الكلاسيكي، بل إن ذلك لم يكن يحدث إلا بعد الكثير من العمل الجاد والمتكرر.

أما بالنسبة إلى مواهب هانز غيبنرات فلم يكن ثمة شك حولها. لقد كان الجميع، بما فيهم أساتذته، ومدير مدرسته، والجيران وقس البلدة، وأقرانه من التلاميذ، متفقين على أن

الفتى يتمتع بذكاء خارق. وعليه فإن مسار مستقبله كان قد رُسم لتوه. وفي "سوابيا"[1] لم يكن أمام الفتية الموهوبين إلا درب ضيق واحد - شريطة أن يقدر الآباء على نفقاته. فبعد اجتياز الامتحان العام ينتقل الطالب إلى المعهد اللاهوتي ومن ثم إلى المعهد البروتستانتي في لوبنغن، ومن هناك يتوجه إما إلى منبر الوعظ أو إلى مقعد المحاضر. وفي كل عام كان يسلك هذا الدرب الهادئ، المهد عدد من الفتية، يقل أو يكثر، منطلقين من مقاطعة فورتنبرغ. فتية نحيلون، حديثو العماد، مجتهدون، يدرسون مختلف حقول المعرفة الإنسانية على نفقة الدولة، وبعد ذلك بثماني سنوات أو تسع يباشرون المرحلة الثانية، والأطول في أغلب الأحيان، من حياتهم، يتوقع منهم خلالها أن يردوا للدولة ما أنفقته عليهم.

من جديد يُقام "الامتحان العام" في غضون بضعة أسابيع. إنه الاسم الذي يخلع على المجزرة السنوية عندما تنتخب الجولة أروع زهرة فكرية في المقاطعة وفي تلك الأثناء تتوجه عائلات غفيرة بصلواتها وتمنياتها من الضواحي والقرى إلى المدينة الرئيسية في المقاطعة حيث يجري الامتحان.

كان هانز غيبنراث هو مرشح القرية الوحيد الذي ارتأت أنه يستحق أن يرسل ليخوض محنة هذا الامتحان التنافسي المؤلمة. لقد كان شرفاً عظيماً يستأهل. وقد أضيف إلى فصله الدراسي الاعتيادي درساً زائداً في اللغة اليونانية على يد مديره ويستمر حتى الساعة الرابعة بعد الظهر، وفي الساعة السادسة يبدي القس لطفاً غامراً نحوه ويجري معه فترة من المراجعة للغة اللاتينية واللاهوت، وكان يعطيه مرتان في الأسبوع ساعة من

---

[1] سوابيا: منطقة تقع جنوب غرب ألمانيا - المترجم.

twitter @baghdad_library

المراجعة في الرياضيات بعد العشاء. وفي اللغة اليونانية كان التركيز ينصب، بالإضافة إلى الأفعال الشاذة، على أساليب متنوعة في بناء الجملة من خلال استعمال الأدوات، وفي اللغة اللاتينية ينصب على التركيز على التعابير الواضحة والدقيقة، وعلى التآلف مع العديد من محسِّنات العروض، وفي الرياضيات كان يولي الاهتمام الرئيسي للمسائل الحسابية المعقدة. وكان أستاذه لا يمل من تكرار القول إنه ليس لأي من هذه الأشياء ظاهرياً أية أهمية بالنسبة لدراساته اللاحقة، ولكن فقط "ظاهرياً"، لأنها في الحقيقة على جانب كبير من الأهمية، بل وأشد أهمية من العديد من المواد الأساسية، لأنها تُطوِّر الملكات المنطقية وتشكل أساساً لكل تفكير صاف، ورزين ومُفحم.

بغية حماية هانز ضد فرط الإرهاق الذهني، ولمنع الجانب الروحي من شخصيته من الفناء في غياهب الإهمال، سُمح له بحضور دروس تثبيت الدين في صباح كل يوم، قبل بدء دوام المدرسة بساعة، حيث تتغلغل نفحة منعشة من الحياة الدينية من كتاب برينتزه للتعاليم الدينية والتعلم المنشّط بالحفظ عن ظهر قلب عن طريق الأسئلة والأجوبة، أقول تتغلغل هذه النفحة في روحه وروح أترابه من الفتية. ولكنه، يا للأسف، أفسد على نفسه قضاء ساعات الإنعاش الروحي وحرمها من أي نعمة كان من الممكن أن تنالها، لأنه كان يضع خلسة أوراقاً داخل كتاب التعاليم بالإضافة إلى قوائم بكلمات في اللغة اليونانية اللاتينية أو تمارين وينهمك في معرفته الدنيوية طوال الساعة بأكملها. إلا أن وعيه لم يكن يغيب إلى حد أن يمنعه من أن يشعر باستمرار باضطراب مذنب وبشيء من القلق. فإذا اقترب منه القسيس أو نادى اسمه، يجفل يتوتر، وحين يضطر إلى أن يعطي جواباً كان العرق يتفصد من جبينه ويسرع وجيب قلبه. لكن أجوبته تكون

صحيحة دائماً ويصيغها بعبارات لا تشوبها شائبة بحيث أن معلمه يشعر برضى تام.

كان يؤدي الفروض الكتابية أو الحفظية المتراكمة من الدروس اليومية في وقت متأخر من المساء في المنزل على ضوء المصباح الأليف. وهذا العمل الذي كان يؤديه في جو من السكينة المنزلية والذي ينسب إليه أستاذه في المدرسة وجود أثر منشط وعميق خاص، لم يكن يمتد في المعتاد إلى ما بعد الساعة العاشرة مساء في أيام الثلاثاء والسبت، ولكن في أمسيات الأيام الأُخر، كان يظل مستيقظاً حتى الساعة الحادية عشرة أو منتصف الليل، وأحياناً حتى ما بعد ذلك. وعلى الرغم من القليل من التذمر الذي أبداه والده بشأن الزيادة التي طرأت على استهلاك الوقود، فإنه نظر إلى ما يقوم به من دراسة بعين الفخر والرضا. وخلال سويعات فراغه وفي أيام الأحد ـ والتي تشكل، عموماً، مقدار سُبع مدة حياتنا ـ كان يشعر بحافز قوي لكي يقرأ للمؤلفين الذين لم يقرأهم أثناء ساعات الدوام المدرسي ويراجع قواعد اللغة. « باعتدال، طبعاً! فالتمشي مرة أو مرتين في الأسبوع ضروري للصحة وسوف تمدك بقوة خارقة. وعندما تسمح الظروف الجوية يمكنك أن تأخذ معك كتاباً وتنطلق في الهواء الطلق، وسوف ترى كم هو سهل وممتع أن نتعلم الأشياء في الهواء الطلق. وفوق كل هذا، ابتهج! ».

وهكذا حافظ هانز على ابتهاجه بأقصى ما استطاع من طاقة وأخذ منذ ذلك الحين يستخدم مشاويره لأهداف الدراسة. وظل سلوكه يتسم بالحياء والتحفظ، ووجهه ترسمه الأوقات المتأخرة من الليل، والحلقتان الداكنتان اللتان تحيطان بعينيه المتعبتين.

twitter @baghdad_library

قال معلمه ذات يوم لمدير المدرسة: « ما رأيك بغيبنرات، هل سيتفوق؟ ».

أجاب الأخير بفرح: « سيتفوق حتماً؛ إن موهبته خارقة، يكفي أن تنظر إليه، وسترى الجو الأثيري الذي يحيط به ».

كانت درجة الأثيرية عنده قد أضحت مذهلة خلال الأسبوع المنصرم. بعينيه القلقتين والنور الكئيب يتلألأ في وجهه الطفولي الوسيم، وجبينه النبيل المخدَّد بتجاعيد دقيقة تنم عن إفراط في التفكير، وذراعيه النحيلتين الرقيقتين ويديه المدلاتين إلى جنبيه وقامة ذات جمال يذكّر بلوحة لبوتيتشللي[1].

ثم حانت المرحلة عندما بات على هانز أن ينطلق في اليوم التالي قاصداً شتوتغارت مع والده كي يثبت من خلال تقديمه الامتحان العام إن كان جديراً أن يلج البوابات الضيقة للمعهد اللاهوتي. وكان قد عقد لتوه لقاء مع مدير مدرسته.

أبلغه ذاك السيد المخيف بنبرة معتدلة غير مألوفة: « عِدني بألا تقوم بأي عمل هذه الليلة. يجب أن تصل إلى شتوتغارت وأنت بكامل نشاطك في صباح الغد. أخرج وتمشى ساعة من الزمن، ثم الجأ إلى سريرك في وقت مبكر. على الصغار أن يحظوا بقدر كاف من نوم الليل المريح ».

أصيب هانز بالدهشة أمام كل هذه العناية المفرطة التي أوليت له بدل سماع سيل مخيف من النصائح السديدة. وأطلق زفرة ارتياح لدى مغادرته مبنى المدرسة. كانت أشجار الزيزفون الضخمة السامقة تتوهج بهدوء وسط دفء شمس أواخر النهار والمياه في النافورتين الكبيرتين القائمتين وسط الساحة العامة، كانت تترشش وتتلألأ، والزرقة القاتمة لغابة الصنوبر القريبة

---

[1] ساندرو بوتيتشللي (1445-1510): رسام إيطالي فلورانسي. ـ المترجم.

كانت تبدو من فوق الخط غير المنتظم الذي يحدد سقوفاً متراجعة. وشعر هانز كأن دهراً قد انصرم منذ أن وقع بصره آخر مرة على هذا المشهد، وصدمته فتنته وجماله بقوة غريبة. صحيح إنه كان يعاني من صداع، لكنه على الأقل لم يكن مضطراً إلى أن يدرس المزيد في ذاك النهار.

شق طريقه بخطى وئيدة عابراً الساحة العامة، ومر بقاعة البلدة القديمة، ومنها إلى السوق وتجاوز محل السكاكيني حتى وصل إلى الجسر العتيق. وهناك أخذ يتمشى جيئة وذهاباً بعض الوقت، وأخيراً جلس على الحاجز العريض. كان على امتداد أسابيع وشهور يمر كل يوم أربع مرات من هذه البقعة ولم يلاحظ وجود الكنيسة الصغيرة الغوطية الطراز القائمة على الجسر ولا النهر ولا بوابة التحكم في المياه، أو سد رفع المياه، أو الطاحونة - لم يلاحظ حتى المرج المخضَّل بالمياه. وضفة النهر التي ينمو عليها شجر الصفصاف وتقوم على طولها سلسلة كاملة من المدابغ حيث يغدو النهر عميقاً والمياه خضراء وساكنة كبحيرة وأغصان أشجار الصفصاف المقوسة تتدلى لتنغمس في المياه.

الآن أدرك كم من عطل جزئية وكاملة أمضاها هنا، وكم من مرة مارس السباحة والغوص، والتجديف وصيد السمك، في هذا المكان. آه، ما أجمل صيد السمك! لقد كاد ينسى تقريباً كل ما كان يعرفه عن تلك الرياضة، وخلال العام الفائت بكى بحرقة عندما حرم عليه ممارسته بسبب امتحانه. لقد كان صيد السمك بالنسبة إليه هو أفضل ما كان يفعله خلال العام الدراسي كله. كان يقف هناك في ظل أشجار الصفصاف الخفيف، ويسمع همهمة صادرة عن سد النهر، وكم كانت المياه عميقة وساكنة! ويا لعبث الضوء على مياه النهر، وانحناء صنارة الصيد الطويلة الرقيق، والإثارة عندما تعض السمكة الطعم وتتلوى، والتشويق

twitter @baghdad_library

الخاص الذي ينتابك عندما تمسك بسمكة سمينة وباردة وهي تتلوى في يدك!.

كم من سمكة شبوط، وديس وبربيس رقيقة أصطاد، وأسماك التنش الهشة، أيضاً، والمنوه الصغيرة، الزاهية الألوان. وأخذ يحدق عبر صفحة المياه بعض الوقت، ولدى مرأى هذا الامتداد الكامل للنهر الأخضر غاص في التفكير العميق وهيمن عليه الحزن، وقد وعى أن مسرات فترة الفتوة المحببة المنطلقة، الخالية من الهم قد أمست من الماضي.

ثم أخرج من جيبه بحركة آلية قطعة من الخبز، وأخذ يكور حبيبات كبيرة وصغيرة ومن ثم يرميها إلى الماء ويراقبها وهي تغوص وتلتقطها الأسماك. وكانت أسماك المنوه الصغيرة والشبوط هي السباقة في التهام القطع الصغيرة بشراهة، دافعة القطع الأكبر حجماً أمامها بحركة متكسرة. ثم تقدمت سمكة ديس أكبر حجماً ببطء وحذر. وظهرها العريض والأسود اللون يرتفع بوهن عن القاع، ودارت متنكرة حول الحبيبات التي احتواها فجأة الفم المستدير والفاغر. وفاحت من النهر المتدفق بتكاسل رائحة رطبة ودافئة، وكانت بضع غيمات وضاءة تنعكس بشكل مبهم على صفحة المياه الخضراء، وانتحب المنشار الدائري في المطحنة، ومن كلا سدّي التحكم تناهت قهقهة المياه الجارية، الباردة، الخفيضة. وعادت أفكار هانز به إلى ذكرى يوم أحد تثبيته الأخير الذي ألفى نفسه خلاله، ووسط غمرة جو الإثارة والمهابة، يستذكر تصريف فعل في اللغة اليونانية. وكثيراً ما كان يحدث هذا معه مؤخراً، حيث يشرد ذهنه إلى أمر آخر، حتى في غرفة الصف كان دائماً يفكر في قطعة من عمل سابق أو لاحق، بدل الانتباه إلى الدرس الحاضر. آه، كم كان هذا يفيده خلال فترة الامتحان!.

نهض واقفاً، شارد الذهن، لا يعرف وجهته التالية. وعندما سقطت يدٌ قوية على كتفه أجفل بعنف. وقال له صوت ودود: « أسعدت نهاراً يا هانز، هلا تمشينا قليلاً؟ ».

إنه الحذّاء فليغ، الذي كان هانز يمضي في منزله - وإذا كان لم يفعل ذلك من بعض الوقت - سويعات من المساء في الأيام الماضية. سار هانز معه، لكنه لم ينتبه إلى ما كان الواعظ الورع يقوله. لقد كان فليغ يناقشه في آمر الامتحان، لكن الاتجاه العام كان أن مثل هذا الامتحان يقع خارج سياق الروتين المعتاد وأن الرسوب فيه ليس أمراً مشيناً؛ فذلك يحدث لأفضل الناس، وإذا كان سيء الحظ، فسيتذكر أن الله خصص لكل إنسان خططاً خاصة ودرباً معينة.

لم يكن ضمير هانز مرتاحاً تماماً بشأن فليغ. لقد كان يكن احتراماً عظيماً لصوته ولشخصيته المؤثرة، ولكنه كان قد سمع أكثر مما ينبغي من النكات عن الوعاظ. وقد اشترك فيها، غالباً رغماً عنه. وزيادة على ذلك شعر بالخجل من جبنه لأنه كان منذ بعض الوقت، يتفادى لقاء الحذّاء، خوفاً من أسئلته اللاذعة. ومنذ أن بدا هانز يغدو فخر أساتذته وربما متزمتاً قليلاً، أخذ فليغ ينظر إليه باستغراب. فقد كان الفتى هانز قد أخذ يفلت من قبضة معلمه الحسن النية، لأن هانز كان يمر في مرحلة التحدي المراهق، وحواسه كانت مرهفة لدى أي تدخل على شخصيته. في تلك الأثناء كان يسير بخطى واسعة بمحاذاته، غير واع للنظرات القلقة والمتعاطفة التي يرمقه بها فليغ.

في طريق كرنغاس قابلا القس. ألقى عليه الحذّاء تحية رسمية باردة، ثم تظاهر بالعجلة، وذلك لأن القس كان - وطبقاً لشائعة كانت سارية - أحد المنتمين إلى المدرسة الجديدة في الفكر ومعروف عنه أنه لا يؤمن حتى بيوم القيامة. لكنه أخذ الفتى معه ومضى.

twitter @baghdad_library

سأله: « كيف تسير أمورك؟ لا بد أنك مرتاح لوصولك إلى المرحلة الحالية ».

« نعم، أنا في منتهى السعادة ».

« حسن، لا تقلق. أنت تعلم أننا نعلّق عليك آمالاً عريضة. إنني أتوقع منك أداءً جيداً استثنائياً في اللغة اللاتينية ».

قال هانز بخوف: « ولكن ماذا لو رسبت؟ ».

هنا توقف القس عن السير، وقد بوغت تماماً: « ترسب؟ إن الرسوب هو ببساطة أمر مستحيل. مستحيل تماماً. يا لها من فكرة! ».

« أقصد أنه يمكن أن يحدث... ».

« بل لا يمكن، هانز، لا يمكن، لا تقلق حول هذا. والآن انقل إلى والدك أفضل أمنياتي وتحياتي ».

تابعه هانز بعينيه، ثم راح يتلفت فيما حوله بحثاً عن الحذّاء. ماذا قال، إن اللغة اللاتينية ليست بتلك الأهمية، ما دام المرء سليم الطوية ويخشى الله. إن الكلام بالنسبة إليه سهل. والآن ها هو القس، لن يستطيع أن يواجهه إذا ما رسب.

زحف مكتئباً متوجهاً إلى المنزل خلال الحديقة الصغيرة الشديدة الانحدار. وهناك كان منزل صيفي آيل إلى السقوط، لم يستخدم منذ أمد بعيد، وكان في الأيام الخوالي قد أقام داخله كيفما اتفق كوخاً خشبياً، وظل على مدى ثلاث سنوات يربي أرانب فيه. وقد حرم منها في الخريف الفائت بسبب حلول الامتحان. ولم يعد لديه وقت لمثل تلك التسالي.

بل إنه لم يكن قد ولج الحديقة منذ وقت طويل. بدا الكهف الصناعي الخالي متهدّماً تماماً، وعنقود الهوابط الموجود في الركن كان قد انهار، والناعورة الخشبية الصغيرة قد تلوّت وتكسرت إلى جانب القناة. وتذكر عندما نشر خشبه كله وبناه والتسلية

التي استمدها. حدث ذلك قبل سنتين، كأنه دهر. رفع الناعورة، وأعاد إليها شكلها السابق، ثم كسرها إلى قطعتين ورماها عبر السياج. وداعاً للدمية، لقد انتهى ذلك كله منذ زمن بعيد. وهنا تذكر صديق دراسته أوغست الذي ساعده في بناء الناعورة، وفي إقامة كوخ الأرانب على عجل. وظلا يلعبان هنا طوال فترة بعد الظهر، وضربا بالنقيفة، وكمنا للقطط، ونصبا خيماً وأكلا جزراً نيئاً على العشاء. ثم بدأت أيام العمل وترك أوغست المدرسة قبل سنة من الآن، وأصبح ميكانيكياً مبتدئاً. ولم يظهر إلا في مناسبتين. هو أيضاً لم يعد لديه الوقت الآن.

كانت ظلال السحب تتسابق عبر الوادي، وكانت الشمس قد أخذت تغوص لتوها نحو حافة الجبل. شعر هانز برهة أنه يجب أن يرتمي على الأرض ويبكي بصوت عال. لكنه بدلاً من ذلك أحضر الفأس من السقيفة وطوح بها في الهواء بذراعيه النحيلين وهشم كوخ الأرانب شذراً. وتطايرت الشظايا، وانحنت المسامير مع صرير، وكمية قليلة من طعام الأرانب الغض من بقايا الصيف السابق خرجت إلى النور. ورمى بكل شيء وكأنما بفعله هذا أمل في أن يقتل الاشتياق الذي كان يضمره للأرانب ولأوغست ولكل الألعاب الصبيانية القديمة.

هتف والده من النافذة: « والآن، ما الذي يجري هناك؟ ماذا تفعل؟ ».

« أقطع حطباً للوقود ».

لم يُجب بأكثر من هذا، لكنه رمى بالفأس وهرع يقطع أرض الفناء، طارقاً الممشى ومتتبعاً أعلى الجدول على طول ضفته. وفي الخارج، بالقرب من مصنع الجعة، كان هناك طَوْفان راسيان. وفي السنين السالفة كان كثيراً ما يطفو هابطاً أسفل الجدول ساعات طويلة في أوقات بعد الظهر الدافئة، شاعراً في وقت

twitter @baghdad_library

واحد بالخمول بالإثارة بفعل رحلته فوق صفحة الماء الذي كان يرتطم بجذوع الأشجار. قفز فوق الجذوع المتراخية العائمة، ثم استلقى على أجمة من صفصاف السلاّلين. وحاول أن يتصور أن الطوف ينساب تارة بسرعة وطوراً ببطء، متجاوزاً المروج والحقول، والقرى وحواف الغابة الباردة، من تحت الجسور، من خلال الموانع المفتوحة، وأنه متمدد عليه، وأن كل شيء كما كان عندما كان يجمع طعام الأرانب على طول الكابغبرغ، ويصطاد السمك على ضفة النهر بالقرب من المدابغ وهو خال من الصداع ومن الهموم.

يمم وجهه شطر المنزل وقد ناله التعب وفتور الهمة ليتناول طعام العشاء. كان والده شديد الفرح بشأن رحيله إلى شتوتغارت لتقديم الامتحان وظل يسأله مراراً وتكراراً عما إذا كان قد حزم كتبه، عما إذا كان قد أخرج بذته السوداء، عما إذا كان يريد أن يراجع درس قواعد اللغة أثناء الطريق، وعما إذا كان يشعر أنه في أحسن حال. وكان هانز يعطي إجابات قصيرة، مقتضبة، ولم يتناول إلا القليل من الطعام وسرعان ما ألقى تحية المساء.

« نوماً هانئاً، هانز. خذ قسطاً كافياً من النوم! إذن سأوقظك في السادسة. لا أظنك نسيت قاموسك، أليس كذلك؟ ».

« لا، لم أنس "المعجم". تصبح على خير».

ظل يقظاً فترة طويلة في غرفته الصغيرة المظلمة. إنها النعيم الوحيد الذي وفرته له ظروف الامتحان حتى الآن ـ غرفته الصغيرة التي لا يزعجه أحد وهو فيها وليس مضطراً للإجابة عن أسئلة أحد. هنا كان يتفكر طوال ساعات المساء ـ عنيد، جريء وطموح، يصارع الإرهاق والنوم والصداع جراء التفكير في

سيزار[1] وزينوفون[2]، وقواعد اللغة، والقواميس والمسائل الرياضية، وغالباً حتى درجة اليأس. هنا أيضاً أمضى الساعات القليلة التي كانت أثمن من كل مسرات الطفولة الغابرة، تلك الساعات القليلة، النادرة والساحرة، المفعمة بالكبرياء والإثارة والنصر، عندما كان يحلم، ويتمنى لو يرحل بعيداً عن المدرسة، والامتحانات وما إليها، ثم انتقل إلى دائرة الكائنات الأرقى. وتلبّسه الوعي الجريء والرائع بأنه بحق من طينة مختلفة - إنه أفضل من رفاقه المتوردي الخدود، المبتهجين، ولعله ذات يوم سوف يلقي عليهم نظرة استخفاف من علياء مترفعة. وحتى في الوقت الحاضر هو يستنشق أنفاسه عميقاً كأن هواءً أكثر حرية، وبرودة يعم الغرفة أكثر من أي مكان آخر، وجلس على السرير وأمضى بضع ساعات من الغسق في الحلم، والأمل والاشتياق. وببطء تراخى جفناه الرقيقان فوق عينيه الكبيرتين، المرهقتين، ثم انفتحتا من جديد، ورفّتا، ومن ثم أُسدلتا، وغاص رأسه الفتي، الشاحب، على كتفيه الهزيلتين، وانطرح ذراعاه النحيلان بإرهاق. استغرق في النوم، وهو ما زال يرتدي كامل ملابسه، وهدهدت يد النوم الرقيقة، الرؤوم الأمواج المصطخبة في صدره الفتي المضطرب ومحت التغضنات الصغيرة عن جبينه الوسيم.

*

كان أمراً مذهلاً. لقد تجشم القس مشقة الذهاب إلى المحطة على الرغم من أن الوقت كان مبكراً جداً. وقف الهر غيبنرات وقفة شامخة بمعطفه الفراك الأسود، لا يقوى على السكون من فرط الإثارة، والسرور والفخر، فكان يخطو بعصبية

---

(1) غيوس يوليوس سيزار (100-44 ق.م) قائد، ورجل دولة ومؤرخ روماني. - المترجم.

(2) زينوفون (431-355 ق.م) قائد ومؤرخ يوناني. تلميذ لسقراط. - المترجم.

twitter @baghdad_library

حول مدير المدرسة وهانز، معبراً عن شكره لكل الرسائل التي تتمنى لهم "سفراً موفقاً" و"حظاً سعيداً" لابنه في الامتحان، تلقاها من موظفي المحطة وقبض على حقيبته الصغيرة، أولاً بيده اليسرى، ثم بيده اليمنى. وكان تارة يتأبط مظلته، وأخرى يحشرها بين ركبتيه، وقد أسقطها عدة مرات. ثم يضعها على الأرض، ثم سرعان ما يلتقطها من جديد، حتى كنت تظن أنه متوجه في رحلة إلى أمريكا وليس إلى شتوتغارت فقط ذهاباً وإياباً. وقد بدا على ابنه ظاهرياً الهدوء التام، مع أن خوفاً سرياً كان يخنقه.

وصل القطار وتوقف، ثم استقله المسافرون. لوح مدير المدرسة له بيده، وأشعل والده سيجاراً، وأخذت البلدة والنهر يغيبان عن الأنظار إلى قلب الوادي. وكانت الرحلة بمثابة عذاب لكل منهما.

عندما وصلا إلى شتوتغارت إذا بالبهجة تدب في والده فجأة، وبدأ يعود إلى مرحه وأنسه من جديد، وأبدى كل الإثارة التي يتصف بها ابن بلدة صغيرة عندما يأتي إلى مدينة كبيرة ليقضي فيها بضعة أيام. وازداد قلق هانز وهدوءه؛ شعر في داخله بانقباض عميق. أول ما وقع بصره على البلدة، على الوجوه الغريبة، والمنازل المغالية في الزخارف، والشوارع الطويلة، المضجرة، والحافلات التي تجرها أحصنة وضجيج حركة المرور. كلها بثت الهلع والقلق في نفسه. وأُودع عند عمة له حيث سبّبت الغرف الغريبة، وهذر عمته المرح، والجلوس المطول بلا هدف وسيل عبارات التشجيع المستمر من والده، سببت منتهى الانقباض له. جلس في الغرفة، شاعراً أنه غريب ولا ينتمي إلى المكان، وعندما ألقى نظرة إلى الجوار غير المألوف، إلى عمته وملابسها المدينية، إلى السجادة وشكلها الكبير، وساعة رف

المدفأة، والصور المعلقة على الجدار أو ما يتناهى إلى مسمعه من خلال النافذة من ضجيج الشوارع، شعر كأنما قد خدع وخُيل إليه أنه كان غائباً عن منزله منذ الأزل، وأنه قد نسي كل النسيان كل معرفة كان قد اكتسبها بمشقة كبيرة.

كان ينوي أن يقوم بمراجعة أحرف اللغة اليونانية في فترة ما بعد الظهر، لكن عمته اقترحت التمشي. وللتو نهض أمام عين هانز الداخلية مشهداً من المروج الخضر وهمهمة الأشجار، فوافق بسرور. غير أنه سرعان ما أدرك أنه حتى التمشي كان متعة لها مذاق مختلف هنا في المدينة الكبيرة عما هو عليه في بلده.

مضى وحده مع عمته بما أن والده كان يقوم ببعض الزيارات في المدينة. وحالما وطأت قدمه الدرج بدأت مِحَنِهِ. فقد قابلا سيدة سمينة، تبدو عليها الأبهة انحنت عمته لها باحترام وأخذتا تثرثران بهذر. وأعاقتهما أكثر من ربع ساعة. في تلك الأثناء اتكأ هانز على الدرابزين، وشمه كلب السيدة وزمجر في وجهه وأدرك بشكل غامض أنهما كانتا تتحدثان عنه، وذلك لأن الغريبة السمينة راحت تقلّب فيه النظر من خلال نظارتها الأنفية. وما إن وصلا إلى الشارع حتى ولجت عمته أحد المحلات ولم تخرج منه إلا بعد بعض الوقت. أثناء ذلك وقف هانز في الشارع يلفه الحياء، يصطدم به المارة وينظر إليه صِبية الشارع بسخرية. وعندما خرجت عمته أعطته قطعة من الشوكولاة فشكرها بأدب على الرغم من أنه لم يكن يحب الشوكولاة. وعند ناصية الشارع التالية استقلا حافلة يجرها حصان وأخذا يقرقعان وهما يمخران الشوارع التي لا تنتهي داخل هذه الحافلة المكتظة على وقع رنين جرس مصاحب إلى أن وصلا أخيراً إلى جادة عريضة وحديقة عامة. كان فيها نافورة متدفقة بالمياه، ومساكب زهور مسيَّجة في كامل إزهارها وأسماك ذهبية تسبح

twitter @baghdad_library

في بحيرة صناعية صغيرة. أخذا يتجولان بين طول المكان وعرضه، جيئة وذهاباً، ويدوران مرة بعد مرة بين حشد من المشاة أمثالهما. وشاهدا جمهرة من الوجوه المتباينة والملابس الأنيقة، وكراس لجلوس المرضى، وعربات الأطفال وسمعا اختلاط أصواتٍ واستنشقا هواءً دافئاً ومغبراً. وأخيراً جلسا على مقعد خشبي بجوار أناس آخرين. ولم تكف عمته عن الكلام. ثم تنهدت، وابتسمت بتحبب لابن أخيها ودعته لأكل قطعة الشوكولاة. ولم تكن به رغبة في ذلك. قالت: « يا إلهي! هل ستظل أخرقَ هكذا؟ اسمع الكلام وكلها ».

عندئذ أخرج القطعة من جيبه، وأزال مقدار زاوية من الورق المفضض وأخيراً قضم قطعة صغيرة جداً. لقد كان يكره الشوكولاة على الرغم من أنه لم يكن يجرؤ على الاعتراف لعمته. وبينما كان يمص القطعة الصغيرة ويحاول أن يبتلعها، اكتشفت عمته وجود إحدى معارفها بين الحشد وهمّت بالانطلاق.

« أجلس أنت هنا. سأعود حالاً ».

انتهز هانز فرصته وأطاح بقالب الشوكولاة إلى أبعد مسافة ممكنة على المرج. ثم أخذ يؤرجح ساقيه إلى الأمام والخلف محدقاً إلى كل الناس، وهو يشعر بالانقباض. وأخيراً بدأ يراجع الأفعال الشاذة، لكنه ذعر إذ اكتشف أنها قد تلاشت من ذاكرته. لقد نسيها تماماً، وغداً موعد الامتحان العام.

عادت عمته، وكانت في تلك الأثناء قد جمعت معلومات تفيد بأن هناك هذا العام مائة وثمانية عشر متقدماً. غاص قلب الفتى ولم ينطق بأي كلمة طوال طريق العودة. وعاوده الصداع حالما وصلا إلى المنزل، وفقد الشهية لتناول أي نوع من الطعام. وأخذ يتجول في المكان تملؤه الكآبة حتى أن والده عنفه، وحتى عمته رأت أن سلوكه لا يطاق. وكان نومه عميقاً لكنه مضطربٌ،

تسكنه مشاهد كابوسية. فقد تراءى له أنه جالس في قاعة الامتحان مع مائة وسبعة عشر متقدماً آخر، وكان الشخص الممتحِن الذي بدا في أول الأمر مشابهاً للقس الموجود في بلدته ثم لعمته، كان يكوِّم أمامه تلالاً من الشوكولاة المطلوب منه أن يأكلها. وبينما هو يأكل، وعيناه طافحتان بالدموع، رأى الآخرين ينهضون واحداً تلو الآخر ويختفون خلال باب صغير. لقد أكلوا جميعاً حصتهم من الشوكولاة في حين أن حصته كانت تزداد باضطراد أثناء مراقبتهم، وتفيض عبر حافة المقعد وكأنها تنوي أن تخنقه.

في اليوم التالي وبينما كان هانز يشرب قهوته، ولا يجرؤ على أن يزيح عينيه عن ساعة يده خشية أن يتأخر عن الامتحان، كان أمر يشغل فكر الكثير من أبناء بلدته، خاصة الحذّاء فليغ. وهذا الأخير كان يتلو الصلوات قبل تناول طعام الإفطار مع عدد من أفراد عائلته، ومعاونيه، والمبتدئين الاثنين يقفون على شكل دائرة حول المائدة، وكان الحذّاء يضيف إلى صلاة الصباح المعتادة قوله: «يا رب، احرس أيضاً التلميذ هانز غيبنراث الذي يقدم امتحانه اليوم؛ باركه وقوِّه حتى يصبح ذات يوم منادياً قوياً وشجاعاً باسمك المقدس!».

على الرغم من أن القس لم يكن في الواقع يصلي لأجله، إلا أنه قال لزوجته وهما على مائدة الإفطار: «الآن يدخل غيبنراث إلى قاعة الامتحان. سوف يبلو بلاءً حسناً، وذات يوم سوف يغدو محط أنظار الجميع ولن يضيرني عندئذ أن أكون قد ساعدته في إتقان اللغة اللاتينية».

في غرفة الصف، وقبل بدء الدرس الأول، قال الأستاذ لبقية التلاميذ: «إن الامتحان العام يوشك أن يبدأ في مدينة شتوتغارت وعلينا أن نتمنى لغيبنراث كل الحظ، وإن كان ليس

twitter @baghdad_library

بحاجة إليه، فهو يعادل عشرة منكم مجتمعين أيها الكسالى!».
وقد كان أغلب التلاميذ يفكرون في التلميذ الغائب خاصة أولئك الذين كانوا يتراهنون على فشله في الامتحان أو نجاحه.

ولما كانت الشفاعة والتعاطف العميق يصلان ما بين المسافات الشاسعة، فقد استشعر هانز أيضاً تفكير أهل بلده فيه. ثم دخل قاعة الامتحان يرافقه والده، وقلبه واجف يرتجف، منفذاً تعليمات معلمه، وهو يحدق متلفتاً حوله في القاعة الرحبة المملوءة بالتلاميذ الشاحبين، يشعر وكأنه مجرم في غرفة التعذيب. ولكن حالما وصل الأستاذ المشرف وطلب منهم أن يلزموا الصمت، وأملى عليهم نص امتحان اللغة اللاتينية، هدأت غلواؤه ووجده سهلاً إلى حد السخف. وبسرعة بل وبمرح، ملأ ورقة المسودة بالأجوبة. ثم أعاد نسخها بخط أنيق وبعناية، وكان أول من سلّم ورقته. وعلى الرغم من أنه أضاع طريق عودته إلى منزل عمته، وأخذ يجوب الشوارع القائظة على مدى ساعتين، إلا أن ذلك لم يعكر صفو رياطة الجأش المكتسبة حديثاً، بل لقد سره كثيراً أن يفلت من قبضة عمته ووالده بعض الوقت، ليستكشف الحي السكني، الضاج، كمستكشف شجاع. ثم أخذ يستعلم عن طريق العودة، وعندما وصل وجد في انتظاره سيلاً من الأسئلة.

«كيف جرى الأمر؟ كيف كان الامتحان؟ كيف وجدت المادة؟».

أجاب بفخر: «أسهل مما يمكن. كان في إمكاني أن أترجم تلك القطعة في السنة الخامسة».

ثم تناول الطعام بشهية مفتوحة.

بعد ظهر ذاك اليوم لم يكن لديه امتحان. فجرَّه والده معه وأخذ يتنقل بين الأصدقاء والأقارب. وفي إحدى تلك المنازل قابل صبياً خجولاً كان يرتدي ملابس سوداء، وكان أحد زملاء

الامتحان من غوبنغن. وتُرك الولدان وشأنهما، فأخذا يتبادلان نظرات الفضول الحيية.

سأله هانز: «كيف وجدت امتحان اللغة اللاتينية؟ سهل، أليس كذلك؟».

«سهل جداً. ولكن دائماً يحدث أنك ترتكب أغلب الأخطاء في الامتحان السهل، وتكمن لك بعض العقبات الصغيرة».

«أتظن؟».

«طبعاً! إن الأستاذ ليس غبياً إلى هذا الحد».

ذهل هانز تماماً، واستغرق في التفكير. ثم سأله بخوف: «أما زلت تحتفظ بنسخة الامتحان؟».

قدّم الفتى له دفتره وأخذا يمران على النص كلمة فكلمة، وجملة بعد جملة. بدا المتقدم من غوبنغن ضليعاً في اللغة اللاتينية، فقد استخدم على الأقل مرتين عبارات قواعدية لم يسمع هانز بها.

«وماذا لدينا غداً؟».

«اللغة الإغريقية، والتعبير الألماني».

ثم سُئل هانز كم مرشحاً أرسلت مدرسته.

«فقط أنا».

«أوه، نحن إثنا عشر من غوبنغن! ثلاثة بيننا من اللامعين الذين يتوقع أن يكونوا بين العشرة الأوائل. وفي العام الماضي كان الأول أيضاً من غوبنغن. هل ستلتحق بالمدرسة الثانوية إذا ما رسبت؟».

لم يكن هانز ناقش هذا الأمر مع أحد.

«لم أفكر في الأمر..لا. لا أعتقد ذلك».

twitter @baghdad_library

« أحقاً؟ أنا سأتابع دراستي مهما كانت النتيجة، حتى وإن رسبت. سوف تسمح أمي لي بالالتحاق بالمدرسة في أولم ».

أثرت هذه الحقيقة بعمق في هانز. وأولئك المرشحون الاثنا عشر من غوبنغن والثلاثة اللامعون سببوا له الاضطراب. بدا أنه لا فرصة متاحة له للنجاح.

في المنزل جلس وأخذ يراجع صيغ الفصل للمرة الأخيرة. إنه لم يكن يقلق قط بشأن اللغة اللاتينية، لقد كان واثقاً من نفسه في هذا المجال. أما اللغة الإغريقية فكانت مسألة مختلفة. لقد كان يحبها دون شك، لكنه لم يكن يتحمس لها إلا عندما يتعلق الأمر بقراءتها. لغة زينوفون خاصة كانت غاية في الجمال والسلاسة والنضارة. كانت تبدو رشيقة، حيوية، وجذلة، وسهلة الفهم. ولكن عندما يتعلق الأمر بقواعد اللغة، أو الترجمة من الألمانية إلى الإغريقية، يشعر أنه علق في متاهة من القوانين والصيغ اللغوية المتناقضة وينتابه الخوف من اللغة الغريبة، كما كان قد حدث له أثناء تلقيه الدرس الأول في الإغريقية حين لم يكن يعرف حتى الحروف الأبجدية.

في اليوم التالي كان النص الإغريقي طويلاً جداً، وأبعد من أن يكون سهلاً. وكان موضوع الإنشاء باللغة الألمانية مبهماً جداً بحيث يمكن إساءة فهمه بسهولة. وبدءً من الساعة العاشرة أصبح الجو في القاعة حاراً وخانقاً. ثم إن رأس قلمه لم يكن جيداً وأفسد صحيفتين من الورق قبل أن يتمكن من إخراج نسخة جيدة من اللغة الإغريقية. وخلال امتحان الإنشاء بالألمانية كاد يصاب بالهذيان من وقاحة زميله في المقعد دسّ له ورقة تحتوي سؤالاً ثم لكزه، وحاول أن يجبره على أن يعطيه جوابه. وطبعاً كان الاتصال بمن يجاوره ممنوعاً منعاً باتاً ومخالفة ذلك يعني حرمانه من الامتحان. فكتب له هانز، وهو

يرتجف من الخوف: «دعني وشأني». وأدار ظهره لرفيقه. وازداد الجو حرارة، حتى المشرف على الامتحان الذي كان يسير جيئة وذهاباً في القاعة بدون أن يرتاح لحظة واحدة مرّر منديله مرات عدة على وجهه. وأخذ هانز يتصبب عرقاً في بذلته "الخاصة بالعماد" السميكة، وأصيب بصداع. وأخيراً سلّم ورقة امتحانه، ولم يكن مسروراً قط، وكان متأكداً من أنها ملأى بالأخطاء، وأن علاقته بالامتحان انتهت عند هذا الحد.

على مائدة الغداء لم ينطق بكلمة واحدة، وكان عندما يوجَّه إليه سؤال يكتفي بهز كتفيه وتجهَّمَ كمن ارتكب جريمة. وحاولت عمته أن تواسيه لكن والده كان حانقاً وعنّفه. وبعد الانتهاء من تناول الطعام أخذ الفتى إلى غرفة أخرى وحاول أن ينتزع منه من جديد أجوبته عن الامتحان.

أصر هانز قائلاً: «لقد كان سيئاً جداً».

«لِمَ لم تنتبه أكثر؟ كان يمكنك أن تتماسك أكثر. اللعنة!».

لزم هانز الصمت، ولكن عندما بدأ والده يشتم احمرّ وجهه، وقال: «أنت لا تعرف أي شيء عن اللغة الإغريقية».

كان أسوأ ما في الأمر أن امتحاناً شفوياً ينتظره في الساعة الثانية بعد الظهر. وكان يخشاه أكثر من الامتحانات المتبقية كلها مجتمعة. وبينما كان يقطع شوارع المدينة الحارة في طريقه لتقديم امتحان بعد الظهر انتابه شعور بائس تماماً. كان بالكاد يرى طريقه من فرط الخوف والإحساس بالدوار. وعلى مدى عشر دقائق جلس يواجه ثلاثة من السادة عبر طاولة خضراء واسعة، يترجم بضع جمل من اللاتينية، ويجيب على أسئلتهم. وعلى مدى عشر دقائق أخرى جلس أمام ثلاثة آخرين وترجم عن اللغة الإغريقية وأجاب عن مجموعة أخرى من الأسئلة. وفي النهاية سألوه إن كان يعرف صيغة فعل أوريستية شاذة، فلم يعرف.

twitter @baghdad_library

« يمكنك أن تذهب الآن. الباب هناك، إلى يمينك ».

نهض واقفاً، لكنه عند الباب تذكر الصيغة الأوريستية فتوقف.

فقالا له: « هيا، هيا، أم أنك تشعر بتوعك؟ ».

« لا، لكني تذكرت لتوي الصيغة الأوريستية ».

صرخ بالجواب داخل القاعة، ورأى أحد السيدين ينفجر بالضحك، فاندفع خارجاً من الغرفة، وقد احتقن وجهه. ثم حاول أن يتذكر الأسئلة والأجوبة، لكن كل شيء كان مختلطاً في رأسه. وكانت صورة الطاولة الفسيحة الخضراء، والأساتذة الثلاثة العجائز بمعاطفهم القصيرة تومض في ذهنه، والكتاب المفتوح، ويده المرتجفة فوقه. يا لله، كم كانت أجوبته مشوشة!.

أثناء سيره في الشوارع، شعر كأنه موجود في المدينة منذ أسابيع طويلة وأنه لن يستطيع أن يهرب منها أبداً. وبدت حديقة والده في البيت، والجبال التي أضحت زرقاء بأشجار التنوب، وأماكن الصيد على ضفاف النهر، نائية، وكأنه عرفها من زمن بعيد. آه، ليته يعود إلى بيته الآن. فبقاؤه ها هنا لم يعد له أي معنى، سوف يرسب في الامتحان دون أدنى شك.

اشترى قطعة حلوى وأمضى فترة ما بعد الظهر جوّاباً الشوارع، لكي لا يضطر إلى مواجهة والده. وعندما عاد أخيراً إلى البيت وجدهم قلقين عليه، ولأن الإرهاق والبؤس كانا باديين عليه أطعموه مقدار طاس من الحساء ومن ثم دسّوه في السرير. في اليوم التالي كان ينتظره أداء امتحان الرياضيات والدين، وبعد ذلك سيكون في وسعه أن يعود إلى منزله في القرية.

في صباح اليوم التالي سار كل شيء على ما يرام. ورأى هانز أن من المضحك المبكي أن ينجح في كل امتحانات هذا اليوم

بعد أن واجهه سوء حظ كامل في المواد الرئيسية في اليوم السابق. لا يهم، إذن كل ما يريده هو أن يعود إلى وطنه.

أعلن لعمته قائلاً: «لقد انتهت الامتحانات، والآن سأعود إلى وطني».

أراده والده أن يمكث يوماً لكي يذهبا إلى كانشتات ويشربا القهوة، في حديقة المنتجع هناك. لكن هانز توسل إليه بحرارة أن يسمح له أن يغادر في ذاك اليوم بالذات. فرافقاه حتى القطار، وأعطياه بطاقة السفر، وقبلته عمته وأعطته بعض الطعام ليأكله. وانطلق مسافراً، مرهقاً، خاوي الذهن، بين تلال الريف الخضراء. ولم يغمره الفرح والارتياح إلا عندما شاهد الجبل المكسو بأشجار التنوب الداكنة. كان يتوق إلى رؤية آنّا، الخادمة، وغرفته الصغيرة، وأستاذه، وغرفة الصف الأليفة، الواطئة السقف، باختصار، كل شيء.

لحسن الحظ لم يكن على رصيف المحطة أي من المعارف الفضوليين وكان في إمكانه أن يهرع قاصداً المنزل مباشرة مع حقيبته الصغيرة بدون أن يراه أحد.

سألته آنّا: «هل أمضيت وقتاً طيباً في شتوتغارت؟».

«أتقولين وقتاً طيباً؟ كيف يمكن للامتحان أن يكون وقتاً طيباً؟ إنني في غاية السعادة لأني عدت إلى بيتي. سوف يعود والدي غداً».

شرب ملء طاس من الحليب الطازج، ثم أحضر سروال السباحة المعلق أمام النافذة وانطلق، ولكن ليس إلى المروج حيث يذهب الجميع ليسبحوا.

سار بعيداً خارج البلدة إلى الـ "ميزان" حيث تتدفق مياه النهر بطيئة وعميقة، بين الشجيرات العالية. وهناك تجرد من ملابسه، واختبر برودة المياه أولاً بيده ومن ثم بقدمه، وارتعش برهة ثم

twitter @baghdad_library

غاص بدءً برأسه في مياه النهر الباردة وشعر، وهو يسبح ضد التيار الضعيف، أنه يطرح عنه عرق خوف الأيام الأخيرة. وأسرع أكثر في إيقاع سباحته، ثم ارتاح، ثم واصل السباحة وشعر أنه مغلف بتعب وببرودة لذيذين. وأخذ يعوم على ظهره مستسلماً مرة أخرى لتيار النهر، وأنصت إلى الهمهمة الرقيقة لذباب المساء الذي تحوم حشوده في دوائر ذهبية، وراقب عصافير السنونو، وهي تشق عنان سماء تصبغها الشمس الغاربة خلف الجبال بلمسة من اللون الوردي. وبعد أن ارتدى ملابسه سار بخطى متمهلة حالمة قاصداً المنزل، وكانت الظلال قد أخذت تملأ الوادي.

أثناء سيره مر من أمام حديقة منزل ساكمن، صاحب المحل التجاري الذي سرق منه مع حفنة من الأولاد بعض ثمار الخوخ الفجة. ومر بفناء منزل كيرتشنر المحاط بسور من خشب. كانت جذوع شجر التنوب ملقاة في الأرض وكان متعوداً على أن يعثر تحتها على الديدان من أجل طعم الصيد. ثم مر بمنزل المفتش غسلر الذي ظل مدة سنتين منجذباً إلى ابنته إيما، عندما ذهب لممارسة التزلج على الجليد. وكانت أرق تلميذة وأكثرهن أناقة في ملبسها في البلدة كلها، وكانت في مثل سنه، وفي وقت من الأوقات كانت أمنيته الوحيدة أن يتحدث إليها ويمسك بيدها ولو لمرة واحدة. لكن الأمر لم يصل قط إلى هذا الحد، فقد كان شديد الحياء. وهي الآن ملتحقة بمدرسة داخلية ولم يعد يتذكر شكلها. هذه الذكريات من عهد الطفولة كلها عادت إليه كأنما من مسافة عظيمة، ولكن بحيوية ظلت تفوح بعبق من الحنين الغريب، بشكل يفوق كل ما اختبره في حياته. ومرت عليه أيام كان يجلس خلالها عند ممر باب منزل ناشولد حيث تقشر ليزه البطاطا، وينصت إلى حكاياتها، ويذهب، في وقت من

أيام الآحاد مرفوع كمي البنطال، ومع إحساس بالذنب، إلى السد بحثاً عن جراد البحر ولكي يسرق سمك المنوه في الأفخاخ، ليكون نصيبه بعد ذلك الضرب من والده، وهو في ملابس يوم الأحد. لقد كان هناك عدد كبير من الأناس والأشياء المحيرة في تلك الأيام. وعندئذ لم يولها الكثير من تفكيره. فكان هناك الإسكافي ذو العنق الملتوي، وشتومايرالذي كان (كما كان يقول الجميع) قد سمَّم زوجته، والـ "هر" بكْ المغامر، الذي طاف المقاطعة كلها سيراً على قدميه وليس مَعه غير عصا يتكئ عليها وحقيبة ظهر، وكانوا ينادونه بـ "هر" لأنه كان ذات يوم ثرياً ويملك أربعة أحصنة وعربة. ولم يكن هانز يعرف أكثر من أسمائهم وكان يشعر بإبهام أن عالم الأزقة والوديان الصغير الغامض هذا قد ضاع بالنسبة إليه دون أن يحل محله آخر حيوي أو يستحق العيش فيه.

لما كان ما يزال معه إذن غياب عن المدرسة في ذاك النهار، فقد استغرق في النوم حتى وقت متأخر من الصباح، واستمتع بحريته. وعند الظهيرة استقبل والده عند المحطة. وكان والده ما يزال يثرثر بشكل ممتع عن تجاربه في شتوتغارت كلها.

قال بروح مرحة: « سوف أمنحك كل ما ترغب إذا نجحت. فكر في الأمر».

تنهد الصبي وقال: « لا، لا، أنا متأكد من أني سأرسب ».

« أيها الأحمق الأبله، ماذا دهاك؟ قل ماذا تريد قبل أن أغيّر رأيي ».

« أرغب في أن أتمكن من ممارسة صيد السمك أثناء العطلة ».

« عظيم. لك ما تريد إذا نجحت ».

twitter @baghdad_library

في اليوم التالي، يوم الأحد، حدثت عواصف رعدية وسيل من الأمطار، فجلس هانز ساعات طويلة في غرفته، يفكر ويقرأ. ومرة أخرى راجع ما كان قد أنجزه في شتوتغارت ومرة أخرى توصل إلى أن حظه عاثر، ولم يحقق الكثير. على أية حال، فهو حتماً لم يقدم ما من شأنه أن يوصله إلى النجاح. يا لهذا الصداع الأحمق! وأخذ تدريجياً يشعر بالإحباط وتتزايد مخاوفه، وأخيراً ذهب ليقابل والده، وهو في حالة قلق عارم.

« أبي.. ».

« ما الأمر؟ ».

« أود أن أسألك شيئاً. عن رغبتي. أفضّل أن لا أذهب إلى صيد السمك ».

« لماذا تثير هذا الموضوع من جديد الآن؟ ».

« لأني... لأني أريد أن أسال إن كنت... ».

« انطق. ما هذه المهزلة. ماذا تريد؟ ».

« إن كان في استطاعتي أن ألتحق بالمدرسة الإعدادية إذا لم أنجح؟ ».

لم ينبس الهر غيينراث بكلمة.

ثم انفجر قائلاً: « ماذا؟ مدرسة إعدادية؟ تذهب إلى مدرسة إعدادية؟ من أدخل هذا المشروع في رأسك؟ ».

« لا أحد. أنا فقط فكرت... ».

كان الخوف القاتل يطل من قسمات وجهه كلها لكن والده لم يلاحظه.

قال وهو يضحك قسراً: « ابتعد، ابتعد. يا لها من أفكار متهورة. يبدو أنك تحسبني مدير بنك ».

لقد طرد الأمر من رأسه حتى أن هانز تخلى يائساً عن فكرة الخروج من البيت.

ثم سمع والده يغمغم وراء ظهره: « أي ولد هذا! إنه لا يصدّق. ها هو الآن يريد أن يلتحق بالمدرسة الإعدادية. إرخ لهم الحبل قليلاً وإذا بهم... ».

جلس هانز عند عتبة النافذة مدة نصف ساعة، يحدق إلى ألواح خشب الأرضية الملمعة حديثاً وحاول أن يتخيل كيف سيكون شعوره إذا لم يلتحق بالأكاديمية أو بالمدرسة الإعدادية لكي يكمل دراسته. سوف يغدو صبياً يعمل في متجر لبيع الجبن أو يصبح موظفاً حكومياً وتكون حياته برمتها مثل حياة أي إنسان عادي فقير، من النوع الذي يمقته ويريد أن يتفوق عليه. والتوى وجه تلميذ المدرسة، الذكي، والوسيم في تكشيرة قبيحة ملؤها الغضب والتألم. ثم قفز واقفاً في فورة من غضب عارم وبصق، وقبض على كتاب المقتطفات اللاتينية الملقى إلى جانبه وطوحه بكل ما أوتي من قوة إلى الحائط. ثم اندفع راكضاً تحت المطر.

في صباح يوم الاثنين توجه إلى المدرسة.

سأله المدير، وهو يصافحه: « كيف سار كل شيء؟ حسبت أنك ستأتي لمقابلتي بالأمس. كيف كان الامتحان؟ ».

أطرق هانز.

« ماذا حدث؟ ألم تحسن الأداء؟ ».

« أعتقد أني فعلت، نعم ».

هدّأ العجوز من روعه قائلاً: « فقط تجمل بالصبر. قد نحصل على النتائج من شتوتغارت في هذا الصباح ».

بدا له أن فترة الصباح لن تنتهي. ولم تصل النتائج، وأثناء تناوله وجبة الغداء تعسر عليه أن يبتلع الطعام، وكاد يجهش بالبكاء بصوت عال.

عندما ولج غرفة الدرس عند الساعة الثانية من بعد الظهر كان الأستاذ موجوداً هناك.

twitter @baghdad_library

تقدم هانز منه، فصافحه أستاذ الصف.

« تهانينا. لقد كان ترتيبك الثاني على الولاية في الامتحان ».

ران صمت رزين على غرفة الصف، ثم فُتح الباب ودخل منه المدير.

« تهانينا. حسن، ما قولك الآن؟ ».

بدا الفتى وكأنه مشلول تماماً بفعل الدهشة والفرح.

« حسن، أليس لديك ما تقول؟ ».

قال بدون تركيز: « لو كنت أعلم هذا، لاستطعت أن أكون الأول ».

قال المدير: « حسن، في إمكانك الآن أن تذهب إلى البيت، لكي تزف النبأ السعيد إلى والدك. لا حاجة بك إلى أن تعود إلى المدرسة. إن العطلة ستبدأ على أية حال بعد ثمانية أيام من الآن ».

خرج الفتى، مذهولاً، إلى الشارع. فرأى أشجار الزيزفون وساحة السوق تغمرها الشمس الساطعة، وكل شيء كعادته، مع ذلك كان أشد جمالاً. يا الله، لقد نجح! وجاء ثانياً. وبعد أن خفّت موجة الفرح الأولى، ملأه إحساس عميق بالامتنان. الآن يستطيع أن يواجه القس بكل ثقة. الآن سوف يتابع دراسته. الآن لم يعد لديه أي مخاوف من العمل الشاق في محل للبضاعة أو مكتب حكومي.

ثم إن في استطاعته أن يعود إلى ممارسة صيد السمك. ولدى وصوله إلى المنزل كان والده واقفاً في ممر الباب.

سأله برشاقة: « ما الأخبار؟ ».

« لا شيء يستحق الذكر. لقد طردوني من المدرسة ».

« ماذا؟. ولكن لماذا؟ ».

« لأني أصبحت الآن من الأكاديميين ».
« آه، لعنني الله، إذن فقد نجحت؟ ».
هز هانز رأسه إيجاباً.
« بأي درجة؟ ».
« جئت ثانياً ».
إن هذا يفوق ما كان الرجل العجوز يأمل فيه. ولم يدر ماذا يقول، فألفى يده موضوعة على كتف ابنه وأخذ يضحك ويهز رأسه جيئة وذهاباً. ثم فتح فمه كأنه يبغي أن يقول شيئاً، لكنه اكتفى بمواصلة هز رأسه.
ومن جديد هتف، مرة أخرى: « لعنني الله، لعنني الله ».
هرع هانز مندفعاً إلى داخل المنزل، وارتقى الدرج إلى العلية، وفتح بحركة قوية الخزانة الجدارية، وأخذ يفتش بدقة داخلها. ثم أخرج من الصناديق بكرات من الخيطان وقطعاً من الفلين. إنها عدة الصيد. كل ما عليه الآن أن يفعله هو أن يقتطع لنفسه قضيباً. وهبط إلى الطابق السفلي لدى والده.
« أبي، هل لي أن أستعير سكين الصيد خاصتك؟ ».
« ولِمَ؟ ».
« لكي أقتطع لنفسي قصبة للصيد ».
مد الوالد يده إلى جيبه، ثم ابتسم ابتسامة مشرقة وهو يقول: « خذ، إليك ماركين. إذهب وابتع لنفسك سكيناً خاصة بك. ولكن اذهب إلى السكاكيني وليس إلى محل هانغريد ».
لقد تم إعداد كل شيء بالسرعة القصوى. وسأله السكاكيني عن إنجازه في الامتحان. فسمع منه النبأ السعيد وأحضر لهانز سكيناً جيدة ممتازة. وعلى ضفاف النهر، تحت جسر برويل، كانت تنهض شجرة جار الماء، نحيلة وجميلة، وشجيرات البندق. وهناك، وبعد أن قام بعملية اختيار دقيقة، اقتطع لنفسه قصبة مرنة، قوية، ومثالية وأسرع عائداً بها إلى المنزل.

twitter @baghdad_library

كان وجهه متورداً، وعيناه متوهجتين، وجلس ليقوم بمهمة إعداد قصبته البهيجة. لقد كان حبه لأداء هذا العمل لا يقل عن حبه لصيد السمك نفسه. وأمضى طيلة فترة ما بعد الظهر والمساء في تنفيذ المهمة. ففرز الخيوط البيضاء والبنية، وتفحصها بمشقة، وأصلحها، وخلصها من العديد من العقد والتشابكات. واختبر أنواع فلين التعويم والخيطان بأشكالها وأحجامها كافة التي قطعت حديثاً، وطرق قطعاً من الرصاص على شكل خردقات صغيرة، وزودها بأثلام من أجل موازنة الخيوط. ثم انهمك بالصنارات. وكان قد تبقى لديه منها كمية قليلة. فثبت بعضها على خيط أسود ذي أربع طيات، وأخرى على خيط مصنوع من الأمعاء. وثبت الباقي على شعر الفرس بعد أن جُدِل معاً. وعند ما يقارب منتصف الليل كان كل شيء قد أضحى جاهزاً. وتيقّن هانز من أن الملل لن يتسرب إليه خلال فترة الأسابيع السبعة الطويلة من الإجازة، فقد كان في وسعه أن يقضي أياماً بأكملها وحده مع قصبة صيد السمك على ضفة النهر.

twitter @baghdad_library

2

إما أن تكون إجازات الصيف هكذا أو لا تكون! سماء زرقاء بلون زهرة الجنطيانا تمتد فوق التلال، ويمر يوم حار براق إثر آخر وأسبوع بعد أسبوع في تواصل مستمر، لا تقطعه إلا عواصف رعدية عنيفة وجيزة الأمد مع زخة مطر. وعلى الرغم من أن النهر يجري على جرف ذي حجارة رملية، وخلال ممرات ضيقة وغابات، فإن مياهه كانت دافئة جداً حتى أن في الإمكان أن نسبح فيه حتى في أواخر فترة ما بعد الظهر. ويمكن أن تشم في كل أرجاء البلدة عبير التبن والأزهار. وكانت شقق الأراضي التي نما عليها القمح قد تحولت صفراء اللون وسمراء محمرة، والأعشاب البيضاء، الشبيهة بالشوكران، علت وسمقت وأزهرت منمقة، على طول الجداول، وبراعمها البيضاء دائماً مغطاة بلطخة تشبه المظلة من الحشرات الصغيرة جداً، ولها سويقات تستطيع أن تصنع منها نايات ومزامير. وأرتال طويلة من نبات آذان الدب الفخيمة والصوفية الشكل تستعرض نفسها على طول حواف الغابة، ودفلى الصفصاف والسنغيَّة الأرجوانية تتمايل على سويقاتها النحيلة والقوية، غامرة المنحدرات كلها باللون الأرجواني. وداخل الغابة ذاتها، وتحت أشجار البيسيَّة

نهضت القمعية الأرجوانية، ذات الأزهار الحمراء، السامقة، مهيبة، جميلة وغريبة، بأوراقها الجذرية الفضية، والليفية العريضة، والساق القوية، والصفوف العالية للأزهار ذات شكل الحنجرة، الحمراء الجميلة، وإلى جوارها نبتت أنواع الفطر كلها: الغاريقون الأحمر اللامع، والفطر العادي اللحمي السمين، وفطر كف الدب المتشابك الأحمر، وعش عصفور الصنوبر السقيم الشكل العديم اللون بشكل غريب. وعلى الكثير من الضفاف المكسوة بالخلنج بين الغابة والحقول المحيطة توهج الوزال القاسي، بلونه الأصفر الناري، ثم بعده جاءت شقق طويلة من رقع الخلنج ذات اللون الأحمر- الليلكي، وتبعتها الحقول نفسها، التي في أتم استعداد لتجزّ ثانية، وقد ازداد نمو قدر هائل من حُرْف المروج، والمنثور البري، والمريمية، وشيخ الربيع. وكانت الغابات ترجِّع سقسقة الدوري المتواصلة وتغريده. وفي أدغال شجر الصنوبر تقافزت السناجب ذات اللون الأحمر الثعلبي من شجرة إلى أخرى، وعلى طول الحواف، وعلى الجدران، والخنادق الجافة جلست السحالي الخضراء تتشمس، وكان في الإمكان سماع العويل المستمر، والنفير الذي لا يكل لزيز الحصاد.

في ذاك الوقت من السنة كانت البلدة تترك أثراً رعوياً قوياً. حيث عربات التبن المنتشرة، وعبير العشب وقرقعة المناجل تملأ الشوارع ويعبق الهواء بها. ولولا وجود مصنعين لحسبت أنك في قرية ريفية.

في الصباح الباكر لأول يوم من إجازته، وقف هانز بصبر نافد في المطبخ بانتظار قهوته حتى قبل أن يتاح لآنا أن تنهض من فراشها. فأسهم في إشعال النار وفي إحضار الخبز من عند الخبان، وأسرع في ابتلاع القهوة التي بردّها بإضافة الحليب الطازج، وحشا جيبه ببعض الخبز ومن ثم انطلق. وفي أعالي

twitter @baghdad_library

جسر سكة الحديد أخرج من جيب بنطاله علبة صغيرة من التنك وانهمك في تصيد الجنادب. ومر القطار. ليس بسرعة كبيرة، وإنما بتقدم مريح بسبب المنحدر الشديد ـ وكانت نوافذه كلها مفتوحة، ولا يحمل إلا حفنة من المسافرين ويجر خلفه راية طويلة من الدخان والبخار. راح هانز يتابعها بنظره، ويراقب الدخان وهو يتلاشى ثم يختفي في الفضاء المشمس. وأخذ يستنشق بعمق وكأنه يريد أن يعوض ضعف ما خسره من وقت، ويعود من جديد فتى حراً، لا يعرف الهم.

ارتعش قلبه بهجة وتوقاً إلى الصيد وهو يحمل علبته المملوءة بالجنادب وقصبة الصيد الجديدة، ويعبر الجسر إلى "جرن الحصان" وهو أعمق منطقة من النهر. وكانت هناك بقعة إذا اتكأت فيها على شجرة صفصاف تستطيع أن تصطاد من السمك بسهولة أكثر وبدون أي إزعاج أكثر من أي مكان آخر. وحلَّ الخيط، وربط قطع الرصاص الصغيرة به، ثم خوزق بلا رحمة جندباً سميناً وأطاح به بحركة واسعة إلى منتصف النهر. وبدأت اللعبة القديمة، الشهيرة: احتشدت أسماك المنوّه الصغيرة في المياه الضحلة المدوِّمة حول الطعم، محاولة أن تنزعه من الصنارة. وسرعان ما التهمت الجندب، فوضع ثان، فثالث، ثم رابع وخامس. كان في كل مرة يربطه بعناية أشد بالصنارة، وأخيراً وازن الخيط بقطعة رصاص صغيرة، وهنا تذوقت أول سمكة حقيقية الطعم. لكزه قليلاً، وأرخاه، ثم عاد فسحبه ثانية. هذه المرة قضمته السمكة. وصائد السمك البارع يشعر بالاهتزازة في الخيط وفي القصبة التي يمسكها بين أصابعه. ثم قام بحركة التواء ماكرة وبدأ بسحب خيطه بعناية فائقة. صيدت السمكة كما ينبغي وعندما ظهرت لعين هانز لاحظ أنها من نوع "الرَّد". وسمكة الرّد يمكن التعرف عليها على الفور ببطنها العريض الذي

يومض بلون الأبيض المصفرّ، ورأسها المثلث، ولكن أبرز ما تتميز به هو اللون الوردي اللحمي الجميل لزعانفها البطنية. كم يبلغ وزنها يا ترى؟ ولكن قبل أن يتاح له أن يخمِّن وزنها، قامت السمكة بحركة قفز يائسة وشقت طريقها إلى سطح المياه وفرَّت. وظل يراها وهي تدور ثلاث مرات أو أربع في الأعماق. على أية حال إنه لم يتشبث بها كما يجب.

عندئذ كانت الإثارة والتركيز العميق على الصيد، قد استوليا على هانز. ولم تزح عيناه مرة واحدة عن الخيط البني الرفيع حيث يختفي تحت الماء، وكانت وجنتاه متوقدتين، وحركاته مقتضبة، وسريعة وواثقة. ثم عضت سمكة رد أخرى على الصنارة وسحبت إلى اليابسة، وهذه المرة كانت سمكة شبوط أصغر كثيراً من أن تستحق العناء، وكذا، توالت السمكات، وكانت ثلاثاً من أنواع الشبوط. وكانت الشبوطيات بالذات تفرحه لأن والده كان يحبها كلها. فهي غزيرة اللحم، وحراشفها صغيرة، ورأسها كبير ولها لحية غريبة الشكل بيضاء اللون، عيناها صغيرتان وذيلها نحيل. ولونها هو مزيج من البني والرمادي وعندما تصبح على اليابسة يتحول لونها إلى أزرق فولاذي.

في تلك الأثناء كانت الشمس قد ارتفعت وعلت. والزبد المتشكل في أعلى السد أخذ يتلألأ كالثلج، وارتعش الهواء الدافئ فوق سطح المياه، ولو رفعت نظرك عالياً لرأيت بضع غيمات مبهرة البياض بحجم راحة اليد. أصبح الجو حاراً، ولا شيء يعبر عن مدى حرارة يوم من قلب فصل الصيف بقوة أكثر من بضع غيمات بيضاء تبدو وكأنها ثابتة لا تتحرك في وسط المسافة ما بين السماء والأرض، غيوم شديدة التشبع بالضوء حتى لتعجز العينان عن النظر إليها مطولاً. ولولا تلك الغيمات لما أدركت

twitter @baghdad_library

مدى شدة الحر. فلا السماء الزرقاء ولا صفحة مياه النهر الشبيهة بالمرآة اللامعة تخبرك بذلك، ولكن حالما ترى حفنة بحارة الظهيرة أولئك، ذوي البياض الزبدي، المتماسكين، تشعر فجأة أن الشمس حارقة، وتروح تبحث عن ظل تلجأ إليه وتمسح العرق عن جبينك.

لاحظ هانز أن انتباهه يتشتت، وشعر بشيء من التعب، ثم إن فرص اصطياد أي شيء عند الظهيرة ضئيلة. وكأن السمك الأبيض، حتى أكبره عمراً وحجماً، يظهر على السطح ليتشمس. كان يسبح بحركات حالمة في أعلى النهر في مواقع المياه الضحلة الداكنة الواسعة، بالقرب من سطح المياه، وأحياناً يطفر بلا سبب واضح. وفي مثل تلك الساعة يرفض أن يأكل الطعم.

دلّى خيط صنارته من غصن في شجرة صفصاف ومنه إلى المياه، ثم جلس وراح يحدق إلى مياه النهر الخضراء. السمك يرتفع ببطء، ظهرٌ داكن بعد آخر يشق سطح الماء ـ مواكب هادئة تسبح بتكاسل، ترتفع مفتونة بالدفء. لا ريب في أنها تعيش شعوراً رائعاً! نزع هانز جزمته وغمس قدمه في المياه الفاترة. ثم تفحّص ما اصطاده من السمك في الدلو الكبير، فرآه يسبح بهدوء ويرشش بين حين وآخر. ما كان أجمله! أبيض، بني، أخضر، فضي، ذهبي باهت وأزرق وألوان أخرى تلمع على الحراشف والزعانف مع كل حركة يقوم بها.

كان الهدوء التام يرين على كل شيء. حتى لكان في الإمكان سماع العربات تقرقع لدى عبورها الجسر ولم يكن ترشيش دولاب الطاحونة واضحاً من مكان جلوسه. لم يكن يسمع إلا صوت تدفق المياه المستمر المتكاسل عبر سد التحكم في المياه ومروره بأخشاب الطوف.

لقد غاصت قواعد الإغريقية واللاتينية والإنشاء، والحساب والحفظ الصم، والكد المعذب كله خلال عام دراسي محموم، قلق

وطويل، غاص بهدوء متلاشياً في دفء هذه الساعة الناعسة. شعر هانز بصداع خفيف لكنه لم يكن موجعاً كعادته. وأخذ يتابع تكسر الزبد إلى رذاذ عند سد التحكم، وألقى نظرة سريعة على الخيط وعلى الدلو الموضوع إلى جانبه بما فيه ما اصطاد من سمك. إن كل شيء رائع! وكان يتذكر بشكل متقطع أنه قد اجتاز الامتحان وجاء ترتيبه ثانياً، ثم كان يصفع الماء بقدمه الحافية، ويدس كلتا يديه في جيبيّ بنطاله ويبدأ بصفير لحن أغنية. لم يكن في الواقع يحسن الصفير. لقد ظلت هذه نقطة ضعفه مدة طويلة وجعلت منه أضحوكة الكثير من زملائه في المدرسة. كان فقط قادراً على أن يصفر بخفوت وفقط من بين أسنانه لكن ذلك يفي بغرضه. وعلى أية حال لا أحد يمكنه أن يسمعه الآن فالآخرون ما زالوا في المدرسة ويتلقون درساً في الجغرافيا.

هو وحده كان حراً. لقد برّهم جميعاً، وهم الآن دونه. لقد كانوا يضايقونه لأنه لم يكن يصادق غير أوغست، ولم يكن في الواقع يتقبل ألعابهم ومتعهم الفظة. أما الآن فيمكنهم أن يذهبوا إلى الجحيم، أولئك الخرق، الحمقى. حتى أنه من فرط مقته لهم كف عن الصفير برهة ريثما يلوي فمه تعبيراً عن اشمئزازه. ثم رفع الخيط وكان لا بد له من أن يضحك، وذلك لأنه لم يجد أثراً للطعم على الصنارة. أطلق سراح ما تبقى من جنادب فأخذت تزحف وهي تترنح وتختفي داخل العشب. وفي المدبغة المجاورة كان العمال يتناولون وجبة غدائهم، لقد حان وقت تناوله طعامه هو أيضاً.

على مائدة الغداء لم يفه أحد بكلمة.

سأله والده: « هل اصطدت شيئاً؟ ».

« خمس سمكات ».

twitter @baghdad_library

« أحقاً؟ إحرص على أن لا تصطاد البالغة منها، وإلا لن يتبقى أي أسماك صغيرة لاحقاً ».

بهذا انقطع حبل الحديث. كان الجو في الخارج حاراً جداً. ومن المؤسف أن لا يتمكن المرء من ممارسة السباحة بعد تناول الطعام. وما السبب؟ يقال إنه مؤذ. هراء! هانز أعلم في هذا المجال. وعلى الرغم من أن هذا الأمر ممنوع، إلا أنه كان يمارسه كثيراً. لكنه لن يفعل الآن، لقد أصبح أكثر نضجاً من أن يرتكب مثل هذا المزاح. إنهم حتى أثناء الامتحان خاطبوه بلقب "سيد".

من ناحية أخرى لا ضير من الاستلقاء مدة ساعة من الزمن في الحديقة، تحت شجرة البيسيّة. الجو منعش في الظل ويمكنه أن يقرأ كتاباً ويراقب الفراشات. وهكذا استلقى هناك حتى الساعة الثانية وكاد يغفو. والآن هيا إلى بركة السباحة! لم يكن على المرج إلا عدد صغير من الصبية. أما الكبار فكانوا لا يزالون في المدرسة وهانز لا يحسدهم على مصيرهم. أخذ يخلع ملابسه ببطء، ومن ثم انزلق إلى الماء. لقد كان يعرف كيف يستمتع بالبرودة والدفء. وكان على التوالي يسبح، يغوص، ويعبث في الماء هنا، وهناك، ثم انبطح على وجهه على ضفة النهر يستشعر أشعة الشمس وهي تجفف بشرته. وبقي الأولاد الصغار على مسافة منه. حقاً، لقد أصبح شخصية مشهورة، ثم إن مظهره يختلف عن الآخرين. برأسه الوسيم المستقر على رقبة نحيلة لوحتها أشعة الشمس، وكانت تتجلى على وجهه نظرة التفوق والذكاء. أيضاً لقد كان نحيلاً جداً، بأطراف نحيلة، وبنية رقيقة هشة. كان في إمكانك أن تحصي عدد أضلاع صدره وظهره معاً.

قسّم فترة ما بعد الظهر تقريباً بالتساوي ما بين التشمس والسباحة على فترات قصيرة. ومن ثم عند نحو الساعة الرابعة جاء أغلب رفاقه في المدرسة راكضين مع هرج ومرج وباندفاع هائل.

« هيه، غيبنراث، نراك تستمتع بحياتك، هه؟ ».
تمطى باسترخاء، وقال: « راض كل الرضا، كل الرضا ».
« متى ستغادر إلى الأكاديمية؟ ».
« ليس قبل أيلول. حتى ذلك الحين أنا ما أزال في إجازة ».
تركهم يحسدونه. ولم ينزعج البتة عندما سمعهم يطلقون النكات حوله من خلف ظهره. بل إن أحدهم أخذ يترنم بشعر ساخر:

« ليتني أعيش مثلها،
مثل ليزابت فتاة شولتس،
التي تلزم السرير طوال النهار،
وأنا لا أستطيع ».

اكتفى بالابتسام. في تلك الأثناء خلع الصبية ملابسهم وقفز أحدهم مباشرة إلى الماء، أما بعضهم فكان أشد حذراً، وانتظروا أولاً حتى بردوا، وبعضهم حتى استلقى على العشب ليأخذ قسطاً من الراحة. وأحد الصبية الذي خاف واستعد للهرب دُفع إلى الماء من الخلف. وطارد بعضهم بعضاً، وركضوا، وسبحوا، ورشوا بالماء الذين جلسوا يتشمسون. وكان الترشيش بالماء والصراخ صاخبين. وكان النهر من الضفة إلى الضفة يتلألأ بالأجساد البيضاء اللامعة.

غادر هانز بعد مرور ساعة أخرى. كانت ساعات بعد الظهر الدافئة التي تأكل الأسماك خلالها الطعم تقترب. وظل يصطاد من الجسر حتى وقت العشاء، لكنه لم يحصل على أي صيد. كان السمك يحتشد على صنارته، وخلال ثوان معدودات يلتهم الطعم لكنه يتجنب الشوكة. كان يستخدم الكرز كطعم، ومن الواضح أن الحبات كانت كبيرة جداً وناعمة، وهكذا قرر أن يقوم بمحاولة أخرى لاحقاً.

twitter @baghdad_library

على مائدة العشاء تناهى إلى سمعه أن العديد من الأقرباء قد عرّجوا ليقدموا التهنئة. وقدموا له أيضاً الصحيفة الأسبوعية المحلية، التي كتب تحت عنوانها الرئيسي "تنويه رسمي" ما يلي:

«في هذا العام بعثت بلدتنا فقط مرشحاً واحداً لأداء الامتحان العام للولاية للالتحاق بالأكاديمية اللاهوتية، هو هانز غيبنراث. وقد أبلغنا بكل امتنان أن هانز غيبنراث قد اجتاز الامتحان، وجاء ترتيبه ثانياً».

طوى الصحيفة ودسها في جيبه الخلفي، بدون أن يفوه بكلمة، غير أنه كان على استعداد لينفجر في نوبة من التفاخر والفرح. بعد ذلك عاد مرة أخرى ليصطاد. وأخذ معه بضع قطع من الجبن، لأن السمك يحبه، ويكون مرئياً له في وقت الغسق. إلا أنه ترك قصبة الصيد في المنزل، ولم يأخذ إلا الخيط. بحيث تتألف العدة فقط من خيط وصنارة. وقد ساد عملية صيد السمك شيء من التوتر لكن الكثير من التسلية. فأنت تسيطر سيطرة تامة على كل حركة تصدر عن الطعم، وتشعر بأقل لمسة وقضمة، وبملاحظتك لارتعاشة الخيط تستطيع أن تتابع السمك وكأنك تراه بعينيك. وطبعاً عليك أن تعرف ما أنت فاعل عندما تمارس الصيد بهذا الأسلوب، بحيث أن تكون أصابعك سريعة الحركة، وأن تكون يقظاً كجاسوس.

هبط الغسق باكراً على المضائق الملتوية لوادي هذا النهر السحيق. كانت المياه ساكنة تحت الجسر وقد أضيئت الأنوار في إحدى المطاحن السفلى. وكان يمكن سماع حديث يدور وغناء عالي النبرة صادر من الجسور ومن الشوارع الضيقة. كان الهواء رطباً وحاراً قليلاً. وفي النهر كانت سمكة داكنة تثب في الهواء وتحدث ترشيشاً حاداً. في مثل هذه الليلة ينشط السمك بشكل استثنائي. يقوم بحركات متكسرة جيئة وذهاباً، ويقفز في الهواء،

وتصطدم بالخيط وتنهال باندفاع أعمى على الطعم. وبعد أن تم التهام آخر قطعة من الجبن في حوزته كان هانز قد اصطاد أربع أسماك شبوط صغيرة. وقرر أن يأخذهم إلى الأبرشية في صباح اليوم التالي.

كان نسيم دافئ يهب على الوادي. وعلى الرغم من أن السماء كانت ما تزال باهتة الإضاءة إلا أن الظلام كان يسرع في الانتشار. وفي البلدة لم يكن يُرى غير برج الكنيسة وسطح القلعة بارزين كصورة ظليّة في وجه السماء الشاحبة. وعلى البعد من مسافة سحيقة سمع قصف رعد، وهدير مكبوت.

عندما أوى هانز إلى سريره عند الساعة العاشرة، كان التعب يسيطر بشكل ممتع على عقله وأطرافه كما لم يحدث له منذ وقت بعيد. إن سلسلة من أيام الصيف الخالية من الهم، الجميلة، المتواصلة تمتد أمامه، أيام هادئة وفاتنة، سوف يمضيها في تكاسل، يسبح، يصطاد السمك، ويحلم. فقط هناك أمر واحد يضايقه: أن ترتيبه في نتيجة الامتحان لم يكن أولاً.

*

في وقت مبكر جداً من صباح اليوم التالي وقف هانز في ردهة الأبرشية ليقدم سمك الشبوط. وخرج القس من غرفة مكتبه:

« أوه، غيبنراث. صباح الخير وتهانيّ القلبية إليك. ماذا لديك هناك؟ ».

« مجرد بضع أسماك اصطدتها بالأمس ».

« اللّه، ما أجمل ذلك! شكراً لك، ولكن أدخل الآن ».

خطا هانز إلى غرفة المكتب. في الواقع لم يبد أنها غرفة تخص قساً. فهي لم تكن تفوح برائحة تربة مزروعات الأصص ولا بعبق التبغ. كانت غرفة المكتب الكبيرة تتألف في الغالب من

twitter @baghdad_library

كتب مذهبة الأغلفة ومزخرفة حديثاً، وليس مجلدات أكلتها الديدان أو متعفنة، وملتوية ومهترئة، كالتي تراها عادة في مكتبات القسس. فإذا تفحصتها عن قرب فسوف تستشف من عناوين المجلدات المرتبة بعناية أن روحاً حديثة تهيمن هنا، تختلف عن كتب جنتلمانات الجيل السابق، المحترمين، الذين عفا عليهم الزمن. ستجد أن التحف النفيسة الجديرة بمكتبة قس، مجلدات من تأليف بنغل، أوتينغر، شتاينهوفر، بالإضافة إلى مجموعات التراتيل الورعة بأكملها التي يتناولها موريكه بحب شغوف في كتابه "ديك البرج"، مفقودة أو لا تحتل مكاناً بارزاً بين أكوام الأعمال الحديثة. باختصار، كان المقرأ، وطاولة المكتب الكبيرة وحوامل المنشورات الدورية، يضفي على الغرفة جواً ثقافياً، مهيباً. وينتابك انطباع بأن أعمالاً كثيرة قد أنجزت هنا، وهذا هو الواقع الفعلي. وطبعاً، لقد خُصص جهداً لساعات المواعظ والتعاليم الدينية والكتاب المقدس، أقل مما خُصص للبحث وكتابة المقالات لصالح المجلات الثقافية، والدراسات التمهيدية للكتب التي يؤلفها القس بنفسه. والصوفية المبهمة، والاشتياق الولهان لا تجد لهما مكاناً هنا، وكذا الأمر مع "لاهوت القلب" الذي يمد العطاشى في الروح بالمحبة والإحسان، ويعبر هوة المعرفة. بدل ذلك، كنت تجد تعليقات نقدية على الكتاب المقدس، وبحثاً متحمساً في "المسيح التاريخي".

إن اللاهوت لا يختلف عن أي موضوع آخر، فمن اللاهوت ما هو فن وآخر يقع في خانة العلم، أو بالأحرى يحاول أن يتصف بالعلم. وقد كان هذا صحيحاً في الماضي بقدر ما هو كذلك الآن، فلطالما أهمل المختصون في مجال العلم النبيذ العتيق سعياً وراء القناني الجديدة، في حين أن أصحاب المدخل الجمالي، في إصرارهم بلا مبالاة على إطلاق العديد من البدع الواضحة، قد

منحوا السرور والمواساة للعديدين. إنه صراع قديم وغير متكافئ بين النقد والإبداع، بين المعرفة والفن، وفي حين أن ممثلي الفريق الأول ربما كانوا على حق دائماً، بدون أن يكون هناك رابح، يواصل ممثلو الفريق الثاني نثر بذور الإيمان، والحب، والمواساة، والجمال، وإحساساً بالأبدية، وكانوا على الدوام يكتشفون أساساً جيداً لذلك. فالحياة أقوى من الموت، والإيمان أقوى من الشك.

لأول مرة في حياة هانز سُمح له الجلوس على كرسي الصوفا الجلدي الصغير الموضوع ما بين المقرأ والنافذة. وكان القس يفيض بالود. وقد حكى لهانز بكل ما يتصف به من روح الصحبة عن الأكاديمية وعن طبيعة الحياة والدراسة فيها.

وانتهى إلى القول: « إن أهم تجربة ستمر فيها هناك هي تعرفك على لغة العهد الجديد اليونانية. فهي ستفتح أمامك عالماً نضراً كاملاً، ثرياً بالعمل والمتعة. في أول الأمر سوف تجد اللغة صعبة لأنها لا تشبه في شيء الإغريقية العتيقة التي ألِفتها، وإنما هي لغة جديدة، وليدة روح مختلفة ».

أصغى هانز بانتباه وشعر بفخر بأنه يقترب أكثر من العلم الحقيقي.

أردف القس: « إن الدخول في هذا العالم الجديد من الباب الأكاديمي سوف يسلبه طبعاً الكثير من سحره. ودراسة العبرية أيضاً سوف تستأثر بانتباهك التام في أول الأمر. وإن شئت يمكننا أن نقوم ببداية صغيرة في هذا المجال أثناء عطلتك. وسوف يسعدك بعد أن تلتحق بالأكاديمية أن يتوفر لك فائض من الوقت والطاقة لممارسة أمور أخرى. يمكننا أن نقرأ معاً فصولاً من إنجيل لوقا، وسوف تفهم اللغة تلقائياً. وفي إمكاني أن أعيرك قاموساً. وسوف يتطلب منك الأمر تخصيص ساعة أو

twitter @baghdad_library

اثنتين في اليوم كحد أقصى. ولكن ليس أكثر من ذلك، لأن عليك، قبل أي شيء آخر، أن تستمتع بفترة من الاستجمام أنت في أمسّ الحاجة إليها. وهذا طبعاً مجرد اقتراح، إن آخر ما أفكر فيه هو أن أفسد عليك متعة قضاء عطلتك ».

طبعاً وافق هانز على العرض. وعلى الرغم من أن درس إنجيل لوقا بدا له أشبه بغيمة صغيرة في سماء العطلة الزرقاء الواعدة، إلا أنه كان يخجل أن يعبر عن هذا. ثم إن تعلُّم لغة جديدة، مثل هذه، أثناء قضائه عطلته كان بلا أدنى شك أقرب إلى المتعة منه إلى العمل. على أية حال لقد كان ينتابه القلق بشأن العدد الغفير من المواد الدراسية الجديدة التي عليه أن يتعلمها في الأكاديمية، خاصة العبرية.

لذا لم يكن حزيناً عندما غادر القس وسلك درباً محفوفاً بأشجار اللاركس يؤدي إلى الغابة. وزال عنه ظل الشك الذي كان قد خيم عليه وكان كلما أمعن التفكير في العرض بدا له مقبولاً أكثر. وذلك لأنه أدرك أنه سيكون عليه في الأكاديمية أن يتصف بمزيد من الطموح إذا أراد أن يبز أقرانه الجدد من التلاميذ. لماذا، حقاً، يريد أن يتفوق عليهم؟ إنه لا يعرف. إنه منذ ثلاث سنوات وحتى الآن، وهو محط انتباه خاص. الأساتذة، القس، والده، وخاصة مدير المدرسة، يحثونه ويحضونه على المثابرة ولم يتركوا له فرصة لالتقاط أنفاسه. طوال تلك السنين كان ترتيبه دائماً الأول في صفه، إلى أن أصبح فوزه بالترتيب الأول وضيقه بأي منافس له مصدر فخر له. على الأقل لقد تخلص من خوفه الأحمق من الامتحان العام.

ومع ذلك، ظل قضاء الإجازة هو المفضل لديه على أي شيء آخر. ما أجمل الغابة في الصباح عندما لا يوجد من يسير فيها غيره، حيث عمود بعد عمود من أشجار البيسية، كقاعة رحبة

تظللها قبة من الأخضر المزرق. لم يكن هناك أي نباتات نامية تحتها، مجرد شجيرة توت بري هنا وهناك، وإنما نما على مساحة ميل فطور منقّطة تتخللها العنبيَّة الصغيرة والخلنج. كان الندى قد تبخر، وكان الجو الحار الخانق المميز للغابات يتألف في الصباح من حرارة الشمس، وعبق البخار، والطحالب والراتينج، وإبر الصنوبر والفطور، تداعب جميعها الحواس مثل ثمالة خفيفة، ممتعة. انطرح هانز على الطحالب، وقطف ما على شجيرة العنبية من ثمار وافرة وأكلها. وكان يسمع هنا وهناك نقار الخشب ينقر على جذع شجرة، ونداء وقواق حسود. وكانت السماء الصافية الزرقاء الغامقة، مرئية من بين أعالي أشجار البيسية القاتمة وعلى البعد تكاثفت آلاف وآلاف من جذوع الشجر السامقة لتشكل جداراً بنياً متراصاً. ولمعت هنا وهناك بقع صفراء من الشمس، دافئة، وانتشرت أشعتها بوفرة على الأرض المغطاة بالطحالب.

كان هانز يريد أن يقطع مسافة طويلة، على الأقل حتى مزرعة لوتزيلر أو مرج الزعفران، لكنه استقر على أرض الطحالب، وأخذ يأكل العنبية وأرسل بصره بلا هدف في الفضاء. وبدأ يتعجب من إحساسه بالتعب الشديد. لقد كان في السابق يسير مدة ثلاث ساعات أو أربع على سبيل المرح. أما الآن فقد قرر أن يشد من عزمه وأن يكمل مسافة جيدة من نزهتهِ المقررة. وسار بضع مئات من الخطوات ثم استلقى على الطحالب، إنه لا يكاد يفهم ما ألَمَّ به، لكنه لزم مكانه، وأخذت نظراته تشرد بين جذوع الأشجار وقممها وعلى امتداد المرج الأخضر. وتساءل لماذا يسبب هذا الجو الاسترخاء الشديد.

عندما عاد إلى المنزل عند قرابة الظهيرة كان الصداع قد تمكن منه من جديد. عيناه كانتا تؤلمانه، لقد كانت أشعة

twitter @baghdad_library

الشمس على طول درب الغابة مبهرة. وظل طوال فترة ما بعد الظهر جالساً في المنزل تخيم عليه الكآبة، ولم ينتعش إلا بعد أن ذهب ليسبح. ثم حان وقت مقابلة القس.

لدى مروره بالإسكافي فليغ، وكان جالساً على كرسيه الثلاثي السيقان بالقرب من النافذة، لمحه ودعاه إلى الدخول.

« إلى أين أنت ذاهب يا بني؟ أين كنت مختبئاً في هذه الأيام؟ ».

« عليّ أن أجتمع بالقس ».

« أما تزال تتردد عليه؟ ولكن ألم ينته الامتحان بعد؟ ».

« نعم، انتهى. إننا نباشر عملاً آخر الآن. في العهد الجديد. هو أيضاً مدوَّن باليونانية، ولكن بلغة يونانية مختلفة تماماً عن التي تعلمتها. والآن هذا ما يفترض بي أن أتعلمه ».

دفع الإسكافي قلنسوته إلى قفا عنقه وغضَّن جبينه على شكل أخاديد عميقة فضولية. ثم تنهد بعمق.

قال برفق: « هانز، أريد أن أخبرك شيئاً. إنني حتى الآن أبقيت فمي مغلقاً بسبب الامتحان، ولكن عليّ أن أحذرك. يجب أن تعلم أن القس ملحد. سوف يحاول أن يقول لك أن الكتاب المقدس زائف، وإذا قرأت العهد الجديد معه ستفقد إيمانك بدون أن تدري ».

« ولكن، يا سيد فليغ، إنها فقط مسالة تعلُّم اللغة اليونانية وسوف أتعلمها في كل الأحوال حالما أنتسب إلى الأكاديمية ».

« هذا ما تقوله أنت. ولكن الأمر يختلف تماماً إذا ما درست الكتاب المقدس تحت إشراف أساتذة ورعين، أحياء الضمير عما إذا فعلت ذلك مع إنسان لا يؤمن بالله ».

« نعم، ولكن لا أحد يعلم علم اليقين، كما تعرف، ما إذا كان حقاً مؤمناً أم لا ».

« أوه، معك حق يا هانز، لسوء الحظ نحن لا نعلم ».

« لكن، ماذا عليّ أن أفعل؟ لقد تم ترتيب اجتماعي به ».

« إذن فعليك طبعاً أن تذهب، ولكن عندما يقول لك مثلاً أن الكتاب المقدس كتبه بشر ولم يكن وحياً من الروح القدس، فتعال إليّ لنناقش الأمر. ما رأيك بهذا؟ ».

« حاضر، سيد فليغ، لكني متأكد من أنه لن يصل إلى هذا الحد من السوء ».

« سوف نرى. تذكر ما قلته لك ».

لم يكن القس قد عاد بعد إلى منزله واضطر هانز إلى انتظاره في غرفة مكتبه. وبينما هو يستعرض عناوين المجلدات المذهبة، كانت كلمات الإسكافي له تتردد في ذهنه. لقد كان قد سمع تعليقات مشابهة حول القس، واللاهوت الحديث، مرات عديدة من قبل. أما الآن فشعر للمرة الأولى أنه طرف في الموضوع، ومهتم بهذه المسائل. إنها لا تبدو له بأي حال هامة وبغيضة كما بدت للإسكافي. على العكس، لقد شعر بوجود إمكانية الاقتراب من جوهر الألغاز القديمة، الكبرى. خلال سنوات دراسته المبكرة دفعته مسائل مثل سرمدية الله، ومصير الأرواح الإنسانية بعد موت الجسد، وطبيعة الشيطان والجحيم، إلى الاستغراق في الأفكار الغريبة. غير أن هذه الاهتمامات قد عادت فخمدت خلال هذه السنوات الأخيرة من العمل الصارم. وأثناء حديثه مع الإسكافي كان أحياناً يستيقظ فيه تدينه القويم، الراسخ، إلى درجة الاستغراق الشخصي الحقيقي. وارتسمت ابتسامة على وجهه عندما قارن ما بين الإسكافي والقس. لم يفهم كيف اكتسب فليغ إيمانه الصارم على مدى سنين من التصميم الشاق. فإن كان فليغ ذكياً، فهو أيضاً يفتقر إلى الخيال، إنه إنسان أحادي الجانب يسخر منه كثير من الناس بسبب قيامه

twitter @baghdad_library

بالتبشير. وفي اجتماعات "التُّقاة"[1] كان يقوم بدور القاضي الصارم ولكن الأخوي، وبوصفه شارحاً مفوهاً للكتاب المقدس كان أيضاً يدير جلسات في الإلهام الديني في القرى القريبة، ولكن فيما عدا ذلك كان مجرد مهنياً عادياً بكل ما يتصف به. ومن ناحية أخرى، كان القس ليس فقط رجلاً طلق اللسان وحاذقاً وواعظاً ولكنه أيضاً عالمٌ مثابرٌ وصلبٌ. وراح هانز يحدق مذعوراً إلى أرتال الكتب.

لم يتأخر القس في المجيء. وبدّل معطف الخروج بسترة منزلية سوداء، ثم تناول تلميذه النص الإغريقي لإنجيل لوقا وطلب منه أن يقرأ. لقد كانت هذه الطريقة تختلف عن طريقة مباشرة دروس اللاتينية. قرأا فقط بضع جمل، وترجماها بأمانة، كلمة كلمة، ومن ثم تناول أستاذه أمثلة لا تبدو قابلة للمعالجة، وجعلها إظهاراً مقنعاً وماهراً للروح باستخدام لغته الخاصة، واستطرد مناقشاً مراحل خروج الكتاب إلى العلن. وخلال ساعة واحدة عرَّف هانز إلى مدخل جديد تماماً إلى العلم والقراءة. وحصل هانز على سرد مفصل عن المهام والإرباكات المخبأة في كل سطر وكلمة، وكيف أن آلافاً من العلماء والباحثين قد وسّعوا جهودهم منذ العهود الأولى لحل هذه المسائل، وبدا له أنه خلال تلك الساعة بالذات قُبل في صفوف أولئك الباحثين عن الحقيقة.

أعاره القس قاموساً وكتاباً في النحو والصرف وتابع عمله بقية الأمسية. لقد أصبح يدرك الآن كم من جبل من العمل والمعرفة يمر بها العلم الحقيقي وأبدى استعداداً ليشق طريقه

---

[1] التُّقاة: أعضاء حركة التقويَّة الدينية. تؤكد على دراسة الكتاب المقدس وعلى الخبرة الدينية الشخصية. نشأت في ألمانيا في القرن 17. ـ المترجم.

بدون أن يسلك دروباً مختصرة. وفي تلك الأثناء، أسقط من ذهنه ما قاله الإسكافي فليغ.

انغمس بكل كيانه في هذا الكشف الجديد على مدى بضعة أيام. وكان في مساء كل يوم يقوم بزيارة القس، وفي كل يوم يبدو العلم الحقيقي له أكثر جمالاً، وصعوبة، ويستحق العناء. كان في الصباح الباكر من كل يوم يذهب إلى الصيد، وبعد الظهر يذهب ليسبح في البركة، فيما عدا ذلك كان يلزم البيت. لقد استيقظ من جديد طموحه، الذي كان قد تبدد خلال فترة الامتحان المشحونة بالقلق ومن ثم بالانتصار، ومنعه من التراجع. وفي الوقت نفسه انتابه من جديد ذلك الإحساس الغريب في رأسه، الذي غالباً ما بات يستولي عليه خلال الأشهر الأخيرة، لم يكن بالضبط ألماً وإنما تسارعاً في نبضه، وطاقة ناشطة واندفاعاً هائلاً للتقدم. ثم بعد ذلك يأتي الصداع ولكن طالما كانت الحمى موجودة كان عمله وقراءته يتسارعان بشكل هائل، كان يقوم بقراءة أشد جمل زينوفون صعوبة، وكل منها كان يستغرق منه في المعتاد ربع ساعة، بسهولة مضحكة. وخلال تلك الفترات لم يكن يحتاج إلى القاموس، وكان عقله اليقظ قادراً على التعامل مع صفحات كاملة بمرح وبسرعة. هذا النشاط والعطش المحمومان للمعرفة كانا مصحوبين بشعوره الخاص بالكبرياء، وكأن عالم المدرسة والمدرسين وسنين الدراسة قد بات بعيداً نائياً عنه وهو يسير في دربه الخاص الصاعد إلى ذرى العلم والمعرفة.

كان يشعر بذلك كله الآن أثناء أرقه وبينما تقاطع نومه باستمرار أحلام جلية غريبة. وعندما أفاق في الليل جراء معاناته صداعاً خفيفاً ولم يتمكن من العودة إلى النوم، كان تلهفه هذا على أن يحرز تقدماً ممزوجاً بشعور بالفخر بالشوط الكبير الذي سبق به كل رفاقه من التلاميذ، وكيف أن أساتذته ومدير المدرسة ينظرون إليه باحترام يقترب من الإعجاب.

twitter @baghdad_library

كان المدير يستمد راحة داخلية من توجيه الطموح الجدير بالثناء الذي أثاره في تلميذه ومن مراقبته له وهو يتنامى. إن من الخطأ القول إن مدراء المدارس قساة القلوب ومتحذلقين متحجرين وعديمي الروح! على العكس تماماً! فعندما يرى أستاذٌ موهبة طفل طال سباتها وهي تتفجر، ويرى فتى قد نحى جانباً سيفه الخشبي، مقلاعه وقوسه ونشابه وألعابه الصبيانية الأخرى، ويراه قد باشر بشق طريقه قدماً، ويرى عمله الجاد يحوِّل وجهه الريان القاسي إلى وجه صاف، تقريباً زاهداً، يراقب هذا الوجه وهو يغدو أشد ذكاءً والنظرة أشد عمقاً وعزماً، ويديه أكثر شحوباً وأقل عصبية، عندئذ تضحك روحه من أعماقها من فرط فرحه واعتزازه به. إن واجبه، المهمة التي أوكلتها إليه الدولة تتطلب منه أن يقهر الطاقة الخام والشهوات الفطرية ويزرع مكانها المُثُل الهادئة، والمعتدلة التي ترتأيها الدولة. والكثير ممن هم الآن مواطنون قانعون وموظفون مثابرون ربما كانوا ظلوا مبتكرين غير مدربين وحالمين عقيمين لولا هذه الجهود التي تبذلها المدرسة. لقد كان فيه شيء جامح، هائج، يعوزه التثقيف يجب أولاً كسره، ولهبٌ خطر يجب إخماده، وإطفاؤه. إن الإنسان كما خلقته الطبيعة هو مخلوق خطر ومتقلب، وغامض، ينبوع ينبجس من جبل مجهول، غابة عتيقة لا درب يتخللها ولا فسحة مكشوفة. والغابة العتيقة يجب تنظيفها وترتيبها وأن تختصر مساحتها إلى حد كبير، وعمل المدرسة هو أن تقتحم الإنسان الفطري، أن يُخضَع ويُختَزل كثيراً؛ وعلى أساس مبادئ أقرتها السلطة الرسمية تقوم على عاتقها مهمة جعله عضواً مفيداً للمجتمع وإيقاظ هذه الصفات داخله، والتي تجلى تطورها الكامل بذروته المنتصرة في الانضباط العسكري الدقيق.

كم كان تقدُّم الصغير غيبنراث كبيراً. كان قد تخلى نهائياً عن ممارسة الألعاب والتنزه بشكل عام على هواه، لم يعد يقهقه ببلاهة في غرفة الصف، بل إنه كف عن العناية بالحديقة وتربية الأرانب وممارسة الصيد البائس.

ذات أمسية حضر مدير المدرسة بنفسه إلى منزل آل غيبنراث وبعد أن صرف بلطف الأب المتملق انتقل إلى غرفة هانز حيث ألفى الفتى منكباً على إنجيل لوقا. فحياه بمرح ضاف.

« الرائع غيبنراث، مشغول مرة أخرى! ولكن لماذا لم أعد أراك؟ إنني أتوقع حضورك في كل يوم ».

قال هانز معتذراً: « كنت من قبل أرغب في الحضور، لكني أردت أن أحضر لك كمية جيدة من السمك ».

« سمك، أي نوع من الأسماك؟ ».

« أوه، الشبوط أو ما شابه ».

« إذن، فقد عدت إلى صيد الأسماك؟ ».

« نعم، إلى حد ما. بعد أخذ الإذن من والدي ».

« وهل تستمتع به؟ ».

« كثيراً ».

« وهو أيضاً أمر رائع. لا شك أنك تستحق ما تقضيه من وقت عطلة. ولا أظنك متلهفاً كثيراً للقيام بأي عمل؟ ».

« أوه، بل أنا متلهف ».

« أُلْفِتُ انتباهك إلى أني أكره أن أشعر أني أدفعك دفعاً للقيام بما لا ترغب فيه من تلقاء نفسك ».

« لكني أرغب فعلاً ».

تنفس المدير عدة مرات بعمق ومسَّد على لحيته الخفيفة الشعر، ثم جلس على أحد الكراسي.

twitter @baghdad_library

« أنصتْ إلى ما سأقول لك. إن تجارب الأولين تبين لنا أن نتيجة امتحان جيدة جداً تتبعها في الغالب ردة فعل مفاجئة. وسوف يتوجب عليك أن تتعامل مع عدة مواضيع جديدة في كلية اللاهوت. وسوف تجد دائماً عدداً من الصبية الذين كانوا يحضِّرون دروساً خلال فترة العطل. الحقيقة أن من يفعلون ذلك هم أولئك الذين لم يبرزوا كثيراً في الامتحان، وإذا بهم يقفزون ويتجاوزون الذين اطمأنوا إلى ما كسبوه من مجد أثناء فترة العطلة ».

تنهد مرة أخرى.

« إنك، وأنت هنا في المدرسة لم تواجه أية صعوبة في تبوء مكانتك على رأس تلاميذ الصف، ولكن في الكلية سوف تجد أن فتية آخرين يتصفون بذكاء لا يقل عن ذكائك أو أنهم مجتهدون في عملهم، ولن يكون من السهل برّهم. أترى ما أرمي إليه؟ ».

« نعم، طبعاً ».

« والآن، أعتقد أن عليك أن تقوم ببعض العمل التمهيدي خلال أيام العطلة. ليس الكثير منه طبعاً! إن من حقك ومن واجبك تجاه نفسك أن تنال قسطاً وافراً من الراحة. وأظن أن ساعة أو ربما ساعتين في اليوم ستكونان كافيتين. وإلا فمن السهل أن تصدأ وبعد ذلك سوف يستغرق منك الأمر أسابيع طويلة قبل أن تستعيد حيويتك. فما رأيك؟ ».

« إنني على أتم الاستعداد، يا سيدي. إذا لم يكن هذا مصدر إزعاج كبير لك ».

« عظيم. فلننتقل إلى العبرية، وهو أمر سوف يفتح أمامك أبواب عالم جديد. ولاحقاً سوف تقرأه وتفهمه باستمتاع مزدوج. إذا استطعت أن ترمي أساساً متيناً الآن. إن لغة هومر، اللهجة الأيونية العتيقة، والعروض الهوميرية، خاصة جداً. إنها

تؤلف لغة قائمة بذاتها وتتطلب عملاً مضنياً وأساساً متيناً، إذا أراد المرء أن يتوصل إلى تقدير تام بشعره».

لا شك أن هانز كان مستعداً تماماً لاقتحام العالم المذكور ووعد بأن يبذل أقصى جهده. أفضل ما عنده لم يُظهره بعد. تنحنح المدير وتابع كلامه بنبرة الصوت الودية نفسها.

«سوف يسرني أيضاً إذا وافقت على تكريس بضع ساعات للرياضيات. وأنت لست سيئاً في مادة الرياضيات لكنها لم تكن حتى الآن المادة التي تشكل نقطة قوتك. في الكلية اللاهوتية سوف يكون عليك أن تدرس الجبر والهندسة وأنصحك بأن تتلقى بضعة دروس تمهيدية فيها».

«أوافق».

«أنت تعلم أن بيتي مفتوح دائماً لك. ويشرفني أن أراك تنجز أعمالاً عظيمة. وفيما يخص الرياضيات، يجب أن تطلب من والدك أن يسمح لك بتلقي دروساً خاصة على يد مدرس مادة الرياضيات. فلتكن مثلاً ثلاثة دروس في الأسبوع».

«حتماً سيدي».

عاد العمل على أشده مع هانز بحيث أنه لو حدث مصادفة وذهب مرة ليصطاد السمك أو ليتمشى مدة ساعة أو نحوها، يشعر بوخز الضمير. لقد كان عليه أن يضحي بممارسته للسباحة لصالح دروسه التي يتلقاها على يد أستاذ الرياضيات.

بسبب ضغط الدرس الذي فرضه هانز على نفسه لم يتمكن من استمداد المتعة من دروس الجبر. لقد كان من دواعي كآبته في بعد ظهر يوم حار أن يضطر إلى أن يتوجه إلى غرفة الأستاذ الخانقة بدل أن يذهب ليسبح في بركة المرج، ويأخذ بتكرار a+b وa-b بينما التعب يتملك ذهنه وحلقه جاف بتأثير الهواء المغبر

twitter @baghdad_library

والموبوء بالحشرات. وخيم عليه جو ثقيل، قابض للصدر. كان في الأيام الأسوأ يميل إلى الكآبة واليأس. ولم يحرز تقدماً مذهلاً في مادة الرياضيات لكنه من ناحية أخرى كان أحد أولئك التلاميذ الذين لا يستحيل عليهم فهم مادة ما؛ بل إنه أحياناً كان يجد حلولاً جيدة، دقيقة فيُسر لذلك. وأشد ما أحبه في الرياضيات أنها لا تسمح بارتكاب أي مغالطة، في المادة المعالجة أو بإمكانية الانحراف عنها، أو بالتعدي على منطقة مجاورة، ولكن أجنبية.

لقد وجد اللاتينية ممتعة للسبب نفسه، بمعنى أنها واضحة، لا لبس فيها وأبعد ما تكون عن الإبهام. أما في الرياضيات حتى بعد تسجيل النتائج كلها كان لا يشعر أنه أنجز شيئاً مميزاً. لقد كانت الكتب والدروس المتعلقة بالمادة أشبه بالسير على درب ريفية ممهدة، فأنت تتقدم عليها، وفي كل يوم تدرك شيئاً كنت قد فشلت في فهمه في اليوم السابق لكنك لا ترتقي ذرى جبال لتكتشف منها دفعة واحدة مشاهد مترامية الأطراف.

كانت الدروس التي يتلقاها من المدير تزداد إثارة. لا شك أن القس كان دائماً ينجح في أن يجعل من النسخة الإغريقية القديمة المنحطة للعهد القديم أشد إمتاعاً وتأثيراً من النسخة السابقة المكتوبة بلغة هومر بكل نضارتها الفتية. غير أن هومر كان هو بحق الذي يُدهش، ويبهج، ويغري، حالما يتم التغلب على المصاعب الأولية. وكان هانز كثيراً ما يجلس وهو يرتعش من نفاد الصبر والإثارة أمام سطر ملغّز، وغنائي ولكن صعب، توقاً إلى أن يعثر على المفتاح الذي سيفتح له باب الحديقة البهيجة، التي ترين عليها السكينة.

وعادت الفروض الآن تنهال عليه بلا حدود، وكثيراً ما كان يجلس على الطاولة مستغرقاً كل الاستغراق في أداء أحد

الواجبات ويسهر عليه حتى ساعة متأخرة من الليل. وكان الهر غيبنرات يلاحظ هذا الاجتهاد ببعض الفخر. لقد كان يستقر في عقله البليد بشكل مبهم المثل الأعلى الذي يحمله العديد من أشباهه ذوي الذكاء المحدود، فيتخيل أن فرعاً ينبت منه ويرتفع إلى ذروة لا يكاد يقوى إلا على التحديق إليها بخوف أخرس.

فجأة، خلال الأسابيع الأخيرة من عطلته، أصبح المدير والقس يبديان قدراً ملحوظاً من التساهل والمراعاة. أخذا يرسلان الصبي لكي يتمشى ويقطعان دروسهما ويشددان على أهمية أن يباشر المرحلة الجديدة من مسيرته العلمية وهو يقظ ومنتعش.

ذهب هانز مراراً لصيد السمك. وكان يعاني كثيراً من الصداع ويجلس شارد الذهن على ضفاف النهر الذي بات الآن يعكس سماء الخريف الباهتة الزرقة. ولم يفهم لماذا كان يتطلع إلى مجيء العطلة الصيفية. إنه الآن سعيد لأنها انتهت ولأنه يوشك أن يدخل الكلية حيث يبدأ برنامجاً مختلفاً تماماً للحياة والعمل. ولما كان عندئذ قد أصبح نوعاً ما لا مبالياً بصيد السمك، فإنه لم يعد يصطاد أي سمكة، وفي إحدى المرات عندما ضايقه والده بهذا الخصوص دسّ خيوط الصيد في علبة القصدير ووضعها في العلّية.

لم يتذكر فجأة أنه لم يزر الإسكافي فليغ منذ أسابيع إلا خلال الأيام القليلة الأخيرة. وحتى عندئذ اتصل به رغماً عنه. حدث ذلك في المساء حين كان فليغ جالساً عند نافذة صالونه وهو يضع طفلاً صغيراً على ركبتيه. كانت رائحة الجلد المدبوغ والدهان الأسود تتغلغل في حنايا المنزل برمته على الرغم من أن النافذة كانت مفتوحة. وضع هانز يده في راحة كف الإسكافي العريضة وقد تملّكه الارتباك.

twitter @baghdad_library

سأله: « كيف الحال؟ هل اجتهدت مع القس؟ ».
« نعم، كنت أتردد عليه يومياً وتعلمت منه الكثير».
« وماذا تعلمت؟ ».
« اليونانية، في المرتبة الأولى، ولكن أيضاً أشياء أخرى ».
« ولم تشعر برغبة في أن تأتي إليّ؟ ».
« شعرت حتماً، هر فليغ، لكني لم أنجح في تنفيذ ذلك، كنت أتلقى دروساً مع القس يومياً ودرسين يومياً مع المدير ومن ثم كان عليّ أن أتردد أربع مرات في الأسبوع على أستاذ الرياضيات ».
« الآن، وأنت في العطلة؟ ما هذا الهراء! ».
« لا أدري. الأساتذة يريدون مني ذلك وأنا أجد الدرس سهلاً كثيراً عليّ ».
وقال فليغ وهو يقبض على ذراع الفتى: « ربما. لابأس في التعلم، ولكن أنظر إلى ذراعيك الهزيلين وإلى وجهك الشديد الوهن. أما زال الصداع ينتابك؟ ».
« بين حين وآخر».
« إن كل هذا خطأ وإثم. على من في مثل سنك أن يستنشقوا الهواء النقي ويتريضوا وأن ينالوا قسطاً مناسباً من الراحة. لماذا خُلقتْ العطل؟ حتماً ليس للجلوس في البيت والاستزادة من الدرس. لم يبق منك غير الجلد والعظم ».
ضحك هانز.
« نعم، سوف تنجح في مسعاك. ولكن الزائد أخو الناقص. ثم ما قصة دروس القس، ماذا لديه ليقوله؟ ».
« أموراً كثيرة، ولكن ليس من النوع الذي تعترض عليه. إن معرفته هائلة ».
« أظنه قال كلاماً مهيناً بحق الكتاب المقدس ».

« لا، ولا كلمة واحدة ».

« عظيم. إذ يجب أن أقول ما يلي: من الأفضل عشر مرات أن يصيب الضرر جسدك على أن ينال الأذى روحك! لقد نويتَ أن تصبح رجل دين لاحقاً، إنه منصب صعب وينطوي على مسؤولية ويتطلب نمطاً من المرشحين يختلف عن أغلب ما يتصف به شباب هذه الأيام. لعلك الخامة المناسبة وسوف تصبح مخلِّص الأرواح ومعلّمها. وهذا أحبُّ إلى قلبي وسوف أصلي كي يؤول الأمر إلى هذه النهاية ».

كان قد نهض واقفاً على قدميه وحط كلتا يديه بثبات على كتفي الصبي.

« الوداع يا هانز، كن فتى طيباً! فليباركك الرب ويحميك. آمين ».

وجد هانز هذه النبرة الرصينة، والتبريك واللغة المسات ثقيلة وبغيضة. لقد كان سلوك القس عندما استأذن منه مختلفاً كل الاختلاف.

مرت الأيام القليلة الأخيرة بسرعة البرق في حُمَّى من الاستعداد للرحيل، وكان صندوق يحتوي مفارش سريره، وملابسه وكتبه قد أرسل للتو. وذات صباح بارد انطلق الوالد مع أبنه قاصدين مولبرون. لقد كان رحيله عن بلدته ومنزل والده وتوجهه إلى مؤسسة غريبة تجربة مقبضة للصدر وغريبة.

twitter @baghdad_library

3

يقع دير مولبرون البندكتي الكبير في الجزء الشمالي الغربي من المقاطعة بين هضاب مشجّرة وبحيرات صغيرة يرين عليها الهدوء. أبنيته العتيقة الجميلة ممتدة ورحبة، ومتينة ومصانة جيداً وخليقة بأن تغري أي إنسان بالعيش فيها، فهي جذابة من الداخل ومن الخارج، وقد أضحت تدريجياً، وعلى امتداد القرون، تشكل جزءاً متناغماً مع محيطها الجميل. والزائر للدير يدخل من بوابة رائعة التكوين على سور عال وينتقل منها إلى فناء مغلق فسيح تلفه السكينة، ويخترقه جدول ماء، وتُرى على جانبيه، هنا وهناك، أشجار عتيقة قائمة وأبنية من الحجارة الصلبة، وفي الخلفية تنهض واجهة بناء الكنيسة الرئيسية مع رواق على الطراز الرومانسكي المتأخر، يدعى "المصلّى"، وهو ذو سحر وجمال فريدين. وثمة بُريج مضحك نحيل، لا يكاد يصدق الناظر أن في إمكانه احتواء ناقوس، يجثم على سطح الكنيسة الرحب. ودرّة جناح الكنيسة التي لا زالت سليمة وتحفة فنية رائعة بحد ذاتها، هي المصلّى البئري الفاتن، حجرة طعام الرهبان بسقفها المعقود المضلّع، المهيب، والمصلّى، والقاعة، وغرفة طعام الأشخاص العلمانيين، ومنزل رئيس الدير ثم كنيستان تشكلان كلاً أخاذاً. والجدران الرائعة التكوين،

والنوافذ المقوسة البوابات والحدائق والمطحنة، ومنازل الإقامة، تشكل تبايناً مبهجاً عن الأبنية العتيقة الجليلة التي تطوقها. والساحة الفسيحة فارغة ويسودها السكون وتلعب لعبة ناعسة مع ظلال أشجارها. ولا يدب فيها ما يشبه الحياة العابرة، إلا خلال الساعة الأولى بعد منتصف الظهيرة، ففي ذلك الوقت تظهر جماعة من الشبان من الدير وتتوزع على الساحة الممتدة مصحوبين بصراخ، ومحادثة، وضحك نابض، وأحياناً يلعبون بالكرة، وبعد ذلك، لدى انصرام ساعة الاستجمام، يختفون بسرعة خلف الجدران بدون أن يخلفوا أي أثر. لا بد أن كثيرين منهم قد فكروا وهم واقفون في هذه الساحة، في أن هذا المكان خُلق ليكون مكاناً لقضاء فترة من الحياة والسعادة الصحيين، وأن أمراً ما حياً سيزدهر هنا حتماً وأن في هذا المكان جدير بأناس ناضجين طيبين أن يُخرجوا أفكاراً بهيجة وأن ينجزوا أعمالاً ممتعة.

كان هذا الدير النائي والرائع، المختفي عن الأنظار بين التلال والغابات قد وُهب منذ زمن طويل إلى طلاب الكلية اللاهوتية البروتستانتية حتى يتاح لهؤلاء الصغار الحساسين أن يعيشوا في محيط من الجمال والسلام. وزيادة على ذلك فإنهم على هذا الأساس نُقلوا من التأثيرات المبلبلة للفكر في المدن والحياة العائلية وحُجبوا عن المشهد المؤذي للنشاط الدنيوي. وبهذه الطريقة يمكن التأكد من أن دراسة اليونانية والعبرية والمواد الجادة الأخرى سوف تلوح أمامهم على مدى سنين عديدة بوصفها هدف حياتهم وتحول هذه الأرواح الغضة العطشى نحو مساعٍ ومتع مثالية ونقية. والحياة في المدرسة الداخلية تشكل عاملاً هاماً في هذا النظام، الذي يشدِّد على الاعتماد على النفس وعلى الروح الجماعية. وقد عملت المؤسسة التي حظي هؤلاء

twitter @baghdad_library

التلاميذ بامتياز العيش والدراسة على حسابها، على أن يكون تلاميذها متشرِّبين روحاً خاصة تميزهم لاحقاً عن غيرهم، سمة مميزة مرهفة ومحددة. وفيما عدا أولئك الناشزين المتمردين منهم، فإن في الإمكان التعرف إلى كل تلميذ لاهوتي سوابي[1] بصفته هذه وحتى البقية الباقية من حياته.

الأولاد الذين تكون أمهاتهم ما زلن على قيد الحياة وقت دخول أبناءهن الكلية يتذكرون ذلك اليوم مع شعور من الامتنان الحزين. ولم يكن هانز غيبنراث واحداً منهم، لقد غادر بدون وداع عاطفي غير أنه حتماً شاهد العدد الكبير من أمهات أولاد آخرين وقد ترك ذلك في نفسه انطباعاً غريباً. وفي ما يسمى بالمهاجع التي كانت في الواقع أروقة طويلة تصطف عليها خزانات وُضعت صناديق الملابس والسلال، وانهمك الفتية مصحوبين بآبائهم في حل أغراضهم. وقد خُصص لكل فتى خزانة تحمل رقماً ورفاً للكتب في قاعة الدرس. وانحنى الآباء والأبناء فوق أمتعتهم على الأرض، وأخذ المراقب يخطر بينهم كأمير ويوزع نصائحه الطيبة. ونُشرت الملابس المفرغة، وطويت القمصان وكوِّمت الكتب ووضعت الأحذية والأخفاف في صفوف. وكانت المعدات الخاصة بالكلية بالنسبة إلى غالبية الأولاد متطابقة، بما أنه كانت هناك لائحة موصى بها تقضي بإحضار أقل قدر من الملابس الداخلية والثياب الأساسية الأخرى. ووُضِعت أحواض للغسيل كتبت عليها أسماء الفتيان في غرفة الغسل، مع إسفنجة وصحفة للصابون، ومشط وفرشاة أسنان. وكان كل فتى قد أحضر أيضاً مصباحاً، وعلبة من البرافين ومجموعة من أدوات المائدة.

---

[1] سوابيّ: نسبة إلى منطقة شفاين في جنوب غرب ألمانيا. ـ المترجم.

كان الأولاد كلهم شديدي الانهماك ومتحمسين، وآباؤهم يحاولون مبتسمين أن يمدوا لهم يد العون، وهم يستشيرون ساعات أيديهم بين فترات من الضجر، وبذلوا جهداً ليبقوا بعيداً. الأمهات هن اللواتي كن مشغولات، كن يلتقطن قطعاً مختلفة من الملابس، ويمسّدنها ليخلصنها من تجاعيدها، ويشددن الأشرطة لتستقيم ويغرزن الأغراض المتنوعة استعداداً لطيها بأناقة ودسها في الخزانات. وكان يُسمَع سيل ثابت من التحذيرات والاقتراحات وتشجيعٌ محبٌّ يصاحب هذا النشاط كله.

« يجب أن تكون شديد الحرص على قمصانك الجديدة، إن كلاً منها يكلّف ثلاثة ماركات وخمسين ».

« يجب عليك أن ترسل غسيلك بالقطار مرة كل شهر، وإن كان في الأمر عجلة، أرسله على شكل طرد. ويجب أن تحتفظ بقبعتك السوداء لأيام الآحاد ».

جلست امرأة بدينة بارتياح على صندوق أمتعة كبير، وهي تعلم ابنها فن تثبيت الأزرار.

امرأة أخرى كانت تقول: « إذا اشتقت إلى البيت اكتب لي على الدوام، إن المدة المتبقية حتى عيد الميلاد ليست طويلة كثيراً ».

وأمٌ جميلة، ما زالت شابة، كانت تتفحص خزانة ابنها وتمرِّر يدها برفق على كومة البياضات، والمعاطف والبناطيل. وحين انتهت بدأت تداعب ابنها. وكان الولد اللحيم الحزين، العريض المنكبين، يحاول أن يوقفها ويضحك لها بارتباك. ولكي لا يبدو مخنثاً أقحم كلتا يديه في جيبي بنطاله، وكان جلياً أن مشهد الفراق أثّر في أمه أكثر مما أثر فيه.

بعض الآخرين حدث معهم العكس، إذ وقفوا يحدقون عاجزين إلى أمهاتهم المشغولات وبدا عليهم أنهم يفضلون ألف

twitter @baghdad_library

مرة أن يعودوا إلى البيت معهن. لقد كان يحتدم في صدورهم صراع عظيم، خوف من أن يُترَكوا وحدهم وشعور يتصاعد بالحب والاتكال من ناحية، وحياءهم أمام بقية الصبية، وتوكيد الذات المتحدي لفترة المراهقة من ناحية أخرى. وعدد من الأولاد الذين كانوا على وشك أن ينفجروا بالبكاء تظاهروا باللامبالاة العادية، وتصرفوا وكأن الأمر لا يعنيهم كثيراً والأمهات أيضاً رسمن ابتسامات. وكل صبي تقريباً أخرج من صندوق أمتعته أغراضاً تزيد عما كُتب في اللائحة، وتتضمن من بين ما تضمن أكياساً من التفاح، والسجق المدخّن وسلالاً من المعجنات. وأحضر عدد منهم مزلج القدم. وأحد الصبية الهزيلين، الخبيثي المظهر كان يجذب إليه الكثير من الانتباه من خلال امتلاكه لفخذ خنزير مدخن كامل لم يجد أي مشقة في إخفائه.

لم يكن صعباً فرز أولئك الذين قدموا مباشرة من المنزل.عن أولئك الذين كانوا لتوهم ينتسبون إلى مدارس داخلية أخرى، أو ما يشبهها من مؤسسات. ولكن حتى بين هؤلاء الأخيرين كان يمكن تبين قدراً معيناً من الإثارة والتوتر.

كان هر غيبنراث يساعد ابنه في فك أمتعته، وقد فعل ذلك بأسلوب رشيق، وعملي. وقد أنهى ما بدأه قبل معظم الآخرين، ووقف خلف هانز في المهجع يبدو عليه الضجر. ولما لاحظ أن الآباء على كلا الطرفين يدلون بتحذيراتهم، مواعظهم، والأمهات يمدونهم بالمواساة والنصيحة الطيبة وأبناؤهن المبهورين ينصتون إليهن، رأى أنه من المناسب أن يزود ابنه بدفعةِ انطلاق على درب الحياة ببعض الكلمات الذهبية من عنده. فكر قليلاً ومَن ثم مشى بانحراف مقترباً من ابنه بطريقة تدل على الارتباك وفجأة فتح النار بتشكيلة من الوصايا المبتذلة أنصت إليها هانز بذهول أخرس إلى أن لمح قساً واقفاً يبتسم لخطاب والده. فسريله الشعور بالخزي وقرَّب المتحدث منه.

« آمل في أن تكون مفخرة لعائلتك وأن تطيع القيمين عليك ».

قال هانز: « طبعاً، بلا شك ».

سكت والده عن الكلام وأطلق تنهيدة ارتياح، لقد كان قد بدأ يضيق ذرعاً بالأمر كله. وهانز أيضاً شعر بشيء من الحرج، تارة كان يلقي نظرة فضول مذهول من خلال النافذة إلى الدير الهادئ الذي يسكن جنباته سكينة العتق وجلاله والذي يتعارض بشكل غريب مع الحياة الشابة الصاخبة في الأعلى، وتارة أخرى يلقي نظرة عصبية إلى أقرانه المنهمكين من التلاميذ الذين لا يعرف أحداً منهم حتى الآن. يبدو أن الولد الذي تعرَّف إليه في امتحان شتوتغارت لم ينجح على الرغم من تفوقه في لاتينية غوبنغن، على أية حال إن هانز لا يراه في أي مكان حوله. ولم يول الأمر الكثير من الاهتمام، وراح يستعرض بعينيه رفاق المستقبل. على الرغم من أن ملابسهم كانت متشابهة في طرازها وتتألف بشكل أو بآخر من المواد نفسها، لم يجد صعوبة في التمييز ما بين أبناء المدن وأبناء الريف، والأغنياء والفقراء. فأبناء الأغنياء في الواقع لا يلتحقون كثيراً بالكلية، فالالتحاق يقرره جزئياً كبرياء الآباء، وبصيرتهم، ومع ذلك، يواظب عدد من الأساتذة الجامعيين والموظفين الكبار على إرسال أبنائهم إلى كلية مولبرون تيمُّناً بذكرى السنوات التي أمضوها هم أنفسهم في الدير. وهكذا كان يمكن مشاهدة تشكيلة واسعة من أنواع الملابس وطُرُز تفصيلها بين المعاطف السوداء الأربعين الموجودة، والأشد وضوحاً كانت الفروق في السلوك، وأسلوب الحديث والمشية، بين الفتية أنفسهم. وكان هؤلاء يضمون صبية أقوياء الأعضاء، رشيقين من منطقة الغابة السوداء، وخرقاً من منطقة ألفاو، شقر الشعور، واسعي الأفواه، وفتياناً حيويين من السهول،

twitter @baghdad_library

صريحين ومرحين، وراقين أنيقين من شتوتغارت ينتعلون أحذية مدببة وقذري اللسان ويتكلمون بتهذيب مبالغ فيه. وكان خمس عدد هذه المجموعة المختارة يضعون النظارات. وأحدهم، وكان فتى مدللاً، يكاد يكون أنيق الملبس ورقيقاً، من شتوتغارت، كان يعتمر قبعة من اللباد القاسي، وكان يتصرف بغطرسة، ولحسن الحظ أنه لم يكن يعي أن أي صفة غريبة سوف تُلاحَظ، حتى منذ اليوم الأول، وسوف تجعله، لاحقاً، هدفاً لمضايقة الأولاد الأكثر جرأة وتنمُّرهم.

المراقب الأشد فطنة سوف يدرك أن هذه المجموعة من الفتية العصبيين تمثل في الواقع تشكيلة من شبان البلد. فإلى جانب الفتية العاديين، الذين يضمون بينهم الرزين الهادئ الخطى، كان هناك عدد من الحساسين أو أشخاص ذوو عزم وشدة تخفي حواجبهم الملساء أحلاماً بحياة أرقى. ولعله كان هناك سوابيّ كتوم وعنيد أو أكثر بينهم كأولئك الذين اضطروا، أحياناً ومع مرور السنين، إلى الانخراط في خدمة العالم الشاسع وجعلوا من أفكارهم التي هي بلا ريب ضيقة الأفق نوعاً ما ومجدبة النقطة المركزية لنظام فلسفي جديد وذي تأثير. وذلك لأن منطقة سوابيا تزود نفسها والعالم ليس فقط باللاهوتيين الأصليين وإنما تفخر أيضاً بأنها ذات تراث في الفكر الفلسفي. وقد قدمت في أكثر من مناسبة نبياً مميزاً في هذا المجال، بغض النظر عن الأنبياء الدجالين. وهكذا فإن هذه المقاطعة الخصبة التي يتجذّر تراثها السياسي العظيم في أعماق القدم ما زالت تبث تأثيرها على العالم، على الأقل في المجال الروحي لفلسفة دينية. وإلى جانب ذلك لطالما ساد بين السكان حب الجمال والشعر العاطفي القديم الذي ينجب بين حين وآخر بعض الشعراء والناظمين للشعر الذين لا تخلو محاولاتهم من موهبة.

ظاهرياً لم يكن في أعراف كلية مولبرون اللاهوتية ونظامها أي أثر لمنطقة سوابي، ولكن إلى جانب الأسماء اللاتينية التي بقيت من أيام الدير، ثُبِّتَ عدد من الأسماء الكلاسيكية الجديدة. فقد ألصقت على قاعات مطالعة الطلاب أسماء الفوروم، وهيلياس وأثينا وإسبارطة، وأكروبولوس، ونظراً إلى أن آخر قاعة وأصغرها سُميت جرمانيا فإن ذلك شكّل سبباً وجيهاً للربط قدر الإمكان بين ألمانيا الحاضرة والمثل الأعلى الروماني - الإغريقي. ولكن حتى هذه التسميات كانت سطحية الدلالة، والأنسب لو كانت أسماء عبرانية. فقد شاءت المصادفة أن قاعة المطالعة المسماة أثينا[1] لم تكن بأي حال تستقبل أصحاب العقول المتفتحة واللسان الفصيح، وقدّر لها أن تضم عدداً من الحمقى الحقيقيين، ولم تكن قاعة إسبارطة[2] مأوى المحاربين والنُسَّاك وإنما كانت تؤمها ثلة الطلاب المحترمين والنيِّقين خارج أوقات إلقاء المحاضرات. وقد وُضع هانز غيبنراث في قاعة هيلاس مع مجموعة من تسعة طلاب.

انتابه شعور غريب حين دخل مع التسعة الآخرين المهجع البارد شبه الخالي لأول مرة في المساء، واستلقى على سرير الكلية الضيق. كان يتدلى من السقف مصباح زيت كبير يعينهم نوره الأحمر الضعيف على خلع ملابسهم وقد خفف أحد الأساتذة الطلاب من نوره عند الساعة العاشرة والربع. وكانت الأسرَّة مرصوفة جنباً إلى جنب وبين كل اثنين منها وُضع كرسي كان الأولاد يكومون عليه ملابسهم. وبالقرب من القائمة تدلى حبل

---

(1) أثينا: هي عند الإغريق إلاهة الحكمة والفنون. ـ المترجم.

(2) اسبارطة: المدينة الإغريقية العظيمة. كان أهلها يتصفون بالبساطة والبعد عن الترف وبضبط النفس وبالصرامة والجَلَد. ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

صغير يرنّ منه جرس الصباح. وكان اثنان من الصبية قد تعارفوا لتوهم وتبادلوا بعض الهمسات الخائفة التي سرعان ما تلاشت تماماً. أما الباقون فكانوا غرباء فيما بينهم واستلقوا على أسرتهم يهيمن عليهم الهدوء والكآبة. والذين كانوا قد استغرقوا لتوهم في النوم كانت أنفاسهم تسمع وكانوا يحركون أذرعهم أثناء نومهم، وكان اللحاف يصدر حفيفاً خفيفاً. أما الذين كانوا ما يزالون يقظين فقد لزموا الهدوء التام. وظل النوم يجافي هانز فترة طويلة. وأخذ ينصت إلى تردد جاره وبعد قليل سمع صوتاً مخيفاً بشكل غريب، صادراً عن السرير التالي لسرير جاره، كان هناك صبي مستلق هناك، يبكي وقد رفع قميصه فوق رأسه. هذا النشيج المكبوت ترك أثراً غريباً على هانز. فهو نفسه لم يكن يعاني من الحنين إلى الوطن، إلا أنه كان يفتقد غرفته الصغيرة الهادئة في البيت، بالإضافة إلى خوف متوتر، من وضعه الجديد ومن الوجوه الجديدة كلها. لم يكن الليل قد انتصف بعد ومع ذلك لم يبق أحد في المهجع يقظاً. كان النيام الصغار مرصوفين جنباً إلى جنب، ووجناتهم مدسوسة داخل وسائدهم المقلّمة، الحزين منهم والجريء، الحريصون على أداء الواجب والخائفون، كلهم غلبهم الهدوء والنسيان العميق واللذيذ. وارتفع نصف قمر شاحب فوق السطوح العتيقة المنحدرة، والأبراج، والنوافذ المقوسة، والبُريجات والشرفات المفرَّجة والممرات الغوطية المقنطرة، ونشر نوره عبر الأفاريز، وطُنُف النوافذ، وانصب من فوق النوافذ الغوطية الطراز والمداخل الرومانسكية، وخفق نوره الذهبي الخافت في الحوض الكبير الأنيق لنافورة الدير. وسقطت أيضاً بضعة أشعة شاحبة وبرقشات من النور داخل مهجع هيلاس من خلال النوافذ الثلاثة وشكلت عنصراً

جامعاً بين أحلام الصبية النائمين تماماً كما كان قد حدث للزهبان في العهود القديمة.

في اليوم التالي أقيمت المراسم المهيبة للانتساب إلى الكلية في المصلى. فوقف الأساتذة بمعاطفهم السوداء القصيرة، وألقى المدير خطاباً، وجلس الطلاب في مقاعدهم المخصصة، منحنين يتفكرون ويسترقون النظرات العرضية إلى آبائهم الجالسين في مكان بعيد جداً خلفهم. وابتسمت الأمهات ابتسامات حزينة لأولادهن، وجلس الآباء منتصبين وتابعوا الخطاب بجدية متجهمة، وقد امتلأت صدورهم بمشاعر الفخر الجديرة بالإطراء وبالآمال الرفيعة، ولم يتبدَّ لأي منهم أنه إنما كان يبادل طفله بمزايا مالية. وأخيراً نودي على كل تلميذ باسمه على التوالي ليقف في مواجهة الباقين، ويصافحه المدير كجزء من المراسيم. وذلك كتعهد من جانب المؤسسة بأن الدولة إذا ما أحسن السلوك، سترعاه وتحميه حتى ختام حياته. ولم يبد على أي منهم أنه يدرك - الآباء منهم خاصة - أنه لا يمكن أن يتوقع حدوث هذا كله بدون مقابل.

عندما حان موعد وداع الأولاد لآبائهم وأمهاتهم، كان الموقف أشد بعثاً على الحزن. وأخذوا يختفون مبتعدين على عجل، البعض سيراً على الأقدام، والبعض بالعربة، والبعض الآخر بأي وسيلة نقل تتاح لهم، عن فلذات أكبادهم المتروكين. وظلوا يلوحون لهم بمناديلهم فترة طويلة في هواء أيلولي معتدل إلى أن ابتلعت أخيراً الغابة المغادرين. وعاد الأولاد بهدوء وتأمل حزين إلى الدير.

علق المراقب قائلاً لهم: «حسن، لقد رحل أباؤكم الآن». ثم أخذ بعضهم يقيّم البعض الآخر ويحاولون أن يريدوا التعارف فيما بينهم، بادئين بالأولاد الموجودين في قاعة درسهم. وملأوا

twitter @baghdad_library

دويهم[1] بالحبر، ومصابيحهم بالزيت، ورتبوا كتبهم ودفاترهم وحاولوا أن يتآلفوا مع غرفهم الجديدة. وأثناء ذلك كان كل منهم يتفحص الآخر بتوق، وينخرط معه في حديث، ويتبادلون الأسئلة عن الأماكن والمدارس التي جاؤوا منها، ويذكر بعضهم البعض بالعذاب الذي عاناه أثناء الامتحان العام. وتجمعت حلقات من الصبية المتسامرين حول مقاعد منعزلة وكان يرتفع بين حين وآخر ضحك صبياني صاخب، صاف، ومع حلول المساء كان أفراد كل قاعة قد تعارفوا بشكل أفضل بكثير مما يحدث مع مسافرين في نهاية رحلة بحرية طويلة.

من بين الأصدقاء التسعة الذين شاركوا هانز قاعة هيلاس كان هناك أربعة متميزون، أما الباقون فلم يكونوا يتميزون بأي شيء. أولاً كان هناك أوتو هارتنر، وهو ابن بروفسور من شتوتغارت، موهوب، هادئ، واثق من نفسه، وقدوة في سلوكه. كان لتوه عريض المنكبين وسيماً وحسن الملبس وقد أثار إعجاب من في القاعة بخطواته الثابتة والقوية. ثم كان هناك كارل هامل ابن عمدة قرية صغيرة في أعالي منطقة سوابيا. وقد استغرق التعرف إليه بعض الوقت لأنه كان كتلة من المتناقضات، ونادراً ما يخرج من تبلّده الواضح. وعندما يفعل يصبح متقداً، صخّاباً وعنيفاً لكنه سرعان ما يعود إلى هدوئه، وعندئذ تصعب معرفة إن كان مراقباً هادئاً أم مجرد شخص ماكر.

هرمن هايلنر كان مذهلاً على الرغم من سذاجته، ينحدر من عائلة كريمة من الغابة السوداء. وكان جلياً منذ اليوم الأول أنه شاعر، ومثقف، ويقال أنه كتب موضوع الإنشاء في الامتحان

---

[1] دوى: جمع دواة لاحتواء الحبر. ـ المترجم.

العام شعراً منظوماً. كان متحدثاً مفوهاً، حيوياً، لديه آلة كمان جميلة، ويعطي إيحاء بأن في الإمكان معرفة شخصيته، التي تتألف أساساً من مزيج فج نضير من النزعة العاطفية والجذل، ككتاب مفتوح. غير أنه كان هناك جانب أقل سطحية منها يحرص على إخفائه. لقد كان يتجاوز في تطور جسده وعقله سنين عمره. وقد بدأ لتوه يتقدم على مسارات تجريبية من صنعه.

غير أن أشد فتية قاعة هيلاس غرابة كان إميل لوسيوس، المحافظ، ذو الشعر الذهبي، المجتهد في عمله والجاف كفلاح عجوز كئيب. على الرغم من قامته وقسماته غير المتطورة لم يكن يوحي بأنه فتى، كان يتصف بسمة توحي بأنه بالغ وكأنما من غير المتوقع أن يطرأ عليه أي تغيير. وحتى في اليوم الأول بينما كان الآخرون ضجرين أو يتسامرون ويحاولون أن يستقروا، لزم هو الهدوء وانكب على القراءة في كتاب في قواعد اللغة، ووضع يديه على أذنيه وطفق يدرس وكأنه يعمل على التعويض عن سنين طويلة ضاعت منه.

أخذ الآخرون يتأقلمون تدريجياً مع أساليب هذا الفتى الهادئ ووجدوا أنه ضليع في الخسة والأنانية، بحيث أن بلوغه حد الكمال في هاتين الرذيلتين فرض عليهم إذا لم نقل احترامه، فعلى الأقل قدراً من تحمّله. وكان قد طور برنامجاً بارعاً في التوفير والربح، لم تتكشف تفاصيله الدقيقة وتخرج إلى النور إلا بشكل تدريجي وأثارت دهشة عارمة. وقد أخذت تتبدى منذ الصباح الباكر عندما استيقظوا من النوم. فقد كان يصر على أن يكون إما أول أو آخر من يدخل المرحاض وذلك عله يصادر منشفة شخص آخر، وأيضاً، إذا أمكن، صابونته، وبهذا يحافظ على منشفته الخاصة ويظل يستخدمها على مدى أسبوعين أو

twitter @baghdad_library

أكثر. وكان من المفترض أن تُجدَّد أسبوعياً وكان المراقب يتفحصها في صباح كل يوم إثنين. لذا كان لوسيوس يعلق منشفة جديدة على مشجبه الذي يحمل رقماً ويأخذها معه ثانية أثناء استراحة تناول الغداء. عندئذ يطويها، ولا تزال غير مستعملة ثم يعلق القديمة التي وفرها في مكانها. وكانت صابونته قاسية ومن الصعب الحصول على أي قدر من الرغوة منها، وهكذا كانت تدوم شهوراً. وعلى الرغم من ذلك كله، لم يكن إميل لوسيوس بأي حال قذراً في مظهره، على العكس لقد كان دائماً يبدو مرتباً وأنيقاً، وشعره الأشقر الناعم كان ممشطاً بعناية ومفروقاً وكان يعتني ببياضاته وملابسه بصورة يقتدى بها.

بعد الاغتسال، يأتي طعام الإفطار، ويتألف من كوب من القهوة، وقطعة من السكر ورغيف. ولم يكن الأولاد، بما يتمتعون من شهية كبيرة يتصف بها من في مثل سنهم بعد فترة ثماني ساعات من النوم، يعتبرونها بأي حال وجبة دسمة، إلا أن لوسيوس لم يكن يشتك من أي شيء، وكان يوفر حصته اليومية من السكر ولا يجد مشقة في العثور على من يشتريها منه فيحصل مقابل قطعتين على بنس ومقابل خمس وعشرين قطعة على دفتر للتمارين. ولا غرابة في أنه كان يميل إلى أن يدرس في المساء على ضوء مصابيح غيره من الفتية لكي يقتصد في ثمن زيت المصباح الغالي. وكان ابناً لأبوين أبعد ما يكونان عن الفقر، ونشأ في ظروف ميسورة، وكان يعرف كيف يعيش بطريقة مقتصدة وشحيحة نادراً ما يقدر عليها أولاد الفقراء حقاً، الذين يعيشون حياة الكفاف.

لم يقنع إميل لوسيوس ببرنامجه الخاص بالمتلكات والأغراض المادية، فأخذ يعمل على استغلال مزاياه الذهنية التي لم يكن يقل خبرة فيها. وبينما هو في ذلك، كان من الدهاء بحيث

لم ينس قط أن الممتلكات الذهنية نسبية في قيمتها وعليه كان يحافظ على جهوده الحقيقية ليبذلها في مواد دراسية يتوقع أن تكون مثمرة في الامتحان التالي، قانعاً بعلامة متوسطة في بقية المواد. وكان كل ما يتعلمه أو يحققه يقيسه فقط بالنسبة إلى إنجاز رفاقه من التلاميذ وكان يفضل أن يكون الأول في مادة ما لا يلم بها إلا جزئياً على أن يكون ثانياً مع إلمام مضاعف بها. ونتيجة لذلك كنت تراه جالساً منكباً على عمله في المساء بينما ينصرف رفاقه إلى كافة صنوف التسلية، والألعاب والقراءة. ولم يكن الضجيج الذي يثيره الآخرون يضايقه أو يشتت انتباهه، كان يكتفي بإلقاء نظرة خاطفة عابرة، تنم عن الرضا عن النفس، فلو كانوا جميعاً يعملون في وقت واحد معه، لما كان لجهوده الإضافية أي قيمة.

لا أحد منهم كان يستنكر كل تلك الحيل الماكرة التي تصدر عن هذا المغامر المجتهد. لكنه، وككل الذين يحاولون أن يتفوقوا على أقرانهم ويستغلوهم، سرعان ما عرّض نفسه للسخرية. وبما أن التعليم في الكلية كان مجانياً، فكر في أن يجيّر هذه الحقيقة إلى مصلحته ويتلقى دروساً في العزف على آلة الكمان. وهذا لا يعني أنه كان ينطوي على أي ميل، أو تذوق أو موهبة في الموسيقى أو حتى يستمد أي متعة من الإنصات إليها. غير أنه كان يعتقد أن في استطاعته أن يتعلم العزف على آلة الكمان بالطريقة نفسها التي يتعلم بها اللاتينية أو مادة الرياضيات. فقد سمع أن الموسيقى مفيدة في وقت لاحق من الحياة، وتجلب الشعبية لأصحابها. وفي كل الأحوال هي لا تكلف شيئاً بما أن الكلية تضع الآلات الموسيقية تحت تصرف التلاميذ.

انتصب شعر رأس الأستاذ عندما جاءه لوسيوس يبدي رغبته في تلقي دروساً في الموسيقى، ذلك لأن الهرهاسه كان

twitter @baghdad_library

يعرف مقدرته في دروس الترتيل عندما كان أداء لوسيوس يشذ بشكل كبير عن رفاقه من التلاميذ ويجرف أستاذه إلى حافة اليأس، وبذل قصارى جهده كي يثني الفتى عن عزمه لكن هذا الأمر كان مستحيلاً مع لوسيوس، لأن الفتى اكتفى برسم ابتسامة متواضعة، ماكرة على وجهه، مشيراً إلى حقه في تلقي الدروس وأطنب في التعبير عن شغفه العارم بالموسيقى. فخُصِّصَت له واحدة من أسوأ آلات الكمان المعدة للتمرين، وأخذ يتلقى درسين في الأسبوع ويتدرب مدة نصف ساعة في كل يوم. بيد أنه بعد قيامه بالجهود الأولية أعلن رفاقه في القاعة أن محاولته تلك ستكون الأولى والأخيرة ورفضوا أن يفسحوا له المجال في مواصلة إصداره ذاك الضجيج الشاذ. ومنذ ذلك الحين فصاعداً أخذ لوسيوس يتمشى قلقاً، باحثاً في أروقة الدير عن ركن يمكنه أن يتدرب فيه، ومنه كانت تصدر أصوات عواء، وصرير، وصريف، ترتفع وتتعالى وتسبب الإزعاج للمنطقة المجاورة. وقد علق هايلنر، الشاعر بينهم، قائلاً كأن الآلة المعذَّبة تتوسل بيأس طالبة الرحمة من أعماق ثقوبها الصغيرة العتيقة. ولما لم يحرز لوسيوس أي قدر من التقدم، أصبح الأستاذ المرهق أكثر عصبية وصراحة. وأخذ لوسيوس يتمرن بيأس مضطرد. وبدأت تغزو وجهه الشبيه بوجه صاحب دكان، والذي كان حتى ذلك الحين أملس لا تشوبه شائبة، خطوط القلق. لقد كان الوضع مأساوياً، فعندما أعلن أستاذه أخيراً أنه عاجز تماماً ويرفض أن يواصل إعطاءه الدروس، اختار المتحمس المخذول أن يتعلم العزف على البيانو واستسلم لأشهر طويلة، عقيمة، من العذاب إلى أن استُنزف. وتخلى عن الأمر بهدوء. وفي سنوات لاحقة، كان لا يمانع في أن يعلن، عندما يدور الحديث خلال الموسيقى، أنه هو أيضاً كان قد تعلم العزف على آلة البيانو وآلة الكمان إلا أن ظروفاً غير مواتية أقصته عن تلك الفنون الراقية.

كانت قاعة هيلاس كثيراً ما تشهد جواً من التسلية على حساب قاطنيها، وحتى هايلنر المثقف كان يشارك في كثير من مشاهدها. كان كارل هامل يقوم بدور المراقب الفكه، الساخر. وكان يكبر بقية الأولاد بعام، وقد حظي بتقدير خاص بسبب هذه الحقيقة وإن لم يقم بأي محاولة لاستغلالها أو لتعزيز مكانته بينهم بأي طريقة من الطرق. كان متقلب المزاج وتنتابه مرة في الأسبوع حاجة ملحة لاختبار قوته البدنية في "قتال" وعندئذ يصبح عنيفاً حتى درجة القسوة.

راقب هانز غيبنرات أفعاله بدهشة وتابع حياته بأسلوبه الخاص، كزميل طيب ولكن مسالم. عمل بجد، باجتهاد يكاد يماثل اجتهاد لوسيوس، وحظي باحترام رفاقه في القاعة، باستثناء هايلنر الذي كان معروفاً بتقلب مزاجه العبقري. وكان ينظر إليه على أنه "تلميذ مجتهد". ولكن عموماً كانوا جميعاً متوائمين خلال تلك الفترة من التطور السريع الذي يطرأ على حياتهم، على الرغم من أن ذاك الصخب الليلي في المهاجع كان حدوثه قد زاد عن الحد. فقد كانوا تواقين إلى أن يشعروا أنهم بالغون، وأن يبرروا صيغة التخاطب التي تدل على الاحترام وما تزال جديدة، التي كان الأستاذ يستخدمها، وذلك من خلال جديتهم النظامية وحسن سلوكهم. وكانوا يستعيدون عهد المدرسة الكلاسيكية التي غادروها لتوهم بكثير من السخرية، الودية، كما يفكر الطالب الجامعي المستجد في أيام المدرسة الثانوية. ولكن كانت بين حين وآخر تنبجس ثورة من الصبيانية الفطرية وسط كل ذلك الوقار المصطنع وتضج طلباً لمتنفس. عندئذ يهدر المهجع من جديد بضرب أقدامهم والتجديف الصبياني.

*

twitter @baghdad_library

إن من المفيد والقيم بالنسبة إلى مدير أو أستاذ في مثل هذه المؤسسة أن يدرك كيف تصبح جماعة من الفتية، بعد مضي الأسابيع من الحياة الاجتماعية، أشبه بمزيج كيميائي تجتمع فيه السحب والرقائق معاً، ثم تعود فتتباعد، وتشكل تكوينات أخرى إلى أن ينتج عنها عدد من المركبات الكيميائية. فبعد أن تغلّب الأولاد على حيائهم الأولي وتعارفوا بصورة كافية، سادت حركة من التمازج، مجموعات تتألف، وصداقات تُعقد وعداوات تنشأ. ولم يكن من المألوف أن يختلط أولاد المدينة الواحدة الذين كانوا تلاميذ مدرسة واحدة، بل كانوا في الغالب ينتشرون ليعقدوا صداقات جديدة ـ فأولاد المدينة يتوجهون إلى أولاد الريف، وسكان الجبال إلى سكان السهول، تدفعهم قوة جذب خفية نحو من يختلف معهم ويكمّلهم. وكان الأولاد يتلمسون طريقهم بتردد في تلك الصداقات، كان تمييزهم لمواطن التشابه يتبعه مباشرة طلبهم لمواطن الاختلاف وعند الكثير من الأولاد كان أول بوادر بزوغ الشخصية الذاتية قد بدأت بالتشكل للمرة الأولى. ووقعت مشاهد صغيرة وغريبة من التعلّق والغيرة، ثم تطورت أو تحولت إلى عداء صريح وانتهت ـ وفق كل حالة ـ إلى علاقات مؤثرة، والتنزه معاً أو إلى شجارات عنيفة وتبادل اللكمات.

لم يكن لهانز أي دور ظاهر في تلك المشاكل. وكان كارل هامل قد عرض عليه صداقته باندفاع جليّ لكن هانز تراجع خائفاً. بعد ذلك مباشرة أصبح هامل صديقاً لزميل له في قاعة إسبارطة، وتُرك هانز وشأنه. كان يميل بقوة إلى أن يرى أرض الصداقة تنهض وتتعالى في وجه السماء بألوان متوهجة؛ مما دفعه إلى الأمام بهدوء ولكن بإصرار. غير أن حياءه ذاك كان يعيقه. لقد كانت موهبته في عقد روابط الود قد تعرضت خلال

أيام كئيبة من طفولته اليتيمةِ الأم للإحباط، وها هو الآن ينتابه الرعب من أي شكل من أشكال التعبير الصريح عن العواطف. وبالإضافة إلى ذلك، كان يتصف بكبرياء صبيانية، وباندفاع مؤلم نحو التفوق لا يستهان بهما. لقد كان مختلفاً عن لوسيوس في سعيه الحثيث وراء المعرفة لذاتها، غير أنه كان مثل هذا الأخير في محاولته لتجنب كل ما من شأنه أن يلهيه عن إنجاز عمله. وهكذا كان يلازم طاولة دراسته باجتهاد ولكن مع لمسة من حسد وتوق كان يشعر بها وهو يرى البقية تستمتع بصداقاتها. لقد كان كارل هامل غير ملائم له، لكن لو أن أي شخص آخر قد جاءه ومارس عليه أي قوة جذب لسره أن يتبعه. لقد جلس كفتاة حييّة ريثما يأتي أحدهم، ويأخذه، صبي أقوى منه، وأشجع، يأخذه معه ويدفعه دفعاً نحو السعادة.

لما كان هناك الكثير من العمل، خاصة في اللغة العبرية، في برنامج دراستهم، فإن تلك الأيام الأولى مرت بسرعة كبيرة بالنسبة إلى الأولاد. وكانت الأعداد الكثيرة من البحيرات والبرك الصغيرة التي تحيط بمولبرون، تعكس صورة سماء أواخر الخريف الشاحبة، وأشجار الدردار التي تستحيل أوراقها إلى الصفار، والبتولا الفضية والسنديان وفترة الغسق التي يطول أمدها. وكان آخر درب قبل حلول فصل الشتاء قد أخذ يجتاح الغابات بأنين يثير الشجن. وكانت قد حدثت للتو عدة موجات صقيع خفيفة.

كان هرمن هالنر الصبي الرومانسي الذي حاول عبثاً أن يجد رفيقاً ينسجم مع طبيعته يتمشى وحده يومياً في الغابة في وقت فراغه، تجذبه خاصة بحيرة الغابة، وهي امتداد كئيب، بني اللون، من المياه تحف بها أحراج القصب وتظللها أوراق الأشجار العتيقة الباهتة اللون. وقد كان الجمال الحزين لهذا الركن من الغابة يجد هوى لا يقاوم عند الفتى الحساس. هنا كان في وسعه

twitter @baghdad_library

أن يرسم، وهو شارد، حلقات على صفحة المياه الساكنة بغصين، ويتلو قصيدة لیناو Lenau "أغنية القصب"، وهو مستلق بين الأسل يتأمل الجو الريفي للسنة المحتضرة ونخة من أوراق الشجر تسقط عليه وذرى الأشجار العارية تتنهد بتناغم حزين. بعد ذلك يخرج دفتر ملاحظات من جيبه ليخط فيه بضعة أبيات من الشعر.

هكذا كان يمضي فترة ظهيرة نهار كئيب من أواخر شهر تشرين أول عندما تصادف أن كان هانز غيبنرات أيضاً يتمشى في المكان نفسه. رأى الفتى الشاعر جالساً على لوح خشبي من بوابة التحكم في المياه ودفتر ملاحظاته على ركبته وقلمه الرصاص المبري مقحم في وضع متأمل. وإلى جانبه وُضع كتاب مفتوح. وببطء اقترب منه.

« مرحباً، هايلنر. ماذا تفعل؟ ».

« أقرأ هومر، وأنت، أيها الصغير غيبنرات؟ ».

« لا أصدق أنك... أعتقد أني أعرف ما تفعل ».

« أحقاً؟ ».

« طبعاً. كنت تكتب شعراً ».

« أهذا ما تظنه؟ ».

« طبعاً ».

« إجلس هنا ».

جلس غيبنرات بجوار هايلنر على لوح الخشب، وترك ساقيه يتدليان فوق المياه، وأخذ يراقب أوراق الشجر الصفراء وهي تسقط بحركة لولبية ورقة ورقة في الهواء الساكن، البارد، ثم تستقر بصمت على السطح البني اللون.

قال هانز: « الجو مقبض هنا ».

« نعم ».

كانا قد تمددا بشكل كامل على ظهريهما بحيث لم يعد يبدو لناظريهما إلا بضع ذرى من الأشجار تخيم عليهما وقد انبسطت لهما السماء ذات اللون الأزرق الباهت بما عليها من جزر مسالمة من السحب.

قال هانز، محدقاً إلى أعلى باسترخاء: « ما أروعها من سحب ».

قال هايلنر وهو يتنهد: « نعم أيها الصغير غيبنراث، ليتنا نكون سحباً مثلها ».

« ثم ماذا؟ ».

« عندئذ سوف ننساب وننساب، فوق الغابات والقرى، والدساكر والأقاليم، كسفن رائعة. أرأيت مرة سفينة؟ ».

« لا، يا هايلنر، وأنت؟ ».

« نعم، رأيت. ولكن ماذا تعرف أنت عن مثل هذه الأشياء، إن كل ما يهمك هو أن تنكب على الدرس وتكدح! ».

« أتقصد أني أبله؟ ».

« هذا ما قلته بالضبط! ».

« إنني منذ بعض الوقت لم أعد أبله كما تظنني. ولكن حدثني أكثر عن السفن ».

تقلّب هايلنر، حتى كاد يقع في الماء أثناء فعله ذلك. ثم أصبح منبطحاً على بطنه، وذقنه تضمها يداه.

تابع قائلاً: « لقد شاهدت سفناً في نهر الراين خلال فترات العطل. وذات يوم أحد عُزفَت موسيقى على متن السفينة وأثناء الليل أُضِيئَت مصابيح مَلونة. وانعكست الأضواء على صفحة المياه فأخذنا نسير على طول النهر نتتبّع صوت الموسيقى. وكان لدينا نبيذ الراين فشربنا وفتيات بأثواب بيضاء ».

twitter @baghdad_library

أنصت هانز إليه ولم يدل بأي رد، لكنه أغمض عينيه فاستطاع أن يرى السفن تبحر مخترقة ليل الصيف مع الموسيقى والأضواء والفتيات بأثوابهن البيضاء. وواصل الآخر كلامه.

« نعم، كم كانت الدنيا تختلف عما هي الآن. مَنْ الآن يعرف مثل هذه الأشياء؟ إنهم جميعاً مُملّون جبناء! يعملون ويكدون وأقصى ما يتعلمونه الأحرف الأبجدية العبرية. وأنت لا تختلف عنهم في شيء ».

ظل هانز ملازماً الصمت. إن هذا الفتى هايلنر غريب الأطوار. متحمّس، شاعر. كثيراً ما فكر في أمره من قبل. من المعروف أن هايلنر لم ينجز ما يستحق الذكر ومع ذلك فهو يعرف الشيء الكثير وعلى الرغم من مقته لكل هذه المعرفة كان يعطي إجابات جيدة.

أردف بنبرة تأنيب مهلكة: « إننا هنا نقرأ هومر، وكأن الأوديسة كتاب للطبخ، سطرين في الساعة وبعد ذلك يُمضغ كله من جديد ويُفحص إلى أن نعاف مجرد النظر إليه. والدروس كلها تنتهي بالطريقة نفسها: "انظروا كيف أبدع الشاعر في صياغة العبارة. ها أنتم تلقون نظرة على سر الإبداع الشعري!" إنهم يغلّفون حرفاً أو صيغة قواعدية بكثير من السكر حتى نتمكن من ابتلاعها بدون أن نختنق. إني أتخلى لك عن كل ما كتبه هومر، فلا حاجة لي إليه. لا أدري ما علاقتنا بهذه اللغة الإغريقية العتيقة؟ لو أراد أي منا أن يعيش وفقاً للأسلوب الإغريقي في الحياة، فسوف يُنبَذ. ولهذا أطلقوا على قاعتنا اسم هيلاس! يا لها من إهانة. لم لا نطلق عليها "سلة المهملات" أو "غرفة التعذيب"؟ إن الكلاسيكيات كلها خداع ». ثم بصق في الهواء.

سأله هانز: « أعتقد أنه سبق لك أن كتبت شعراً أليس كذلك؟ ».

« نعم ».
« عمَّ؟ ».
« عن هذه البقعة؛ عن البحيرة والخريف ».
« أرنيه ».
« لا، إنه لم ينته بعد ».
« عندما ينتهي ».
« نعم، إن شئت ».
نهضا معاً واقفين وتمشيا عائدين إلى الدير.
سأله هايلنر، لدى مرورهما بـ "المصلَّى" بردهات ونوافذ مقوسة، وأروقة معمَّدة ومسقوفة، وحجرات طعام، كلها على الطرز الغوطي والرومانسكي، ومنفذة بحرفيَّة عالية: « هل لاحظت مرة مبلغ جمال هذا كله؟ ولأجل من هذا السحر كله؟ إنه من أجل حفنة من المغفلين المساكين مكرَّسين للالتحاق بالكنيسة. إن الولاية تحتاج إليهم ».
أمضى هانز فترة ما بعد الظهر بأكملها وهو يفكر في هايلنر. أي نوع من الأصحاب هو؟ إنه بلا شك لا يشارك هانز آماله وهمومه. إن لديه أفكاره وكلماته الخاصة، وعاش حياته بكثافة أشد وحرية أكبر، وعانى مشاكل غريبة خاصة به، وبدا مشمئزاً من كل ما يحيط به. كان يفهم جمال الأعمدة والأسوار العتيقة، وكان يمارس الفن الخفي والخارق في التعبير عن مشاعره شعراً وفي خلق عالم خاص به، من صنع مخيلته. كان قلقاً وجامحاً ويخرج في يوم واحد من الطُرَف أكثر مما أخرج هانز في عام كامل. كان نكد المزاج وبدا أنه يستمتع بكتابته وكأنها شيء نفيس وغريب.
في تلك الأمسية ذاتها دعا شاغلي القاعة كلهم إلى عيِّنة من شخصيته المزدوجة والمذهلة. فقد افتعل أحد رفاقه، وكان مغروراً

twitter @baghdad_library

حقيراً اسمه أوتو فنغر، شجاراً معه. ظل هايلنر محافظاً على هدوئه، وجذله وحياده، ومن ثم أطلق العنان لانفعاله وكال لغريمه لكمة على أذنه. وعلى الفور فقد الصبيَّان السيطرة على نفسيهما وهجم كل منهما على الآخر وسرعان ما اشتبكا والتحما، وأخذا يندفعان في هذه الجهة وتلك مثل سفينة بلا دفة، تارة يتحركان بشكل نصف دائري، وطوراً يترنحان في أرجاء القاعة عند الجدران، أو فوق الكراسي، أو على الأرض، وكلاهما يمور ويزبد من فرط الغضب، ويشهق طلباً للهواء. وراح أصدقاؤهما يراقبانهما بعيون نافذة مفسحين مسافة أرحب للمتشابكين، مبعدين سيقانهم عن الطريق، منقذين مقاعد درسهم ومصابيحهم وهم ينتظرون النتيجة بحماس ومرح. وبعد مرور بضع دقائق نهض هايلنر واقفاً على قدميه يتألم وظل في مكانه يتنفس بصعوبة. بدا متوتراً، وعيناه تقذفان دماً، وقد تمزقت ياقة قميصه، وحدث تمزق في ركبة بنطاله. وكان غريمه يستعد ليواصل الهجوم لكن هايلنر وقف وقد عقد ساعديه على صدره وقال مؤنباً: « أنا راغب في الكف إذا شئت؛ فلنتصافح ». لكن أوتو فنغرا ابتعد وهو يغمغم. جلس هايلنر على مقعد الدراسة، ثم زاد من توهج نور مصباحه، وأقحم يديه في جيبي بنطاله وبدا أنه يريد أن يخرج بفكرة ما. وفجأة طفرت الدموع من عينيه وراحت تتسابق في التدحرج على وجنتيه، متسارعة. وكان عرضاً مشيناً؛ لقد كان بكاء التلميذ يعتبر أمراً معيباً جداً. ولم يقم بأي محاولة لإخفائه. ولم يغادر الغرفة، بل لزم مكانه، ووجهه متجهاً نحو المصباح، ولم يمسح دموعه أو حتى أخرج يديه من جيبيه. وتحلق الأولاد حوله، يحدقون إليه، بفضول وخبث، إلى أن وقف هارتنر أمامه وقال له: « هيه، أنت، هايلنر، ألا تخجل من نفسك؟ ».

أخذ الفتى الباكي يتلفت ببطء حوله، كمن استيقظ من نوم عميق.

قال بصوت عال، مهدداً: « أخجل، أمامكم أنتم؟ لا، يا صديقي الطيب ».

مسح وجهه، ورسم ابتسامة مرَّة، وأطفأ مصباحه، ثم غادر الغرفة.

كان هانز غيبنرات قد لزم مكانه طوال فترة الحدث، مكتفياً بإلقاء نظرات خائفة في اتجاه هايلنر. وبعد ذلك بنصف ساعة غامر ولحق به. رآه جالساً بسكون تام في المهجع البارد، الغارق في الظلام، ويرسل نظرة إلى أسفل حيث ردهات الدير. كان كتفاه ورأسه الضيق الحاد التقاطيع تضفي هالة من الجدية والنضج حوله. وعندما اقترب هانز منه ووقف عند النافذة لم يأت بأي حركة. ومر بعض الوقت قبل أن يسأله، بدون أن يلتفت إليه، وبصوت أجش:

« ما الأمر؟ ».

قال هانز بحياء: « هذا أنا ».

« ماذا تريد؟ ».

« لا شيء ».

« أوه، إذن عُد من حيث أتيت ».

تأذّى هانز وهمّ بالابتعاد، لكن هايلنر عندئذ أمسك به. وقال بنبرة صوت تحاول أن تكون جذلة: « ولكن ابق لابأس. لم أقصد ».

تبادلا النظرات. لعلها كانت المرة الأولى التي يتملّى كل منهما وجه الآخر، ويشعر أن خلف قسمات وجه الآخر الملساء يكمن شخص فريد، وروح شقيقة، وخصائص مميزة.

twitter @baghdad_library

مدّ هرمن هايلنر ببطء ذراعه وقبض على هانز من كتفه، ثم جذبه نحوه حتى كادت وجنتاهما أن تتلامسا. ثم شعر هانز بنوبة فزع حادة ومفاجئة بشفتي صديقه تلامسان شفتيه.

تسارع وجيب قلبه وشعر بانقباض لم يعهده من قبل في صدره. لقد كان اجتماعهما معاً في المهجع المظلم وهذه القبلة المفاجئة شيئاً جديداً عليه، لعلها مغامرة خطرة، وتخيل مدى فظاعة الأمر لو أن أحدهم قبض عليهما متلبسين، وأدرك بحدسه أن هذه القبلة كانت تبدو أقرب إلى النكتة والفضيحة من حادثة البكاء التي وقعت قبل قليل. وعجز عن نطق أي كلمة لكن الدماء صعدت إلى وجنتيه وشعر برغبة قوية في أن يهرب.

لو أن شخصاً بالغاً حضر هذا المشهد الصغير لشعر ربما باستمتاع بهذه العاطفة الخرقاء، الحييّة، بهذا الإعلان الخجول عن الصداقة وقد تضرَّج وجهاهما الفتيَّان الصغيران، الجميلان والواعدان بالحلاوة الطفولية، بالتحدي الوسيم الذي تتسم به مرحلة المراهقة.

أخذ الفتيان جميعاً يكتشف بعضهم بعضاً بالتدريج من خلال حياتهم المشتركة. لقد كان عليهم أن يتعارفوا فكونوا فكرة ما عن طبيعة رفاقهم، ونشأت صداقات كثيرة. فيجلس الأصدقاء أزواجاً يدرسون أفعال اللغة العبرية، أو يرسمون، أو يتمشون أو يقرأون شيللر. وكنت ترى منهم متفوقين في اللاتينية والرياضيات يصادقون تلاميذ فاشلين في اللاتينية وآخرين بارعين في الرياضيات. وذلك كي يحظوا بقدر من الفائدة من العمل المشترك. وكانت هناك أيضاً صداقات قائمة على أساس نوع مختلف من المواثيق، على الملكية المتبادل. وعليه فإن مالك لحم الخنزير المحسود جداً وجد نصفه المكمِّل في ابن بستاني من شتامهايم الذي كانت زوّادته ملأى بأفضل أنواع التفاح. وفي

إحدى المناسبات عندما انتابه العطش جراء أكل لحم الخنزير طلب من الآخر تفاحة وقدم له في المقابل بعضاً من لحم الخنزير وتناولا الطعام معاً، وانخرطا في محادثة حذرة أساسها العام كان أنه سوف يتزود بكمية أخرى من لحم الخنزير حالما تنتهي الحالية، وأن صاحب التفاح سوف يكون في استطاعته أن يظل يتزود من مخازن والده حتى حلول العام الجديد. وهكذا نتج تفاهم متين بينهما دام طويلاً وتفوق على مواثيق صداقة أكثر مثالية وأشد اندفاعاً.

قلائل كانوا من لم يجدوا لهم أصدقاء . لكن لوسيوس الذي كان تفانيه المُكْتَسَب للفن في أوجه عندئذ كان واحداً منهم.

كانت هناك أيضاً صداقات غير موفقة، ومثال مذهل عليها كان هرمن هايلنر وهانز غينبرات، الطائش وذو الضمير الحي، الشاعر والمكافح. كلاهما كان بارعاً وذا موهبة خارقة. ولكن في حين كان هايلنر فرحاً بلقب "عبقري" الساخر، كان هذا اللقب بالنسبة لهانز يمثل كراهيته لكونه صبياً نموذجياً. غير أنهم تُركوا نسبياً وشأنهم، كلٌ لصداقاته الخاصة وكل لشأنه.

ولكن على الرغم من هذه التعقيدات الشخصية والأحداث كلها سارت أمور الكلية سيراً حسناً بما أنها كانت البداية والأساس. بينما في المقابل كانت موسيقى لوسيوس، وأشعار هايلنر، وعهود الصداقة والتعاملات المادية وتبادل اللكمات بين حين وآخر، كل هذا كان مجرد تسالي تافهة. ثم كانت هناك خاصة دائماً اللغة العبرية. لغة يهوه تلك العتيقة والغريبة، الخشنة ولكن الحية لسبب غامض، كانت تلوح مهددة، صعبة، ومربكة، أمام عيون أولئك التلاميذ، أخاذة بتشعباتها المذهلة، ممتعة بأزهارها العطرة والملونة بألوان رائعة. تسكن فروعها أرواح عمرها ألف عام، بعضها مخيف، وبعضها ودّي، وتنانين

twitter @baghdad_library

مرعبة إلى أقصى حد، وأساطير ساذجة ومثيرة، وذوو لحى ذاوون، وقورون وتعلوهم التجاعيد، جنباً إلى جنب مع فتية وسيمين، وفتيات بعيون ناعسة أو نسوة محاربات. والكلمات التي كانت تبدو في الكتاب المقدس اللوثري بعيدة نائية وحالمة أضحت الآن لحماً ودماً في النسخة الأصلية القوية وتلبَّست واقعية بائدة مضجرة لكنها خشنة ومشؤومة. على أي حال هكذا بدت لهايلنر الذي كان يلعن في كل يوم وفي كل ساعة أسفار موسى الخمسة ومع ذلك كان يجد فيها من الحياة والروح ويستمد منها أكثر مما يفعل الكثير من التلاميذ الكادّين الذين تضلَّعوا في مفرداتهم وتجاوزوا مرحلة ارتكاب الأخطاء في القراءة.

من ناحية أخرى، فإن العهد الجديد الذي يسير فيه كل شيء بسرعة وخفة اللغة، وإن كانت أقل عراقة، وعمقاً وغنى، كان يشحنه بروح علوية، شابة، متلهفة وحتى حالمة.

ثم هنالك الأوديسة التي تنهض من شِعرها المتناسق، الهادر والقوي، مثل ذراع بيضاء، ملفوفة، لحورية الماء، معرفة ومشاعر حياة بائدة بمعالمها الواضحة وسعادتها، تارة تبدو راسخة ومحددة بخطوط واضحة، وطوراً تتوهج كحلم سري وشبه مبهم، من بضع كلمات وأبيات من الشعر.

وكان هناك أيضاً المؤرخان زينوفون وليفي بوصفهما نجمين صغيرين مضيئين، متواضعين، ولا تكاد تكون لهما أهمية بالمقارنة.

دُهش هانز عندما لاحظ أن كل شيء يبدو مختلفاً في نظر رفاقه. فبالنسبة إلى هايلنر لا شيء كان مجرداً، لا وجود لما لا يمكنه شخصياً أن يستحضره أو يرسمه بالألوان في مخيلته. كان يسقط من اهتمامه المواضيع التي لا تنفع فيها أساليبه. وكانت

الرياضيات بالنسبة إليه أبا هول مشحوناً بأحاجي غادرة تفتن ضحاياها بنظراتها الباردة والشريرة، وكان هو يتجنبه.

لقد كانت العلاقة بين الصديقين غريبة. فبالنسبة إلى هايلنر كانت الصداقة متعة، رفاهية، راحة أو مزاجاً، أما بالنسبة إلى هانز فتارة تكون كنزاً مصاناً بفخر، وتارة أخرى عبئاً ساحقاً. وكان هانز حتى ذلك الحين دائماً يستغل فترة المساء للدرس. أما الآن فأصبح هرمن يأتي يومياً بلا انقطاع لزيارته بعد أن يملّ كدّ النهار، فينتزع الكتاب من بين يديه ويحتكره احتكاراً تاماً. وأخيراً بدأ هانز في كل مساء يرتجف قبيل وصول هرمن، فقد أصبح صديقه عزيزاً جداً عليه، وكان يجاهد بحماس وسرعة مضاعفين أثناء فترة استعداده الإجبارية لاستقباله لكي لا يتراجع في دراسته. وأشد ما كان يكربه هجوم هايلنر على حماسه للعمل بالحجة العقلانية: « إنه مجرد أثر أدبي، أنت تعتقد أنك تقوم بعملك بملء حريتك وطوعاً، ولكن الحقيقة أنك تؤديه بدافع الخوف من أساتذتك أو من أبيك. ماذا يفيدك إن جاء ترتيبك الأول أو الثاني؟ إن ترتيبي هو العشرون لكني لا أزيد غباء عنك أيها المنقّب عن العلامات ».

أصيب هانز أيضاً بالرعب عندما لاحظ أول مرة كيف كان هايلنر يعامل كتبه المدرسية. وفي إحدى المناسبات كان قد ترك كتبه في قاعة المحاضرات ثم أراد أن يحضّر لدرس الجغرافيا التالي فاستعار أطلس هايلنر. وشعر بالاشمئزاز إذ وجد هذا الأخير قد غطى صفحات كاملة بخربشات بالقلم الرصاص. كان الشاطئ الغربي لشبه الجزيرة الأسبانية قد شوّه فأصبح رسماً جانبياً لوجه غريب الشكل، الأنف الذي امتد فيه من أويورتو إلى لشبونة، ومنطقة رأس فينيستيره قد جُعِلت على شكل شعر مستعار جعد، بينما شكّل رأس سان فينسنت ذؤابة لحية رجل

twitter @baghdad_library

مفتولة بشكل جميل. واستمر الوضع هكذا صفحة بعد صفحة، رسوم كاريكاتيرية على خلفيات الخرائط وأبيات شعرية مضحكة ومهينة خُطَّت وتغطت بالبقع. وكان هانز متعوداً أن يعامل كتبه كممتلكات مقدسة، وقد بدت له قلة الاحترام هذه جزئياً بمثابة تدنيس لقدس الأقداس، وجزئياً عملاً إجرامياً ولكن بطولي.

بعبارة أخرى، إن غيبنرات القدوة لم يكن في الواقع إلا دمية محببة إلى صديقه، أشبه بقطة منزلية، وهانز نفسه كان يشعر أحياناً أن الحال هو كذلك. غير أن هايلنر تمسّك به لأنه كان بحاجة إليه. كان لا بد له أن يحتفظ بشخص ما، شخص واثق من نفسه، بمثابة جمهور له، ليعبر له عن إعجابه. كان بحاجة إلى من ينصت إليه بهدوء ولهفة عندما يشن هجوماً نارياً على الكلية وعلى الحياة عموماً. وكان أيضاً بحاجة إلى من يواسيه، من يضع رأسه على حجره في أوقات كآبته. وكان الشاعر، ككل من يحمل طبيعته، يعاني من نوبات كآبة مبهمة ونوعاً ما عقيمة تكمن علتها من ناحية في تخلّيه عن الأشياء الصبيانية، والأشواق والرغبات المبهمة، ومن ناحية أخرى، في النمو الغامض نحو الرجولة. وكان عنده أيضاً توق مرضي إلى التعاطف والحب. وفي وقت مبكر من حياته كان أثير أمه أما الآن، ولا زال غير مهيأ لحب الفتيات، كان صديقه المجامل يلعب دور المواسي.

كان كثيراً ما يأتي إلى هانز في المساء، وهو غاية في الانقباض وينتزع العمل منه ويجبره على مصاحبته إلى المهجع. وهناك في الغرفة الباردة والمصلَّى الشامخ كانا يسيران جيئة وذهاباً عند الغسق أو يجلسان وهما يرتجفان في كوّة النافذة. في مثل تلك المناسبات كان هايلنر ينبح بكل صنوف الشكوى على

طريقة الشبان الرومانسيين المدلهين بشعر هاينه، وبدا كأنه مغمور بسحب من حزن صبياني لم يفهمه هانز تماماً، على الرغم من أنه ترك أثره فيه وأحياناً أصيب به. لقد كان هايلنر، المفكر، الحساس، عرضة خاصة لمثل هذه الحالات النفسية في الطقس الغائم ويصل أنينه وشكواه إلى ذروتهما في أوقات المساء عندما تحجب سُحب أواخر الخريف المطرة السماء ويهرع القمر في سيره خلفها، محدقاً من خلال الحجاب وشقوق السحب. ثم ينغمس في هذا المزاج الأوسياني[1] الذي وجد تعبيراً عنه في الآهات، والخطب والقصائد التي كان يصبها على مسامع هانز البريء.

بعد معاناته بفعل هذه المشاهد المحزنة، كان هانز يغوص خلال الساعات المتبقية في الدرس الذي أخذ يجد باطراد صعوبة في أدائه. ولم يعد يدهش لتكرار إصابته بالصداع، لكنه كان ييأس كثيراً، إذ يجد أنه يقضي ساعات مضجرة وعقيمة هكذا ومن ثم يضطر بعدها إلى إجبار نفسه على التعويض عن العمل الضروري. والحقيقة هي إنه كان ينتابه إحساس غامض بأن صداقته لصديقه الغريب الأطوار كانت تستنزفه وتدمّر جزءاً من كيانه. كان في السابق سليماً، ولكن كلما كان صديقه يزداد كآبة، ازداد اضطراب شعوره وازداد في الوقت نفسه تأثره وافتخاره بكونه لا غنى عنه لصديقه.

في الوقت نفسه أدرك أن هذه الكآبة المَرَضية لم تكن إلا تعبيراً عن غريزة مُغالية وغير صحية وليست من صلب شخصية هايلنر التي كان يضمر لها إعجاباً حقيقياً وصادقاً. وعندما كان

---

[1] أوسياني: نسبة إلى شاعر أسطوري غالي يدعى أوسيان من القرن الثالث الميلادي. ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

صديقه يتلو على مسامعه قصائده، أو يناقش أفكاره الشعرية أو يقرأ مناجاتٍ ذاتية من أعمال لشيللر وشيكسبير بشغف وبإيماءات مفخّمة، كان هانز يشعر وكأن صديقه، وبفضل قوة سحرية ما يفتقر هو إليها، يطفو في الهواء، ويحوم بحرية وشغف ناري جديرين بإله، ويحلق فوقه وفوق أمثاله بصندل مجنحٍ كرسول هوميري. وحتى ذلك الحين كان عالم الشعراء مجهولاً لديه وبدا له غير جدير بالاهتمام. أما الآن فقد بات يدرك الطاقة الغرّارة للكلمات ذات الرنين الجميل، والتصوير المخادع والقوافي المهدهدة، وتزايد احترامه لهذا العالم الذي تكشّف له حديثاً، مع تزايد إعجابه بصديقه ليغدو شعوراً من طرف واحد.

*

في تلك الأثناء حلت أيام شهر تشرين الثاني المضطربة، القاتمة، في الوقت الذي بات من غير الممكن تقريباً أن يدرس المرء بدون أن يستعين بضوء المصابيح على مدى بضع ساعات من النهار، وحلت ليال حالكة الظلمة أرسلت خلالها العواصف جبالاً عظيمة هادرة من الغيوم فوق التلال المحجوبة، وأخذت تضرب، وهي تئن وتعول، جنبات أسوار بناء الدير الضخم والعريق. في ذلك الوقت كانت الأشجار قد نفضت عنها أوراقها كلها، وحدها أشجار السنديان الضخمة الكثيرة العقد، ملوك تلك الفيافي الحسنة التشجير، بقيت تخشخش بقممها الجافة بصوت أعلى وأكثر ثقة مما يصدر عن بقية الأشجار. كان هايلنر في حالة نفسية مزرية جداً وكان مؤخراً قد تعود على العزف على كمانه وحده في غرفة التمرن القصية أو التشاجر مع رفاقه بدل أن يجلس مع هانز.

ذات مساء عندما لجأ إلى غرفة الموسيقى وجد المتحمس لوسيوس منهمكاً بالتمرن أمام حامل نوتة الموسيقى. فترك

المكان وهو غاضب وعاد بعد مضي نصف ساعة، فإذا بهذا الأخير ما زال موجوداً.

قال هايلنر شاتماً: « عليك أن تكف الآن. هناك آخرون يريدون أيضاً أن يتمرنوا. على أية حال إن عزفك المزعج يشكل تهديداً ».

رفض لوسيوس أن يترك مكانه، هنا ساء خلق هايلنر وعندما استأنف الآخر عزفه المزعج، سدَّد رفسة إلى حامل موسيقاه فتناثرت الأوراق على الأرض وخبط الحامل العازفَ على وجهه. وانحنى لوسيوس ليسترد نوتات الموسيقى.

قال بحزم: « سوف أقدم تقريراً بهذا إلى المدير».

صرخ هايلنر في فورة غضب: « رائع، ويمكنك أيضاً أن تبلغه مجاناً أني رفستك أنت ». وهمَّ بترجمة كلامه إلى عمل.

قفز لوسيوس متنحياً جانباً ووصل إلى الباب. سعى مطارده خلفه وتبع ذلك هجوم ضاج وعنيف جرى بين الأروقة والغرف، على الدرج وعبر المنبسطات ووصلا حتى أقصى جناح في المؤسسة حيث يقوم منزل المدير في أبهة متوحدة. لحق هايلنر الهارب أمام باب غرفة مكتب المدير، وبعد ما كان هذا الأخير قد قرع الباب ووقف في المدخل المفتوح تلقى الرفسة الموعودة في اللحظة الأخيرة فاندفع كالقنبلة إلى داخل حرم المدير وقد أصيب بذعر شديد حتى أنه نسي أن يغلق الباب وراءه.

لقد كانت حادثة مشينة. وفي صباح اليوم التالي ألقى المدير محاضرة مستفيضة حول انحلال الشباب وأنصت لوسيوس باستحسان وانتباه وسمع هايلنر الحكم الصادر في حقه يُقرأ على الملأ ويقضي باحتجازه فترة طويلة. ودمدم المدير قائلاً: « إن هذا العقاب القاسي يطبق منذ سنوات طوال. وسوف أعمل على أن تتذكروه بعد عشر سنين من الآن. إنني أعرض عليكم هايلنر بوصفه قدوة سيئة ».

twitter @baghdad_library

استرقت الكلية برمتها نظرةً مذعورة إليه، وهو يقف هناك شاحب الوجه وغير هيّاب ويواجه تحديق المدير إليه، لا يرف له جفن. كان عدد كبير من الصبية معجبون به سراً، غير أنهم في نهاية الدرس، وبعدما احتشدوا مثيرين الضجيج في الأروقة تركوه وحده، وتجنبوه كمجذوم. الآن أصبح الوقوف معه يتطلب شجاعة.

حتى هانز غيبنرات لم يفعل ذلك. لقد شعر أن عليه أن يفعل، وقد آلمه جبنه. وحشر نفسه في فتحة النافذة يسربله إحساس بالبؤس والخجل من النفس، لا يقوى على رفع عينيه. وشعر برغبة في أن يبحث عن صديقه، وكان مستعداً لإعطاء أي شيء مقابل أن يفعل ذلك دون أن يراه أحد. لكن مَن يتلقى عقوبة احتجاز فترة طويلة يوصم بالعار. إن الآخرين كلهم باتوا يعرفون أنه من الآن فصاعداً سيكون المعاقَب خاضعاً لمراقبة لصيقة وأنه من الخطر ومما يجلب السمعة السيئة أن يتم التعامل معه. لا شك في أن الفوائد التي يتلقاها التلاميذ من الدولة ثمنها انضباط صارم لا يعرف الرحمة. وقد تمت الإشارة إلى هذه النقطة للتو في الخطاب الافتتاحي الشهير. لقد كان هانز مدركاً لهذا وقد استسلم في هذا الصراع القائم بين ولائه لصديقه ورغبته في أن يكتسب سمعة طيبة. إن طموحه في الوقت الراهن كان أن يحث خطاه قدماً وأن يحصّل نتائج امتحان مبهرة، وأن يكون له دور، ليس رومانسياً أو محفوفاً بالمخاطر في المؤسسة. وهكذا ظل رابضاً في زاويته. كان ما يزال في استطاعته أن يتقدم ويظهر شجاعته لكن الأمر كان في كل لحظة يزداد صعوبة، وسرعان ما أضحت خيانته حقيقة واقعة.

لم يَفُتْ على هايلنر أن يلاحظ ذلك. لقد عرف الفتى العاطفي أنه قد نُبذ وتفهم الأمر لكنه كان يعتمد على هانز. إن

مشاعر التأذي التي لم يكن في السابق لها أي أساس بدت الآن عقيمة وغريبة الأطوار مقارنة مع ما انتابه عندئذ من مشاعر الحزن والاشمئزاز. وقد وقف برهة بالقرب من غيبنرات وبدا شاحباً ومتكبراً، وقال بصوت منخفض: « ما أنت يا غيبنرات غير جبان حقير، أي والله أنت كذلك! »، ومشى مبتعداً، وهو يصفّر صفيراً خافتاً ويداه محشورتان في جيبيّ بنطاله.

لقد كان من الممتع أن تتوفر أمور أخرى واهتمامات تلفت انتباه الأولاد. فبعد هذه الحادثة ببضعة أيام سقط الثلج بشكل مفاجئ، تبعه طقس شتائي مصقع وصاف، وبات في إمكانهم أن يلعبوا بكرات الثلج، وأن يمارسوا التزلج وأدركوا جميعاً أن عيد الميلاد وفترة الأعياد أضحت على الأبواب ولم يكفوا عنْ الحديث عن ذلك، وقلّ انتباههم لوجود هايلنر. كان يتنقل بهدوء وتحدّ ورأسه شامخ عالياً وعلى وجهه سيماء الكبرياء. ولم يكن يتحدث إلى أحد. وكان يدوّن الشعر في دفتر التمارين ذات الغلاف المشمع الأسود اللون، ويحمل عنوان "أغاني الراهب". كان الصقيع والثلج المتجمد يتدليان بأشكال رائعة، مرهفة، من أغصان أشجار السنديان، وجار الماء والصفصاف. وكان الجليد يتكسر على سطوح البحيرات المتجمدة. وبدا فناء الدير أشبه بحديقة من الرخام الأخرس. وكانت إثارة احتفالية بهيجة تسري في قاعات الدرس كلها، وأشاعت بشائر عيد الميلاد حرارة التسامح والمرح حتى في الأستاذين الرصينين الجامدي الشعور. لا أحد، أستاذاً كان أم تلميذاً، أبدى لامبالاة بعيد الميلاد. حتى هايلنر بدأ يبدو أقل تألماً وتجهماً وأخذ لوسيوس ينتقي الكتب والحذاء التي سيأخذها معه أثناء تمضية فترة العطلة. وبدأت تظهر بنود مبشرة سارة في رسائل تصل من الوطن: أسئلة عن

twitter @baghdad_library

الأمنيات المفضلة، وتقارير عن أيام الخبز، وإشارات إلى مفاجآت تالية واجتماعات عائلية مبهجة.

عرفت الكلية ونزلاء قاعة هيلاس خاصة قليلاً من الترفيه قبل الانطلاق في رحلات العودة إلى الوطن. وتقرّر دعوة أعضاء هيئة التدريس على احتفال ليلة عيد الميلاد الذي كان سيقام في قاعة هيلاس، أكبر القاعات. وأُعدّ خطاب ترحيب وفقرتا تسميع من الطلاب، وعزف ثنائي على آلتي الناي والكمان. واستلزم الأمر فقرة مرحة لإكمال البرنامج. فأخذ الفتية يتدبرون الأمر، وقدموا عروضاً ورفضوا أخرى. ولم يصلوا إلى أي اتفاق. ثم اقترح كارل هامل أن أفضل ما يمكن تقديمه لإشاعة المرح هو دفع إميل لوسيوس إلى العزف المنفرد على الكمان. وحظيت الفكرة بالقبول. وبعد تقديم الطلبات والوعود والتهديدات وافق الموسيقي البائس. وهكذا أدرجت على البرنامج الذي أرسل إلى هيئة التدريس مع دعوة مهذبة فقرة عزف على الكمان، وسمّيت فقرة خاصة تحت عنوان "ليلة هادئة"، يؤديها إميل لوسيوس، عازف إفرادي لموسيقى "الحجرة". وقد عزا اختياره إلى تدرّبه المواظب في غرفة الموسيقى القصية.

دُعي المدير، والأساتذة والمشرفون وأستاذ الموسيقى والمراقب وظهروا في الحفل في الوقت المحدد بالضبط. تخضل أستاذ الموسيقى بالعرق عندما دخل لوسيوس، مصقولاً ونظيفاً ولا تشوبه شائبة في بزة سوداء استعارها من هارتنر وهو يرسم ابتسامة التواضع على وجهه. حتى الانحناءة التي قام بها كانت بمثابة دعوة إلى الضحك. وتحولت معزوفة "ليلة هادئة" تحت أصابعه إلى لحن جنائزي كئيب، فقد بدأ بداية مغلوطة وأخذ يعذّب اللحن ويغتاله، ويوقّع الإيقاع بقدمه ويشن عليه هجوماً بكل حيويةِ رجلٍ يقطّع الأشجار في طقس مصقع.

أرسل المدير إلى أستاذ الموسيقى الذي كان لونه قد شحب من فرط سخطه إشارة معينة.

بعد أن قام بمحاولته الثالثة للبدء وفشل للمرة الثالثة في ذلك، أخفض كمانه، والتفت إلى جمهوره وقال معتذراً: « لا فائدة ولكني لم أبدأ بتعلم العزف على آلة الكمان إلا منذ الخريف الفائت ».

هتف المدير: « لابأس، لوسيوس. إننا نقدر ما بذلته من جهود. يكفي هذا. Per aspera ad astra ».

في الرابع والعشرين من شهر كانون الأول، وبدءاً من الثالثة صباحاً فصاعداً سادت ضجة وحركة نشطة في المهاجع كافة. وتكوَّن الصقيع بطبقات سميكة بأشكال زخرفية على زجاج النوافذ. وتجمدت مياه الغسل، وهبت على الدير رياح حادة البرودة، لم تؤثر في الفتية. وكانت أوعية القهوة الكبيرة تطلق أبخرتها في القاعة الوسطى وبعد ذلك بقليل كانت مجموعات قاتمة من التلاميذ ملفعة بالمعاطف والأوشحة، تشق طريقها إلى محطة القطار البعيدة، عبر حقول بيضاء تتوهج بخفوت، وتخترق الغابة التي يرين عليها الصمت. كانوا جميعاً منخرطين في تجاذب أطراف الأحاديث يطلقون النكات والضحكات العالية، وكل واحد منهم كان في داخله منهمكاً في رغباته الخاصة، ومسراته وآماله. كانوا يعلمون أن آباءهم وأخوتهم ينتظرونهم في الغرف الدافئة، بزينتها الاحتفالية، هناك بعيداً في أرض الوطن، في المدن، والقرى، والمزارع المنعزلة. وكانت تلك هي المرة الأولى بالنسبة لغالبيتهم التي يسافرون فيها إلى الوطن، من مكان بعيد. وكان معظمهم يعلم أن وصولهم يُنتَظر بحب وفخر.

انتظروا وصول القطار في المحطة الصغيرة وسط الغابة المغطاة بالثلوج، ولم يحدث من قبل أن كانوا هكذا متسامحين فيما بينهم ومرحين ومتحدين. وعندما دخل القطار المحطة ظل

twitter @baghdad_library

هايلنر وحده صامتاً منعزلاً، وانتظر حتى صعد رفاقه كلهم وبعد ذلك لجأ هو إلى مقصورة أخرى لا تضم غيره، وقد رآه هانز مرة ثانية عندما بدلوا القطار في المحطة التالية، لكن مشاعر الخجل والندم كانت قد تلاشت في غمرة الفرح وإثارة رحلة العودة إلى الوطن.

وجد والده في المنزل مبتسماً باعتداد بالنفس، وكانت طاولة عامرة بفيض من الهدايا بانتظاره. لم يكن يقام في منزل غيبنراث أي احتفال حقيقي بعيد الميلاد. فلا أناشيد ميلادية ولا أي مظاهر احتفالية، ولا أم ولا شجرة ميلاد. لم يكن هر غيبنراث يفهم فن الاحتفال في أيام العطل. غير أنه كان فخوراً بابنه ولم يبخل في هذه المناسبة بالهدايا. ولما لم يكن هانز متعوداً على خلاف ذلك، فإنه لم يفتقد أي شيء.

رأى الجميع أن لونه لا يدل على تمام الصحة، وأنه شديد شحوب الوجه والنحول وأن ما يقدَّم لهم من طعام غير كاف. لكنه أنكر ذلك بحزم وأكد أنه على أحسن ما يرام فيما عدا ما ينتابه من نوبات صداع. لكن القس واساه في هذه النقطة، فهو، أيضاً، عانى في أيام فتوته من نوبات الصداع. وهكذا وُضِع كل شيء في نصابه.

كان النهر متجمداً بطبقة قاسية ملساء والناس يحتشدون فوقه يتزلجون خلال فترة العطلة. وكان هانز يقضي معظم وقته هناك، مرتدياً بذلة جديدة ويعتمر قبعة الكلية اللاهوتية؛ لقد ترك وراءه زملاءه في المدرسة وشعر أنه قد نُقل إلى عالم أرقى يُحسد عليه.

twitter @baghdad_library

4

كان يحدث عادة أن تفقد الكلية واحداً أو أكثر من أعضائها خلال فترة وجودهم هناك، التي تبلغ أربع سنوات، فأحياناً يموت صبي ويدفن على ترنيم التراتيل أو ينقل جثمانه إلى موطنه مصحوباً بموكب جنائزي من الأصدقاء. وأحياناً يهرب صبي أو يُطرد بسبب ارتكابه عملاً مشيناً. وفي مناسبات نادرة - حتى عندئذ تقتصر التجربة على الصفوف العليا - يجد صبي يائس حلاً سريعاً لمشاكله المراهقة بإطلاق النار على نفسه أو بالقفز إلى أعماق النهر.

وقد قدّر للكلية أن تفقد بعض الصبية من صف هانز غيبنرات والمصادفة الغريبة أنهم جميعاً كانوا من قاعة هيلاس.

من بين هؤلاء صبي أشقر الشعر متواضع، اسمه هندنغر، ويُكنّى بالـ "هندوسي"، وهو ابن خياط من الجزء البروتستانتي من منطقة الألغاو السوابية. وكان الهندوسي مواطناً مسالماً وكان غيابه من وسطهم هو السبب الوحيد الذي جعل منه - وإن بشكل محدود - موضوع أحاديثهم. ولما كان يشترك في مقعد الدراسة مع عازف "موسيقى الغرفة" الإفرادي، لوسيوس، فإنه، دون البقية، وبأسلوبه الحيي المحبب كان أكثر اتصالاً قليلاً معه، ولكن فيما عدا لوسيوس، لم يكن لديه أصدقاء. ولم يلاحظ أعضاء قاعة

هيلاس أنهم كانوا يجدون جاراً طيباً، قليل المطالب، وذا تأثير مهدِّئ وسط حياة قاعة الدرس الصاخبة غالباً، إلا بعد أن فقدوه.

ذات يوم من شهر كانون الثاني كان قد انضم إلى مجموعة من المتزلجين خرجوا إلى بحيرة "الحصان". ولم يكن يملك مزلجة لكنه كان متلهفاً للتفرج على الآخرين. لكنه سرعان ما شعر بالبرد الشديد وأخذ يهرول على الضفة طلباً للدفء. وبينما كان يفعل ذلك أخذ يزيد من سرعته وقد تاه عن طريقه أثناء عبوره الحقول وصادف بحيرة صغيرة أخرى كان تجمُّدها رقيقاً بسبب الينابيع الأقوى والأكثر دفئاً التي تغذيها. وانطلق هندنغر يسير فوق القصب المتجمد. لكن القصب كان صغيراً وخفيفاً فغاص داخل الجليد المحيط بالضفة، وكافح وصرخ طالباً النجدة فترة قصيرة، ومن ثم غاب من جديد تحت البرودة السوداء، دون أن يراه أحد.

لم يلاحظ أحد غيابه حتى الساعة الثانية عندما بدأ درس بعد الظهر الأول.

هتف الأستاذ الشاب: « أين هندنغر؟ ».

لم يجب أحد.

« ابحثوا في أرجاء قاعة هيلاس! ».

لكنهم لم يعثروا له على أثر.

« لا بد أنه تأخر. فلنبدأ بدونه. انظروا، نحن في الصفحة رقم 74، البيت السابع. آمل أن لا يتكرر مثل هذا الأمر ثانية. يجب أن تكونوا دقيقين في مواعيدكم ».

عندما دقت الساعة الثالثة وظل هندنغر مفقوداً توترت أعصاب الأستاذ وأرسل في طلب المدير، فحضر ذاك الرجل المهيب بنفسه إلى غرفة الصف، وباشر عملية بحث مكثفة، وأرسل فريق بحث من عشرة من الصبية وتحت إشراف المراقب والأستاذ الشاب. أما بقية أفراد الصف فأُعطوا تمريناً ليؤدوه.

twitter @baghdad_library

عند الساعة الرابعة عاد الأستاذ إلى غرفة الصف، بدون أن يقرع الباب وهمس بشيء للمدير.

أمرهم المدير: « صمتاً! »، فلزم الصبية مقاعدهم لا يأتون بأي حركة وهم ينظرون إليه مترقبين.

ثم أردف قائلاً بنبرة صوت هادئة: « يبدو أن زميلكم هندنغر قد غرق في إحدى البحيرات. يجب أن تنضموا إلينا لكي تساعدونا في العثور عليه. سوف يقود الأستاذ الهر ماير المجموعة؛ وعليكم أن ترضخوا لتوجيهاته. ولا تفعلوا أي شيء من تلقاء أنفسكم ».

انطلقوا، يلفهم الخوف ويتهامسون فيما بينهم، يتقدمهم الأستاذ. وانضمت إلى الموكب المستعجل حفنة من الرجال من البلدة، يحملون حبالاً، وألواحاً خشبية وقضباناً. كان البرد قارساً والشمس قد انحدرت إلى ما وراء أفق الغابة.

عندما عثروا أخيراً على جثة الصبي الصغير، المتيبس، ومدَّدوه على قطعة من سياج وسط نبات الأسل المغطى بالثلج، كانت عتمة الغسق قد حلكت. تحلق الفتية الخائفون، كعصافير خجلى، يحدقون إلى الجثة ويدلّكون أصابعهم المتجمدة المزرقَّة. وعندما حُمِل رفيقهم الغريق أمامهم وتبعوه بصمت فوق حقول الثلج، عندئذ فقط سرت رعشة مفاجئة في قلوبهم المصقعة، وشموا رائحة الموت كما يشم غزال رائحة عدوه.

تصادف أن كان هانز غيبنراث يسير إلى جوار صديقه السابق، هايلنر، ضمن المجموعة الحزينة المتجمدة من الصقيع. وفي اللحظة ذاتها وعيا معاً وهما يتعثران في سيرهما على الأرض الوعرة في العراء تقاربهما. لعل مشهد الموت استبد به وأقنعه برهة بعقم طموحه كله، ولسبب ما، وجد هانز فجأة وجه صديقه الشاحب شديد القرب منه، شعر بحزن عميق، مبهم. وفي فورة

عاطفية قبض بتردد على يد هايلنر. لكن هايلنر سحب يده بغضب، وأطلق شرارَ نظرةٍ جانبيةٍ، تنمُّ عن شعور بالإهانة إلى هانز، ثم التمس مكاناً آخر في الموكب، واختفى في المؤخرة.

خفق قلب هانز الفتى النموذجي حزناً من نفسه ولم يقو على التحكم في انهمار دموعه على وجنتيه الزرقاوين بتأثير الصقيع وهو يتعثر في خطوه على الحقول المتجمدة. لقد بات يدرك الآن أن هناك خطايا وأشياء مغفلة لا يمكن نسيانها أو غفرانها، وشعر أن ما يحملونه على أكتافهم ليس ابن الخياط المدد في النعش وإنما صديقه هايلنر، وأنه يحمل معه حزنه، وغضبه من خيانته له إلى عالم آخر لا يقيِّم فيه الناس بالشهادات التي يحملون والامتحانات التي يؤدون والنجاحات التي يحققون بل وفقاً لمدى نقاء ضميرهم أو فساده.

في تلك الأثناء وصل الموكب إلى الطريق الرئيسية وسرعان ما وصلوا إلى الكلية حيث كان الأساتذة كلهم، وعلى رأسهم المدير، بالانتظار ليتسلموا جثة هندنغر الذي كان خلال فترة حياته جديراً بأن يهرب بعيداً ليتجنب مثل هذا الشرف. إن الأساتذة ينظرون إلى تلميذ ميت بشكل مختلف عن نظرتهم إلى آخر حي، فهم مقتنعون، حالياً، بقيمة وفرادة حياة كل إنسان في عهدتهم، وكل فترة شباب أثموا في حقها في أحيان أخرى بلا مبالاة تامة.

لكن في ذاك المساء وطوال نهار اليوم التالي كان لحضور الجثة الهشة فعل السحر، بعد أن خمدت فيها الحياة وتلاشى كل نشاطها وحديثها بحيث بدا لفترة وجيزة أن كل تشاحن وغضب، وضجيج وضحك قد اختفى كاختفاء عفاريت الماء الفوري عن سطح المياه وتركه هادئاً وكأنه غير مسكون. وكان كلما تحدث إثنان عن الفتى الغارق ذكروه باسمه الكامل، لأن

twitter @baghdad_library

لقب الهندوسي لم يعد الآن لائقاً كفاية بعد أن مات الفتى، والهندوسي الهادئ الذي كان نزّاعاً إلى أن يبقى مدموجاً مغموراً ضمن المجموعة أصبح اسمه الآن وحضوره الميت يملآن المؤسسة.

حضر الهر هندنغر في اليوم التالي، ومكث بضع ساعات وحده في الغرفة الصغيرة التي يُسجَّى فيها ابنه، ثم دُعي لتناول الشاي مع المدير وأمضى ليلته في نُزل شتاغ.

ثم كانت الجنازة. وُضع التابوت في المهجع ووقف الخياط القادم من الألفاو السوابية بجواره، وهو يحدق إليهم جميعاً. وكان خياطاً نموذجياً، شديد النحول، وبارز العظام، ويرتدي معطف فروك أسود. أصبح الآن أخضر اللون بفعل الزمن، وضيقاً، وبنطالاً فُصِّل ببخل. وكان يحمل في يده قبعة عتيقة الطراز يحتفظ بها للمناسبات الاحتفالية. بدا وجهه الضيق، النحيل، حزيناً، مكروباً وهشاً كمصباح الرسو في سفينة وسط عاصفة، وكان واقفاً هناك في حالة دائمة من الارتباك والخوف في حضور المدير وبقية أفراد هيئة التدريس.

في الدقيقة الأخيرة وقبل أن يرفعوا التابوت، تقدم هذا الرجل النحيل الحزين مرة أخرى ولمس غطاء التابوت برقة خجلى وحائرة. كان يقف عاجزاً، يجهد كي يحبس دموعه وسط الغرفة الشاسعة، التي شملها الصمت، كشجرة ذاوية في الشتاء، وحيدة وبائسة حتى لا يقوى المرء على النظر إلى ضحية الظروف تلك. أمسك به القس من يده ووقف إلى جانبه، ثم اعتمر قبعته القاسية، الشديدة الضخامة، وقاد موكب الجنازة على طريق هبوط الدرج، عبر حديقة الدير، وخلال البوابة العتيقة ثم على الأرض المبيّضة باتجاه سور المقبرة الواطئ. وأثناء إنشاد الترتيل بجوار القبر لم يكن الفتيان يراقبون توقيع أستاذ الموسيقى الذي كان يقود فرقة الإنشاد بيده، مما أثار انزعاجه، بدل ذلك راحوا

يحدقون إلى التكوين المتقلقل للخياط القميء الذي كان واقفاً، مصقعاً، ومكتئباً، ينصت مطأطأ الرأس إلى خطب القس، فالمدير، ومن ثم الفتى الأول، وهو يومئ برأسه بشرود لإنشاد التلاميذ، ويتجسس بين حين وآخر جيب معطفه بيده، بحثاً عن منديل، كان قد دسه في جيب معطفه بدون أن ينجح.

في وقت لاحق قال أوتو هارتنر: «لم يسعني إلا أن أتخيل الموقف لو أن والدي هو الواقف هناك»، فوافقه بقية الفتية قائلين: «وهذا ما تخيلته أنا أيضاً».

لاحقاً أحضر المدير والد هندنغر إلى قاعة هيلاس. وسأل المدير تلاميذ القاعة: «هل بينكم من كان صديقاً مقرباً من المتوفى؟». في أول الأمر لم يدل أحد التلاميذ بجواب، وأخذ والد الهندوسي ينظر في الوجوه الفتية، مفعماً بالألم والتوتر. ثم تقدم لوسيوس فأمسك هندنغر يده وشد عليها بقوة بعض الوقت. لكنه لم يدر ماذا يقول وترك الغرفة بعد ذلك مباشرة، وهو يهز رأسه تواضعاً، ثم انطلق في رحلة يوم طويل عليه أن يقوم بها في فيافي شتائية صافية قبل أن يصل إلى موطنه ويصف لزوجته البقعة الصغيرة التي دفن فيها صغيرهما كارل.

كُسر الجو المخيِّم على الكلية، وعاد الأساتذة يتذمرون من الأولاد ولم يعد أحد يفكر في الصبي الذي غادر قاعة هيلاس إلى الأبد. وأصيب بعض منهم بالبرد بعد أن أطالوا التسكع حول البحيرة الكئيبة، ولزموا فراش المرض أو اكتفوا بالتجول ركضاً وهم ينتعلون خفاً من اللباد، وقد لُفِّعت أعناقهم بالأوشحة. إلا أن هانز لم يكن مصاباً في قدميه أو في عنقه لكن قسمات وجهه جعلته يبدو أكبر سناً وأشد جدية منذ ذاك اليوم المشؤوم. لقد تغير، أصبح الفتى شاباً، وروحه أيضاً انتقلت إلى عالم آخر

twitter @baghdad_library

لترفرف فيه بخوف قلق لا يعرف له مستقراً. ولم يكن ذلك نتيجة إحساسه بالذنب والحزن على الهندوسي الفاضل، وإنما نتيجة إحساسه بالذنب تجاه هايلنر الذي انتعش فجأة.

هذا الأخير كان في غرفة المرضى مع صبيين آخرين، كان عليه أن يبتلع شاياً ساخناً وكانت أمامه فرصة سانحة لتنسيق انطباعاته حول موت هندنغر ربما بغية استخدامها مستقبلاً في شعره. غير أنه لم يبد أية رغبة في فعل ذلك. لقد بدا أشد بؤساً ومرضاً من أي وقت مضى، ولم يكن يتبادل أي كلمة مع رفيقيه المريضين. لقد كانت فترة عزلته الإجبارية التي فُرضت عليه بعد تلقيه عقوبة الحجز قد جرحت مزاجه الحساس وأصابته بالمرارة، وكان في أمس الحاجة إلى التفهم المتعاطف. وكان المدرسون يعتبرون بصرامة أنه ولد ساخط ومتمرد، وتجنبه بقية الأولاد. وعامله الموجه بود ساخر، لكن ذوي الأرواح الشقيقة لروحه، مثل شيكسبير وشيللر ولينـاو Lenau كشفوا أمامه عالماً أكثر نبلاً وعظمة من عالم الكتب والاحباط الذي كان يكتنفه من كل جانب في ذلك الوقت. وديوانه "أغاني الراهب" الذي كان قد كُتب في جو من العزلة الكئيب تحول بالتدريج إلى مجموعة قصائد هجائية، ساخرة وقاسية حول الكلية، والأساتذة والتلاميذ. لقد وجد في عزلته إشباعاً لنزعة الشهيد، مستمتعاً بكونه مُساء فهمه وكان يرى نفسه جوفينال[1] صغيراً من خلال قصائد الراهب الساخرة اللاسعة.

بعد الجنازة بنحو أسبوع وبعد أن شفي زميلاه، وبقي هايلنر ملازماً سريره في غرفة المرضى، قام هانز بعيادته. حياه بحياء، وجر كرسياً قربه من السرير، ثم جلس، ومدّ يده للفتى

---

[1] جوفينال (60؟ ـ 140؟ م): شاعر روماني ساخر. ـ المترجم.

المريض فتحول هذا نحو الجدار مبدياً صداً كاملاً. لكن هانز رفض أن يُصَدّ وقبض على يد الآخر بقوة وأجبر صديقه السابق على أن ينظر إليه. فرسم هذا الأخير تعبير استياء على وجهه.

« والآن ماذا تريد؟ ».

لم يحرر هانز يده.

قال: « يجب أن تنصت إلى ما سأقول. لقد كنت جباناً عندما تخليت عنك. لكنك كنت تعرف كيف كان حالي، كنت مصمماً على أن أكون من بين الأوائل في الكلية والأول إذا أمكنني. أنت تسمي ذلك نبش العلاقات، وهذا الوصف صحيح في حالتي، لكنه كان مثلي الأعلى الذي وضعته نصب عيني في ذلك الوقت، لم أكن أعرف ما هو أفضل منه ».

كان هايلنر قد أغمض عينيه وتابع هانز بهدوء: « في الواقع إني مضطرب. لا أدري إن كنت ستعود صديقاً لي، لكني على الأقل يجب أن أحظى بغفرانك ».

ظل هانز صامتاً ولم يفتح عينيه. ابتهجت الجوانب الطيبة والمتفائلة في شخصيته لكنه كان قد تعود على اتخاذ دور الروح المنعزلة، المتصلبة. على أي حال لقد كان ذلك قناعاً يضعه في بعض المناسبات، لكن هانز لم يكن ليقبل بالصد.

« لا بد أن تغفر لي يا هايلنر! إنني أفضل أن أقع صريعاً في أرض غرفة الصف على أن أظل أهرول وراءك هكذا. إذا شئت نعود أصدقاء ونبين للآخرين أننا لسنا بحاجة إليهم ».

هنا شد هايلنر بدوره على يده وفتح عينيه.

بعد ذلك بعدة أيام استعاد عافيته وغادر غرفة المرضى. وقد أشاعت هذه الصداقة المتجددة إثارة عارمة في الكلية. وتلا ذلك أسابيع رائعة لكليهما، وعلى الرغم من أن حدثاً معيناً لم يحصل، إلا أن الولدين كانا يفيضان بشعور سعيد بشكل غريب بالتناغم

twitter @baghdad_library

وبالتفاهم السري الصامت. وقبل ذلك كان الوضع مختلفاً تماماً. لقد أحدثت الغربة الطويلة تغييراً على كليهما. فغدا هانز أشد دفئاً، ورقة وحماساً، بينما أصبح هايلنر أقوى وأوضح رجولة. وقد اشتاق كل منهما إلى الآخر كثيراً خلال الأسابيع السابقة حتى أن التئام شملهما شكل حدثاً كبيراً هاماً، بل نعمة لا تقدر بثمن.

كان الولدان الناضجان قبل الأوان، يستمتعان، بملأهما هاجس خجول، بتذوق أولي غير واع لأسرار الحب الأولى الرقيقة. هذا الرباط الذي جمع بينهما كان يتصف بكامل الإثارة الخشنة لفترة المراهقة بالإضافة إلى الانجذاب الذي كان يكمن في استخفافهما المشترك بمجموع زملائهما العاديين. وقد اعتبر هؤلاء الذين لم تتجاوز الصداقات التي لا حصر لها المعقودة بينهم عتبة التسلية العابرة، اعتبروا أن هايلنر بغيضاً وهانز مبهماً.

كان كلما ازداد تعلقه بصداقته بحميمية ورضا، ازداد غربة عن المدرسة. كان الشعور الجديد بالسعادة يجري في دمه ودماغه كنبيذ منعش وفقد كل من ليفي[1] وهومر بالقدر نفسه أهميته وإثارته. وأصيب الأساتذة بالرعب وهم يشهدون تحول غيبنرات القدوة إلى مصدر للمشاكل ويقع تحت سيطرة تأثير هايلنر المريب إلى أقصى حد. بل في الحقيقة لا شيء كان أشد بثاً لرعب الأستاذ من تلك المخلوقات الغريبة، الصبية الناضجين قبل الأوان في فترة المراهقة الخطرة أصلاً. زيادة على ذلك، كان قد بدأ للتو يظهر عند هايلنر عنصر معين من العبقرية رأوا أنه فاسد، إذ أن هناك هوة تقليدية تقع بين العبقرية ومهنة التعليم، وهم يلاحظون وجود أي أثر من ذاك العنصر عند التلاميذ برعب

---

[1] ليفي (59 ق.م - 17م): مؤرخ روماني. - المترجم.

منذ البداية. فبالنسبة إليهم العباقرة هم أولئك التلاميذ الضالين الذين لا يبدون لهم أي قدر من الاحترام، ويبدأون بالتدخين منذ سن الرابعة عشرة، ويقيمون علاقة حب وهم في الخامسة عشرة، ويرتادون الحانات في السادسة عشرة، ويقرأون الكتب المحرمة، ويكتبون مقالات مشينة، ويسددون إلى أستاذهم نظرات الازدراء المدمرة ويُثبَّتون في سجل المدرسة كمشاغبين ومرشحين للاحتجاز. ويفضل الأستاذ أن يكون كامل تلاميذ الصف من الحمقى الأغبياء، على أن يكون لديه عبقري واحد، وإذا توخينا الموضوعية الصادقة نقول إن معه حق، ذلك أن ليس مهمته أن يثقف صبية متهورين، بل أن يخرِّج ضليعين في اللاتينية، والرياضيات وحمقى متزنين صالحين. أما أي الفريقين كان يعاني أكثر، الأستاذ على أيدي التلاميذ، أم العكس، ومن منهما هو الطاغية المستبد والمعذِّب، وأيهما يدمر ويدنس جزئياً، على الأقل، حياة الآخر وروحه. كان من المستحيل معرفة الجواب بدون أن يستعيد المرء شبابه الخاص بغضب وإحساس بالخجل. لكن هذا لا يدخل ضمن دائرة اهتمامنا حالياً، ويعزينا أن نعرف أن الجروح عند العباقرة الحقيقيين تندمل دائماً تقريباً، ويصبحون أناساً يبدعون الروائع رغم أنف المدرسة، وعندما يموتون فيما بعد، وتحيط بهم هالة نورانية مفرحة تلوح في البعد النائي، يرفع الأساتذة ذكراهم أمام الأجيال الطالعة كقدوة وككائنات نبيلة. وهكذا يتكرر مشهد المعرفة الأبدية بين النظام والروح في كل مدرسة على التوالي، ونظل نراقب بلهفة الدولة والمدرسة منهمكين في خنق حفنة أصحاب الأرواح الأعمق والأنبل، الذين لا ينون مع مرور السنين. ولا زال الصبية المشاغبون خاصة، الذين يهربون أو يُطردون هم المقدر لهم أن يُغنوا حياة بلدهم عندما يتقدمون في العمر. ولكن مع ذلك فإن

twitter @baghdad_library

العديد منهم - يعلم الله عددهم - يبددون قواهم بالتمرد الأخرس، وأخيراً يهلكون.

وفقاً لمبدأ المدرسة التقليدية الجيدة، ليس العطف بل الصرامة هي التي كانت تمارس بشدة على صاحبينا الصغيرين الغريبي الأطوار حالما حامت حولهما الشبهة. وحده المدير الذي كان فخوراً بهانز بوصفه ضليعاً مجتهداً في مجال دراسات اللغة العبرية، وبذل جهداً غير صادق لإنقاذه. فاستدعاه إلى غرفة مكتبه، الغرفة الجميلة الرائعة، ذات النوافذ المقوسة في منزل القس السابق، والتي كما تقول الأسطورة، استمتع فاوستوس[1] الذي كان يعيش في بلدة كينتلنغن، فيها بشرب الكثير من كؤوس نبيذ إلفنجر. وقد كان المدير شخصاً عاقلاً، ولا تنقصه البصيرة النافذة، والحكمة العملية، بل لقد كان يقف بشكل مُرضي في صف تلاميذه الذين كان يجب أن يخاطبهم بتعاطف وود. أما عيبه الرئيسي فكان اتصافه بتفاهة الزهو المفرط بنفسه مما كان يقوده باستمرار إلى أن ينغمس في التمادي في استعراض حذقه من فوق منصته، ولم يكن يطيق أي تدخل من أحد في سلطته أو أي اعتراض عليها. لم يكن يتقبل أي تأنيب أو يعترف بأي خطأ. وعلى هذا كان الصبية الأضعف أو المخادعون يخفقون في النجاح معه. أما ذوو الشخصيات الأقوى والأكثر استقامة، فكانوا يفشلون فشلاً ذريعاً ذلك لأنه يثور لأقل تعارض معه. وكان خبيراً في القيام بدور الصديق الأبوي بما يتحلى به من عبارة مشجعة ونبرة صوت ودود مناسبة، وهذا بالذات هو الدور الذي كان يؤديه عندئذ.

---

[1] فاوستوس: الشخصية الشهيرة التي باعت روحها للشيطان مقابل المعرفة الأرضية الشاملة. - المترجم.

قال بلطف، بعد أن صافح الصبي الذي كان قد دخل بحياء:
« غيبنراث، أود أن أتبادل معك حديثاً ودياً، إذا سمحت لي ».
« تفضل، يا سيدي ».
« لا شك أنك شعرت بنفسك، يا عزيزي غيبنراث، أن نشاطك المدرسي قد تراجع نسبياً، في اللغة العبرية، على الأقل. لقد كنت في السابق ربما أفضل عالم بالعبرية. لذا يؤسفني أن ألاحظ وجود تراجع مفاجئ. أيمكن أن تكون قد فقدت استمتاعك بدراسة هذه المادة؟ ».
« أوه، بل استمتع بها يا سيدي ».
« فكر بالأمر. في الواقع إن مثل هذه الأمور تحدث. لعلك في الوقت الحاضر تولي مادة أخرى اهتمامك الخاص؟ ».
« لا، يا سيدي ».
« أواثق أنت؟ حسن، إذن علينا أن نفتش عن أسباب أخرى لذلك. هل تستطيع أن تساعدني في ذلك؟ ».
« لا أدري... إنني دائماً أؤدي ما يترتب علي من عمل... ».
« لا شك في هذا، يا بني العزيز. ولكن "differendum est inter et inter". لا ريب في أنك أديت ما عليك من عمل، وهذا لا يتعدى قيامك بواجبك. لكنك في السابق كنت تقوم بما هو أكثر من ذلك. لعلك كنت أكثر اجتهاداً، أو في كل الأحوال كنت أكثر اهتماماً في هذه المادة. إنني الآن أطلب أن أعرف سبب حدوث هذا الارتخاء المفاجئ في الجهد المبذول. لا أظنك مريضاً؟ ».
« لا ».
« أم أنك تعاني من الصداع؟ لا تبدو لي في أحسن حالاتك ».
« نعم، إنني كثيراً ما أعاني من نوبات الصداع ».
« إذن، هل افهم أن عملك اليومي يفوق طاقتك؟ ».
« أوه، لا أبداً ».

twitter @baghdad_library

« أم أنك تفرط في قراءاتك الخاصة؟ كن صادقاً معي ».

« لا إنني لا أقوم بأية قراءات خاصة، يا سيدي ».

« إذن أعلن فشلي في فهم ما يجري. ثمة خطأ في مكان ما. هل تعدني بأنك ستولي عملك في المستقبل الانتباه اللازم؟ ».

وضع هانز يده في اليد اليمنى للرجل القوي النفوذ الذي وجَّه إليه نظرة عطف جدية.

« هذا جيد يا بني الطيب. لا تخفف من جهودك، وإلا وقعت تحت وطأة الدولاب ».

شد على يد هانز ثم مشى هذا الأخير نحو الباب، وأنفاسه تتسارع. وفجأة ناداه:

« ثمة أمر آخر يا غيبنزات. أعتقد أنك تقابل هايلنر كثيراً؟ ».

« نعم، كثيراً ».

« وأكثر مما تقابل أي تلميذ آخر، حسبما أعتقد، إن لم أكن مخطئاً؟ ».

« نعم، إنه صديقي ».

« كيف حدث ذلك؟ إنكما على طرفي نقيض ».

« لا أدري، على أي حال هو صديقي الآن ».

« أنت تعلم أني لست مولعاً بصديقك. إنه روح قلقة، ناقمة؛ لعله موهوب لكنه لا ينجز أي شيء، وله تأثير سيء عليك. وسوف يسرني أن تتجنب صحبته، ما رأيك؟ ».

« لا أستطيع ، يا سيدي؟ ».

« لا تستطيع؟ ولم لا، هل لي أن أعرف؟ ».

« لأنه صديقي. إنني ببساطة لا أستطيع أن أتخلى عنه ».

« همم. لكنك تستطيع أن توسع نطاق صداقاتك ليشمل أولاداً أخرين. إنك الوحيد الذي يستسلم لتأثير هايلنر السيء وها

نحن نرى عواقب ذلك منذ الآن. ما هو الرابط الخاص الذي يربطك به؟ ».

« إنني أنا نفسي لا أعرف. ولكن كلاً منا موضع إعجاب الآخر وسوف أكون جباناً إذا تخليت عنه الآن ».

« حسن، حسن. لن أجبرك على ذلك. لكن آمل أن تقطع علاقتك به بالتدريج. وسوف أكون مسروراً لذلك، مسروراً جداً. ».

لم يكن في ملاحظات المدير الأخيرة هذه أي شيء من لهجته الودود المعهودة. هنا سمح لهانز بالمغادرة.

وبدءاً من ذلك الوقت عاد ينكب بجهد متجدد على الدرس. لكنه لم يعد ذاك المتسارع بجزل كما كان في السابق، بل كان سباقاً شاقاً خشية أن يبقى متخلفاً عن الجميع. لقد كان يعلم أن سبب تخلفه يعود جزئياً إلى صداقته لكنه لم يستطع أن يعتبر صداقته مع هايلنر خسارة أو عقبة؛ وإنما رأى فيها كنزاً يفوق في قيمته أية خسارة، كانت حياته أكثر دفئاً، ونبلاً لا يُقَارن بها وجوده السابق التافه المترع بالواجبات. لقد كان حاله شبيهاً بحال العشاق، كان يشعر أنه قادر على إنجاز مآثر بطولية، عظيمة. لا أن ينخرط في دورة الأعمال اليومية التافهة، المملة. وهكذا تنكّب النير، مطلقاً تنهيدة يائسة. لم يكن من طبعه أن يقلّد هايلنر الذي كان يؤدي عمله بسطحية وبسرعة، إذا لم نقل بعجلة مفرطة، فلا يحصّل إلا أدنى قدر من المعرفة. ولما كان صديقه يطالب بوقت فراغه في كل مساء، أخذ يُجبر نفسه على النهوض من الفراش في ساعة مبكرة أكثر لكي يتصارع مع قواعد اللغة العبرية، وكأنما مع عدو. وفي الوقت الحاضر لم يكن يستمد متعة إلا من دراسة هومر ومن درس التاريخ. وراح يتلمس طريقه ببطء وإبهام إلى أن توصل إلى فهم عالم هومر، وفي مادة التاريخ لم يعد الأبطال بالنسبة إليه مجرد أسماء وأرقام وبدأوا

twitter @baghdad_library

يقتربون منه وينظرون إليه بعيون متوهجة، وأصبح لهم شفاه حمر ولكل منهم وجهه الخاص ويداه، فيرى لأحدهم يدان خشنتان ضخمتان، وحمراوان ولآخر يدان باردتان، كأنما قُدّتا من الحجر، وآخر له يدان ضيقتان دافئتان ودقيقتا العروق.

حتى عندما كان يقرأ الكتاب المقدس باللغة اليونانية كان يُدهش أحياناً، بل ويذهل من صفاء وقرب الشخصيات التي تسكنه. وفي الاصحاح السادس من إنجيل القديس مرقص، مثلاً، حيث يغادر يسوع السفينة مع تلاميذه يقرأ:

« ولما خرجوا من السفينة للوقت عرفوه »[1]. وإذا بابن الإنسان يتراءى له وهو يغادر السفينة وتعرَّف إليه للتو ليس من وجهه أو من شكله المادي وإنما من عمق عينيه الحبيبتين اللامع وحركة يده السمراء الجميلة، عندما تومئ أو تدعو برقة، أو تحيي، اليد تبدو كأنما شكلتها وسكنتها شخصية مرهفة ولكن قوية. وارتفع اضطراب حافة بحيرة وتهادت انحناءات قارب صيد مثقل بحمله من الأسماك هنيهة ومن ثم تلاشت الصورة بأكملها كتلاشي نفحة من بخار في هواء الشتاء.

بين حين وآخر كانت تبرز من صفحات هذا الكتاب شخصية أو حدث تاريخي باللهفة والحماس الأصليين ذاتهما وكأنها تتوق إلى العودة إلى الحياة أو إلى الحدوث وأن تنعكس في عين حية. تأثر هانز ودُهش وشعر أن هذه الظواهر التي لمحها لدى مرورها السريع قد أحدثت فيه تغييراً عميقاً وغريباً؛ وكأنه كان يحدق مخترقاً الأرض المظلمة وكأنها من زجاج أو كأنما الله ذاته كان ينظر إليه. هذه اللحظات النفيسة حلت دون استدعاء واختفت دون سابق إنذار، وكأنها حجيج أو ضيوف ودودون

---

[1] إنجيل مرقص، الاصحاح السادس، رقم54. ـ المترجم.

يتردد المرء في أن يدنو منهم ويخاطبهم أو أن يلح عليهم في البقاء لأنه تحيط بهم هالة غريبة وإلهية.

احتفظ بتلك التجارب لنفسه ولم يبح بها لهايلنر. وكانت كآبة هذا الآخير السابقة قد فسدت وتحولت إلى نزعة ساخرة وجدت متنفساً لها في انتقاد المدرسة والطقس، والحياة، ووجود الله، وأحياناً كانت تجعله يتوق بشدة إلى الانخراط في شجار أو إلى الانغماس في مزحة سمجة. كان يتنحى بعيداً عن الباقين وعلى طرف نقيض منهم، ويستعرض هذا باتخاذ موقف التحدي والعداء ويحمل غيبنرات على مجاراته، وكان هذا الأخير يرغب تماماً في ذلك، وهكذا انفصل الصديقان عن بقية التلاميذ، كأنهما جزيرة مشؤومة. لكن قلق هانز حول هذا الأمر أخذ يتلاشى شيئاً فشيئاً. ولم يعد يثير خوفه إلا المدير. وفي وقت من الأوقات كان تلميذه المفضل، أما الآن فبدأ بالتدريج يعامله ببرود وبفظاظة متعمدة. وأخذ يفقد بالتدريج حماسه لدراسة العبرية، اختصاص المدير.

كان من المسلي ملاحظة التغير الجسدي والروحي الذي طرأ خلال بضعة أشهر على التلاميذ الأربعين - باستثناء بعض ذوي الطبائع الباردة. فقد استطالت قامة عدد منهم كثيراً على حساب عرضهم، وبَثَقَت رسغهم وكواحلهم بشكل واعد من ملابسهم التي لم تعد تجاريهم. وظهرت على وجوههم أدق الفروق الممكنة بين مظاهر الطفولة المتلاشية، والرجولة المتبرعمة، ولكن بتردد، ولا تزال تستحي من التشديد على مطالبها، والصبية الذين لم تكن أجسادهم قد اكتمل بلوغها كانوا قد اكتسبوا على جباههم الملساء جراء دراستهم لأسفار موسى، تقطيبة البالغين الجدية، وإن كانت مؤقتة. والآن بات من النادر أن ترى وَجْنة ريّانة.

twitter @baghdad_library

هانز أيضاً تغير. أصبح يجاري هايلنر في طول القامة والنحول ويكاد يبدو أكبر من صديقه. وبشرة جبينه التي كانت ملساء وتكاد تكون شفافة لم تعد كذلك، وعيناه أصبحتا أعمق زرقة، وكانت بشرته بشكل عام شاحبة، وأطرافه وكتفاه بارزة العظام وخالية من اللحم.

كان كلما قلَّ رضاه عن تقدمه في صفه، زاد تصميمه ـ تحت تأثير هايلنر ـ على قطع صلاته برفاقه. وبما أنه لم يعد تلميذاً مثالياً والمنتصر الأول على صفه، وبالتالي لم يعد لديه أي سبب لينظر إليهم من علياء المتفوق، فلم تعد عزلته تلائمه. لكنه لم يستطع أن يسامحهم على جعله يدرك هذا، ولا سامح نفسه على أنه شعر بذلك بحدة. فمثلاً، كان دائم التشاجر مع هارتنر المسالم، ومع أوتو فنغر الصخّاب. وفي أحد الأيام، عندما سخر هذا الأخير منه وأزعجه، نسي هانز نفسه، ورد عليه بلكمة. وتلا ذلك قتال حقيقي. وقد كان فنغر جباناً لكن خصمه الضعيف كان هدفاً سهلاً ولم يُبْد معه أي رحمة. ولم يكن هايلنر موجوداً. واكتفى باقي التلاميذ بالتفرج بلا مبالاة؛ كانوا يستمتعون بتعرُّضه للهزيمة. وقد تلقى ضرباً مبرحاً، ونزف الدم من أنفه وكان الألم يغير على أضلاعه كلها. وجافاه النوم طوال ليل ذاك اليوم ألماً وغضباً. وأبقى الحادثة سراً لنفسه دون صديقه، لكنه بدء من ذلك الوقت أصبح يتجنب بإصرار رفاق القاعة ولم يكن يتبادل معهم أي كلمة.

في بداية العام الجديد، ومع حلول الأيام الماطرة وأيام الآحاد الرطبة، وفترات العتمة الطويلة، أخذت الحياة في الكلية منحى جديداً. وأقامت قاعة أكروبوليس، التي تضم بين صفوف أفرادها عازفاً جيداً على آلة البيانو وعازفين على آلة الفلوت، أمسيتين موسيقيتين على التوالي، وفي قاعة جرمانيا، افتتحوا

دورة قراءة مسرحيات، وأقامت بضعة من الأولاد المتدينين دورة لدراسة الكتاب المقدس وكانوا في كل مساء يقرأون إصحاحاً منه بالإضافة إلى تعليق على نسخة كالفن[1] من الكتاب المقدس.

قدم هايلنر طلباً للانتساب إلى دورة قراءة المسرحيات في قاعة جرمانيا، لكن طلبه رُفض. وغلى غضبه. نكاية بهم توجه إلى مجموعة دراسة الكتاب المقدس. هؤلاء أيضاً لم يرغبوا في وجوده لكنه فرض نفسه، وبآرائه الوقحة وتلميحاته المهرطقة أدخل إلى الحديث الورع للأخوية الصغيرة الخجول جواً من النزاع والمشاحنة. وسرعان ما سئم تلك اللعبة لكن نبرة حديثه الساخرة ظلت تلازمه. إلا أن أحداً لم يُصغ إليه، لأن المؤسسة بأكملها كانت مفعمة بروح جديدة من المغامرة الخلاقة.

الشخص الذي كان محور الأحاديث كلها كان عضواً حاذقاً وفطناً من قاعة اسبرطة. فبالإضافة إلى شهرته الشخصية كان يشعر أنه ملزم بإشاعة قدر من الحياة في المكان. وبالتخفيف من وطأة رتابة العمل اليومي بواسطة أي نوع من أنواع الترفيه. كنيته دنستان وقد اكتشف طريقة جديدة في إشاعة الإثارة وفي كسب قدر من الشهرة في الوقت نفسه.

في صباح أحد الأيام كان الباب مغطى بأكمله بقصائد الأبيغرام[2] وXenia[3]، والردود المعاكسة، والبراهين المؤيدة وهجمات جديدة كان المحرض للأمر كله من الدهاء بمكان بحيث لا يلعب فيه أي دور. وقد اشترك كل الأولاد بدون استثناء

---

(1) جون كالفن (1509 - 1564م) لاهوتي فرنسي مؤسس حركة الإصلاح البروتستانتي في فرنسا وسويسرا - المترجم.

(2) الأبيغرام: قصيدة تنتهي بفكرة بارعة أو ساخرة.

(3) كما وردت، وتعني حرفياً التلقاح: أي أثر اللقح في الثمرة.

twitter @baghdad_library

في معركة التراشق بقصائد الأبيغرام واستمرت عدة أيام، فكنت ترى كلاً منهم يتمشى متنكراً يعمل على إبداع بيتين موزونين من الشعر، ولعل لوسيوس كان الوحيد الذي واصل عمله بهدوء كعهده دائماً. وأخيراً سمع أحد الأساتذة بالأمر وحظر عليهم الاستمرار في هذه اللعبة المثيرة.

لم ينم دنستان الداهية على أمجاده، وكان في تلك الأثناء يعد لتنفيذ ضربته الكبرى. وقد اختار ذلك الوقت لكي يصدر الطبعة الأولى من صحيفة استخرج نسختها بالمنضحة[1] بقطْع صغير على ورق خشن خاص بالتمارين، وظل يجمع النسخ طوالً أسابيع. وحملت اسم "الشيهم"، وكانت صبغتها الأساسية فكاهية. وكان الموضوع الرئيسي في العدد الأول حديث فكه يدور بين مؤلف سفر يشوع وطالب لاهوت في مولبرون.

كان نجاحها هائلاً، وأصبح دنستان الذي أخذ يتخذ مظهر وسلوك ناشر ومحرِّر غارق في حمى العمل، يتمتع ضمن نطاق المؤسسة بمكانة لا تقل عن مكانة الشهير أوريتينو[2] أيام زمان في عهد جمهورية البندقية.

سادت الدهشة المؤسسة عندما أدلى هرمن هايلنر بدلوه بحماس في عمل التحرير وأخذ إلى جانب دنستان يزود المشروع بتعليقات ساخرة، حادة، لم يكن ينقصها لا الظرف ولا الغِلّ. وظلت الصحيفة الصغيرة طوال نحو شهر من الزمن تمد الكلية برمتها بجو لاهث من الإثارة.

قال غيبنرات لصديقه أنه لا يرغب ولا يتمتع بالموهبة اللازمة ليساهم. في أول الأمر لم يلاحظ أن هايلنر أصبح مؤخراً

---

(1) المنضحة: مطبعة هلامية.

(2) بييترو أوريتينو (1492 ـ 1556م) شاعر إيطالي ساخر وكاتب مسرحي. معروف بهجومه الساخر على الشخصيات السياسية البارزة. ـ المترجم.

يمضي أغلب أمسياته في قاعة اسبرطة بسبب أمر يشغل باله. ومرت الأيام وهو شارد الذهن، واهن النشاط، بطيء في عمله وفارغ من أي حماس، وفي مناسبة واحدة، وأثناء درس عن المؤرخ ليفي، مر بتجربة غريبة.

فقد طلب منه الأستاذ أن يقوم بالترجمة. لكنه ظل جالساً في مكانه.

هتف له الأستاذ بغضب: « ما معنى هذا؟ لم لا تنهض؟ ».

لم يحرك هانز ساكناً. ظل مسمّراً في مقعده واكتفى بطأطأة رأسه وشبه أغمض عينيه. وكان الهتاف قد أيقظه من حلم يقظته لكن صوت الأستاذ بدا وكأنه يأتيه من مسافة بعيدة جداً. وعى أيضاً لجاره على المقعد، وهو يلكزه بقوة. لكنه لم يبد اهتماماً. كان محاطاً بأناس آخرين، وثمة أياد أخرى تلمسه، وأصوات أخرى تخاطبه، أصوات قريبة، رقيقة، عميقة، لا تنطق كلمات، فقط تصدر ضجيجاً أشبه بغرغرة نهر عميقة. وكانت عيون كثيرة تحدق إليه ـ عيون غريبة، متألقة، مترعة بالهواجس المقلقة. لعلها عيون حشد من الرومان كان يقرأ عنهم لتوه في كتاب ليفي، أو هي عيون رجال مجهولين حلم بهم أو لمح صوراً لهم.

صرخ الأستاذ: « غيبنرات أأنت نائم؟ ».

فتح الفتى عينيه ببطء، وحدق مندهشاً إلى الأستاذ وهز رأسه نفياً.

« بل كنت نائماً! هل تستطيع أن تخبرني إلى أي جملة وصلنا؟ حسن! ».

أشار هانز إلى الموقع في الكتاب، لقد كان يعرف جيداً مكانه.

قال الأستاذ متهكماً: « والآن أعتقد أنك ستكون طيباً بما يكفي لتنهض واقفاً؟ ». فنهض هانز.

twitter @baghdad_library

« إذاً ماذا تفعل؟ أنظر إليّ! ».

فنظر إلى الأستاذ. لم يسر هذا الأخير بما رأى لأنه هز رأسه مندهشاً.

« أأنت مريض، يا غيبنرات؟ ».

« لا، هر بروفسور».

« عُد إلى الجلوس وفي نهاية الدرس احضر إلى مكتبي ».

جلس هانز وانكب فوق كتاب ليفي. لقد كان في كامل يقظته ويفهم كل ما يدور من حوله، غير أنه كان بعينه الداخلية يتابع الأشكال العديدة الغريبة وهي تتحرك ببطء مبتعدة إلى مسافات نائية، تاركة عيونها اللامعة مثبتة عليه إلى أن اختفت في الضباب. وفي الوقت نفسه كان صوت الأستاذ وأيضاً صوت الفتى الذي كان يقوم بالترجمة وضجيج غرفة الصف المهمهم كله تقترب منه أكثر فأكثر، حقيقية وحاضرة كعهدها دائماً. المقاعد الدراسية، ومنصة الأستاذ، واللوح الأسود، كلها موجودة في أماكنها المعتادة، والبوصلات الخشبية الكبيرة وكوس[1] معلقة على الجدار، واكتنفه رفاقه من كل جانب وكان كثير منهم يرمقه بفضول متغطرس، عندئذ تغلب الخوف على هانز، وسمع من يقول: « تعال إلى مكتبي بعد نهاية الدرس ». ماذا ألم به بحق الله؟.

أومأ الأستاذ إليه فور انتهاء الدرس وواكبه مخترقاً صفوف رفاقه المحدقين.

« والآن قل لي ماذا ألمَّ بك حقاً. ألم تكن نائماً إذن؟ ».

« لا ».

« فلماذا لم تنهض عندما ناديتك؟ ».

---

[1] الكوس: مثلث رسم الزوايا القائمة.

« لا أدري ».
« لعلك لم تسمعني؟ هل سَمْعُك ثقيل؟ ».
« لا، لقد سمعتك ».
« ومع ذلك لم تنهض؟ لقد أطلَّت من عينيك نظرة غريبة جداً. بماذا كنت تفكر؟ ».
« لا شيء. كنت أنوي حقاً أن أنهض ».
« فلم لم تفعل إذن؟ أكنت متوعكاً؟ ».
« لا أظن ذلك. لا أدري ماذا كان بي ».
« أتعاني من الصداع؟ ».
« لا ».
« حسن. إنصرف ».

استُدعي هانز مرة أخرى قبل العشاء وأُخذ إلى المهجع. وهناك كان المدير بانتظاره مع الطبيب المحلي. فقام هذا الأخير بفحصه وطرح عليه أسئلة، لكنه لم يتوصل إلى نتائج دقيقة. وضحك الطبيب بخفة، لأنه لم ير في الوضع خطورة.

قال وهو يبتسم: « إنه مجرد اضطراب عصبي خفيف، أيها المدير. مجرد وهن مؤقت، دوار خفيف. سوف أصف بعض النقاط من أجل نوبات الصداع ».

منذ ذلك الوقت كان على هانز أن يخرج مدة ساعة من الزمن في كل يوم إلى الهواء الطلق، بعد وجبة العشاء. لم يمانع في ذلك. أما أسوأ ما كان في الأمر أن المدير حرَّم على هايلنر بكل وضوح أن ينضم إليه خلال تلك النزهات. وغضب هذا الأخير وثار ولكن بلا فائدة. وهكذا أصبح هانز دائماً يخرج وحده وكان يستمد شيئاً من المتعة من انفراده. كان الوقت بداية الربيع، وكان البساط الأخضر النضر يمتد كموجة ضحلة، صافية، فوق أشكال التلال المدورة، وكانت الأشجار تفقد تشكيلها الشتائي

twitter @baghdad_library

المتقاطع البني اللون، والمحدد بحدة، وامتزجت أوراقها الغضة، النضرة بألوان المشهد العام مثل مد هائل متدفق من الخضرة الحية.

سابقاً، خلال أيام المدرسة الثانوية، كان هانز ينظر إلى الربيع بعين مختلفة، بفضول يبدي اهتماماً أشد بجوانبه المفصلة. كان يراقب عودة الطيور بأنواعها المتوافدة تباعاً، وانبجاسات الأزهار على أفنان الأشجار المثمرة. ثم وحالما كان يحل شهر أيار يباشر حملات صيد السمك. أما الآن فلم يعد يزعج نفسه بتمييز مختلف أنواع الطيور أو يتعرف إلى الشجيرات من براعمها. ولم يعد يلاحظ غير جيشان الحياة العارم والألوان التي تبزغ في كل مكان، كان يستنشق عبير أوراق النبات الغضة، ويشم الهواء الألطف، المسكر، ويتجول بين الحقول التي تفيض بالإعجاز. وسرعان ما ناله التعب وشعر برغبة قوية في الاستلقاء والاستغراق في النوم. وكان طوال الوقت تقريباً يرى أشياء أخرى غير تلك التي تحيط به على أرض الواقع. لم يكن يدرك هو نفسه كنهها ولا هو أبدى كبير اهتمام بها. لقد كانت رؤى جلية، غريبة، مؤثرة، أحدقت به من كل جانب كصور متجمدة أو كطرق تحددها أشجار غريبة ولكن لم يبد أن شيئاً يحدث بينها. صور ساكنة تدعو إلى التأمل، لكن هذا التأمل بالذات كان أيضاً تجربة، وكأن الناظر ينتقل إلى عالم آخر وبين أناس آخرين. كأن ارتحالاً إلى تربة غريبة، تربة لينة، يمتع وطؤها، ويهب هواء غريب، مشبع بالرخاء، وبالعطر الحالم. وأحياناً كان يحل محل هذه الصور شعور مبهم، دافئ ومثير، وكأن يداً رقيقة تداعب جسده.

كان يشق على هانز كثيراً أن يركز في وقت واحد على قراءاته وعلى عمله الآخر. لقد كانت المواد الدراسية التي لم تحظ باهتمامه متملصة كالأشباح وإذا أراد أن يستذكر المفردات

العبرية تحضيراً للدرس، يظل منكباً على ذلك حتى الدقيقة الأخيرة. لكن لحظات الرؤيا التي كان يعيش خلالها فجأة بحضوره المادي كل ما قرأ عنه وصفاً، بدت أقرب إلى الحياة، وواقعية أكثر بكثير من الأشياء المادية المحيطة به. وبينما كان يلاحظ يائساً أن ذاكرته تبدو عاجزة عن استيعاب أكثر مما استوعبت، وتزداد ضعفاً والتباساً في كل يوم، وأحياناً كانت تعاوده ذكريات، شاذة ومزعجة، عن أيام سابقة بصفاء غريب. وكثيراً ما كان يلفي نفسه يفكر في والده أو في العجوز آنا وهو في وسط الدرس في الصف أو وهو يقرأ، أو يتراءى له أحد أساتذته أو زملاء المدرسة السابقين، وكأنه حاضر بلحمه ودمه أمامه وأثناء ذلك يستولون على انتباهه كله. وهكذا عاش من جديد مشاهد من فترة مكوثه في شتوتغارت، وفترة الامتحان العام، والعطل التي تلت أو تراءى له أنه جالس على ضفاف النهر، وهو يمسك صنارة صيد السمك، وشم رائحة المياه التي تسطع عليها أشعة الشمس، ومع ذلك خيل إليه أن الفترة الزمنية التي كان يحلم بها تعود إلى سنوات بعيدة جداً في الماضي.

ذات مساء حالك الظلام، ورطب، كان يتمشى مع هايلنر، يتسامران حول والده، وصيد السمك، والمدرسة. كان صديقه هادئاً بشكل ملفت للنظر وتركه يتكلم، وهو يهز رأسه بين وقت وآخر ويرسم بضع حركات تنم عن تفكير عميق بمسطرة صغيرة كان يعبث بها طوال النهار. وشيئاً فشيئاً تراجع هانز نحو الصمت، ثم ازدادت حلكة الظلام فجلسا على حافة النافذة.

أخيراً بادر هايلنر بالقول: « هانز، هل... » كان في صوته إثارة وتقلقلاً.

« ماذا؟ ».

« أوه، لا شيء ».

« هيا قل! ».

twitter @baghdad_library

« كنت أفكر فقط، بما أنك حدثتني عن أمور كثيرة.. ».

« حسن؟ ».

« قل لي، هانز، الم يحدث قط أن انجذبت إلى فتاة؟ ».

ران صمت. لم يكن أي منهما قد أتى على ذكر هذا الموضوع من قبل. كان هانز يخجل من فتحه، على الرغم من أن تلك المنطقة الملغزة، كانت تخبئ له فتنة جنة مسحورة. شعر حمرة الخجل تعلو وجهه وأصابعه ترتعش.

همس: « فقط مرة واحدة. كنت عندئذ مجرد طفل أحمق ».

صمت آخر.

« ...وأنت، هايلنر؟ ».

تنهد هايلنر.

« أوه، كفى، أنت تعلم أنه لا فائدة من التحدث في هذا. إنه لا يفيد أبداً ».

« هيا، قل ».

« أنا، أنا لدي حبيبة ».

« أنت؟ أحقاً؟ ».

« هناك في الوطن. جارة لنا. وقبَّلتها في هذا الشتاء ».

« أقبَّلتها؟ ».

« نعم. كانت الدنيا ظلاماً. كنت أساعدها في نزع مزلجتها على الثلج في المساء، فقبّلتها ».

« ألم تقل أي شيء؟ ».

« ولا كلمة. فقط فرّت هاربة ».

« ثم؟ ».

« ثم!.. لا شيء ».

تنهد مرة أخرى ورنا إليه وكأنه ينظر إلى بطل عاد من جنة محرمة.

ثم رن الجرس وتوجب عليهما أن يعودا لكي يناما. وبعدما أُطفئ المصباح وخيم السكون على كل شيء، بقي هانز متمدداً مدة تزيد على الساعة وهو يفكر في القبلة التي منحها هايلنر لحبيبته.

في اليوم التالي أراد أن يطرح عليه مزيداً من الأسئلة حول هذا الأمر لكنه شعر بالارتباك وكان صديقه مفرط الحياء فلم يعد إلى فتح الموضوع بما أن هانز لم يستزد منه.

كانت الأحوال بالنسبة إلى هانز تسير من سيء إلى أسوأ في المدرسة. وبدأ الأساتذة يعبسون ويرمونه بنظرات استغراب، وتجهم المدير وانزعج، حتى رفاق هانز كانوا مدركين منذ فترة طويلة أن غيبنرات ينزلق عن موقعه الرفيع ولم يعد يصبو إلى تبوء المركز الأول في الصف، وهايلنر وحده فشل في أن يلاحظ أي شيء - شؤون المدرسة لم تكن هامة بالنسبة إليه - ورأى هانز كل شيء يتغير ويتبدل بدون أن يوليه أي انتباه.

في تلك الأثناء كان هايلنر قد سئم قصة تحرير الصحيفة وعاد إلى صديقه من جديد. وعلى الرغم من الحظر المفروض عليه رافق هانز عدة مرات في مشاوير يومية، واستلقى إلى جواره تحت أشعة الشمس، يحلم، يقرأ شعراً، يؤلف نكاتاً على حساب المدير. وفي كل يوم كان هانز يأمل في أن يسمع المزيد من بوح الأسرار من هايلنر عن قصة حبه الرومانسية، لكنه كلما أجّل طرح أسئلته صَعُب عليه أكثر فعل ذلك. وكان كلا الصبيين مكروهاً من رفاقه كعهده دائماً، فقد أفقد هزء هايلنر الخبيث في صحيفة "الشيهم" ثقة الجميع به.

على أية حال، كانت الصحيفة عندئذ قد بدأت تنهار، لقد كانت قد استمرت أطول مما ينبغي؛ ولم يكن محرروها يبغون منها غير أن يملؤوا الأسابيع المملة الممتدة ما بين الشتاء والربيع.

twitter @baghdad_library

أما الآن فالفصل الدراسي الجديد يعدهم بالكثير في مجال دراسة النباتات، والنزهات، والتريض في الهواء الطلق، وفي بعد ظهر كل يوم يملأ جنبات حديقة الدير لاعبوا الجمباز، والملاكمون، والعداؤون ولاعبوا ألعاب الكرة بأنواعها، مع صراخهم ونشاطهم.

ثم كان أن ثارت ضجة أخرى، ومرة أخرى كان هرمن هايلنر هو مثيرها ومركزعاصفتها.

فقد تناهى إلى سمع المدير أن هايلنر قد تحدى إجراء الحظر وأنه يرافق هانز في نزهاته تقريباً في كل يوم. وفي هذه المناسبة لم يزعج المدير غيبنرات واكتفى باستدعاء المتهم الرئيسي عدوه القديم، إلى غرفة مكتبه. وأخذ يخاطبه بنبرة الكلفة المرفوعة فانكمش هايلنر على الفور مشمئزاً. وأنبه على عصيانه أمره، فبرر ذلك بأنه صديق غيبنرات وأنه لا يحق لأي كان أن يقف حائلاً بينهما. وكانت النتيجة ثورة غضب عارم منه، احتجز على إثرها عدة ساعات ومنع منعاً باتاً من الخروج مع غيبنرات في المستقبل.

في اليوم التالي انطلق هانز وحده، في نزهته المعتادة. وعاد عند الساعة الثانية من بعد الظهر وانضم إلى بقية الفتية في غرفة الصف. وعُرف منذ بداية الدرس أن هايلنر غائب. لقد كان الموقف يشبه إلى حد بعيد مناسبة سابقة، وذلك عندما اختفى الهندوسي، غير أنه في هذه المرة لم يعتبر أحد أن المسالة هي مسألة تأخر عن الحضور. وعند الساعة الثالثة خرجت الكلية برمتها مع ثلاثة من الأساتذة بحثاً عن الفتى المفقود. انقسموا إلى مجموعات، تغلغلوا راكضين في الغابة وهم ينادونه باسمه بأعلى أصواتهم. وأعلن العديد من الفتية وحتى إثنان من الأساتذة أنه من المستحيل أن يكون قد آذى نفسه.

في الساعة الخامسة أرسلوا برقيات إلى مراكز الشرطة كافة وفي المساء، وصلت إلى والد هايلنر رسالة مستعجلة. وحتى

وقت متأخر من المساء لم يكن قد ظهر للفتى أثر، وظلت الهمسات تُسمع في المهاجع في قلب الليل. وكانت النظرية الأكثر قبولاً بين صفوف الفتيان أنه قد رمى نفسه إلى أعماق المياه. ورأى آخرون أنه فقط فرّ هارباً إلى وطنه. ولكن اكتشف أنه لم يكن يملك المال.

أخذوا ينظرون إلى هانز وكأنه خليق بأن يعرف كنه الأمر كله. لكن ذلك لم يكن صحيحاً، والحقيقة هي أنه كان الأشد قلقاً وخوفاً منهم جميعاً. وفي الليل، عندما كان يسمع في المهجع يطرحون الأسئلة ويخرجون بنظريات ونكات حول الموضوع، كان يندس عميقاً تحت الأغطية ويعاني ساعات طوالاً من العذاب، وهو مستلق هناك حزيناً على صديقه. وقبض على قلبه المسوس بالرعب هاجس داخلي بأنه لن يعود أبداً حتى ملأه خوفاً، وأخيراً استنفذه القلق واستسلم للنوم العميق.

في تلك اللحظة بالذات كان هايلنر مستلقياً على مسافة لا تزيد عن بضعة أميال في إحدى الغابات. كان البرد الصقيعي يمنعه من النوم، لكنه كان يستنشق الهواء بعمق مستمتعاً بالحرية وأخذ يمط أطرافه وكأنه هارب من قفص ضيق. كان يسير بلا كلل منذ الظهيرة، وكان قد اشترى رغيفاً من الخبز من بلدة كنيتلينغن وأخذ يتناول منه قضمة بين حين وآخر مرسلاً نظرة بين أفنان الأشجار الغضة التي ما زال رداؤها من الأوراق خفيفاً، وإلى قلب الظلمة والنجوم والسحب المتلاحقة. ولم يكن يهمه أين سيستقر به المقام، في نهاية المطاف، على الأقل لقد هرب من الكلية الكريهة، وبيّن للمدير أن إرادته اقوى من أوامره ومحظوراته برمتها.

واصلوا بحثهم سحابة نهار اليوم التالي كله، لكن عبثاً. وأمضى هو ليلته الثانية بالقرب من قرية بين أكوام التبن وسط

twitter @baghdad_library

حقل، وفي الصباح عاد إلى الغابة، ولم يقع في يد أحد رجال الشرطة، إلا مع اقتراب المساء، عندما رغب في دخول إحدى القرى. وصحبه هذا الأخير بروح مرحة مؤنبة إلى مقر البلدية. وهناك حظي هايلنر بتعاطف العمدة بنكاته وكلامه المعسول، ودعاه إلى قضاء الليل في منزله، وأولم على مائدة العشاء بنهم على لحم الخنزير والبيض. وفي اليوم التالي جاء والده وصحبه معه.

علت وتيرة الإثارة في أرجاء الكلية عندما أعيد الهارب، لكنه كان شامخ الرأس ولم يبد عليه أي أثر للندم على هروبه البارع. وكان يتوقع منه أن يندم اعتذاراً لكنه رفض أن يفعل، ولم يُبْدِ خوفاً ولا خنوعاً أمام محكمة الأساتذة. وكانوا يأملون في أن يحتفظوا به لكن السيل كان قد بلغ الزبى. وطُرد يسربله الخزي. وفي مساء ذلك اليوم بالذات غادر مع والده الكلية إلى الأبد. واقتصر وداعه لصديقه هانز غيبنرات على المصافحة.

ألقى المدير خطاباً مؤثراً جداً دار حول قضية التمرد والانحلال المشينة هذه. وكان تقريره الذي قدمه للسلطات في شتوتغارت مصاغاً بعبارات أقل عنفاً، وأكثر واقعية واتزاناً. ومُنعت أية رسائل متبادلة في المستقبل مع الوحش المطرود، وأمام هذا اكتفى هانز غيبنرات بالابتسام. وظل موضوع هايلنر وهروبه هو المستحوذ على اهتمام الجميع. وقد لطّف عنصرا المسافة والزمن من الموقف العام منه وأصبح كثيرون الآن ينظرون إلى الهارب الذي كانوا ذات يوم يتجنبونه بخوف شديد كنسر يحلق خارجاً من قفصه.

أصبحت قاعة هيلاس تحتوي مقعدين فارغين، ولم يُنس آخر نزيل بالسرعة الكبيرة التي نُسي بها ذِكر النزيل الأول. وكان سيناسب المدير أكثر لو أنه أحس أن الثاني خمد ذكره، كما

حدث للأول. لكن هايلنر لم يقم بأي خطوة ليعكر صفو المؤسسة. وانتظر صديقه وطال انتظاره ولم يصله منه أي رسالة. لقد اختفى إلى الأبد، وغدت ذكريات شكله المادي وقصة هروبه من المدرسة من الماضي البائد في أول الأمر ثم تحولت شيئاً فشيئاً إلى أسطورة. فبعد مزيد من محاولات الهروب اللامعة وتقلبات الحظ فرضت حقائق الحياة الكئيبة أخيراً النظام على الفتى وجعلت منه، إن لم نقل بطلاً على الأقل رجلاً.

حَرَمَ الشكُّ هانز، الذي أصبح ترتيبه الأخير في صفه، وبوصفه كان عارفاً مسبقاً بخطة هروب هايلنر، حرماناً تاماً من حسن رأي الأساتذة فيه. وفي سياق أحد الدروس، عندما أعطى أجوبة مغلوطة عن أسئلة عدة، علّق أحدهم قائلاً: « لماذا لم ترحل مع صديقك الرائع ذاك؟ ».

لم يعد المدير يدعوه لمشاركة في الصف، وأخذ يوجه إليه نظرات مدقِّقة ملؤها الشفقة الساخرة نفسها التي رمى بها الفرِّيسيّ جابي الضرائب[1]. إن هذا الغيبنراث لم يعد واحداً منهم، أصبح مجذوماً.

---

[1] المقصود به متّى الرسول ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

5

ربح هانز فترة وجيزة من الوقت بفضل ما كان ادّخره سابقاً من معرفة، مثل حيوان قارض ادّخر مؤونته. ثم تبع ذلك فترة جوع قارص، قاطعتها محاولات قصيرة عقيمة، قابل عقمها بخفة ساخرة مريرة، لإنقاذ الوضع. كان قد كف عن التعذيب العبثي لنفسه، وأخذ يرمي كتاب هومر بعد كتاب بترارك، وكتاب الجبر بعد كتاب زينوفون، وهو يراقب، بلا أي إحساس شديد بالقلق، سمعته الحسنة تغوص شيئاً فشيئاً في عيون أساتذته من جيدة إلى حسنة، ومن حسنة إلى مُرضية، ومن مرضية إلى غير مرضية. وعندما تخلص من نوبات صداعه التي لم تكن تتكرر كثيراً، فكّر في هرمن هايلنر، وحلم أحلامه الكسول، الكئيبة، وأمضى ساعات بأكملها غائصاً في أفكار غامضة. وكان يرد على تأنيبات كل أساتذته المتكررة بابتسامة ودود، مستخفة. وحده فيدريش، وهو أستاذ مساعد ودود، كان يتألم لرأى ابتسامته اليائسة، وعامل الفتى الذي ضلّ سبيله بتجمل متعاطف. أما باقي أعضاء الهيئة الإدارية فاكتفوا بإبداء سخطهم وعاملوا هانز بإهمال محتقر أو قاموا بمحاولات متفرقة لإثارة طموحه الهاجع بتعيير متهكم: « في حال لم تكن نائماً هل لي أن أزعجك بقراءة هذه الجملة؟ ».

كان سخط المدير ذا دوافع أخلاقية. فهذا الرجل التافه كان شديد الثقة بقوة تأثير نظرته وقد جن جنونه، عندما أخذ غيبنرات يواجه تقطيبة جبينه المتوعدة، الفخيمة بابتسامة مستخفة، متواضعة، وبدأت تؤثر بالتدريج على أعصابه.

«امسح هذه الابتسامة التي لا معنى لها. جدير بك أن تبكي».

أثّرت فيه بعمق رسالة وصلته من والده ملؤها الرعب، يتوسل إليه فيها أن يحرز تقدماً. وكان المدير قد كاتب الهر غيبنرات فاضطرب هذا الأخير كثيراً. وكانت رسالته الموجهة إلى هانز عبارة عن حشد من التشجيع وتعابير عن السخط مناسبة نزولاً عند طلبٍ من ذاك الرجل الفاضل، غير أن نبرة غير مقصودة تدل على بؤس حزين تخللتها أوجعت أبنه.

لقد رأى قادة الشبيبة أولئك كلهم، بدءاً بالمدير وانتهاء بالهر غيبنرات وما بينهما من أساتذة مساعدين متقدمين ومستجدين، في هانز عقبة تقف في طريق تنفيذ رغباتهم، شيئاً مقاوماً بليداً يجب إجباره بطريقة أو بأخرى على العودة إلى الحظيرة. ولم يتمكن واحد منهم، ربما باستثناء فيدريش المتعاطف، أن ينفذ إلى الابتسامة اليائسة المرتسمة على وجه الفتى الطفولي حتى أعماق الروح المنهارة، وهو يتألم ويتلفت حوله مرعوباً ويائساً بينما يغرق. ولا تبدّى لأي منهم أن المدرسة وطموحات لا تعرف الرحمة لأب ولحفنة من الأساتذة قد انحدرت بهذا المخلوق الهش إلى حالته هذه. لماذا كان عليه أن يعمل حتى ساعة متأخرة من الليل خلال أشد سنوات فتوته حساسية ودقة؟ لماذا سلبوه أرانبه وغرّبوه عمداً عن صيد السمك والتريض، مفضلين أن يغرسوا فيه التوجه الفارغ والمبتذل نحو طموح بائس ومهلك. ولماذا لم يسمحوا له، حتى بعد انتهاء الامتحان، أن يستمتع بأيام العطل التي يستحقها؟.

twitter @baghdad_library

الآن بات المُهر المنهك مرمياً على جانب الطريق، ولم تعد له أي فائدة لأي إنسان.

قرابة بداية فصل الصيف قال طبيب الدولة يشرح حالته مرة أخرى إنها مجرد حالة نفسية، غالباً مردها إلى سرعة النمو، وأن على هانز أن يعتني بنفسه خلال فترة العطل، وأن يأكل جيداً ويقضي وقتاً طويلاً متنزهاً في الغابة؛ وبعدها سيشفى سريعاً.

لسوء الحظ أن الأمر لم يصل إلى تلك المرحلة. فقبل حلول فترة العطل بثلاثة أسابيع تلقى هانز تأنيباً قاسياً من أحد الأساتذة المتقدمين خلال أحد دروس فترة ما بعد الظهر. فبينما كان الأستاذ ما يزال يقيّمه عاد هانز إلى الجلوس في مقعده، وبدأ يرتجف بشكل خارج عن إرادته، ومن ثم انفجر في نوبة مطولة من البكاء تسببت في إيقاف سير الدرس بأكمله. وأمضى ما تبقى من النهار ملازماً سريره.

في اليوم التالي وأثناء درس الرياضيات طُلب منه أن يرسم شكلاً هندسياً على السبورة وأن يقوم بحله شفهياً. فنهض واقفاً ولكن بينما كان يواجه السبورة سيطر عليه دوار، وإذا به يمسك بقطعة طباشير ومسطرة ويخربش خطوطاً لا معنى لها على السبورة، ثم أوقعهما. وعندما انحنى لالتقاطهما، ظل راكعاً على الأرض، وقد عجز عن النهوض على قدميه.

انزعج طبيب الدولة للجوء مريضه إلى مثل تلك الخدع. وغامر بإعطاء رأي حذر، فوصف له إجازة مرضية فورية وأوصى باستدعاء طبيب أخصائي بأمراض الأعصاب.

همس قائلاً للمدير: « إنه يعاني من الرقّاص[1] ». فهز هذا الأخير رأسه ووجد من المناسب أن يبدل تعبير الغضب البغيض

---

[1] الرقاص: مرض عصبي يتميز باختلاجات تشنجية في الوجه والأطراف. ـ المترجم.

المرتسم على وجهه إلى آخر يتسم بالتعاطف الأبوي. لم يجد صعوبة في إحداثه وقد لاءمه كثيراً.

عمل هو والطبيب على تدبيج رسالة موجهة إلى الهر غيبنرات وضعاها في جيب الفتى وأرسلاه إلى وطنه. وتحول غضب المدير إلى تخوف عميق، فماذا ستقول السلطات الثقافية، التي لم تنس بعد قضية هايلنر، في هذه البلية الجديدة؟ وقد عمت الدهشة المدرسة كلها عندما تخلى عن فكرة إلقاء محاضرة كانت تلائم المناسبة. وخلال الساعات الأخيرة هذه عامل هانز بمراعاة غير معهودة فيه. لقد كان جلياً بالنسبة إليه أن الفتى لن يعود من إجازته المرضية، حتى بعد أن يُشفى. فبعد أن فقد مكانته لم يتمكن من التعويض عن الشهور أو حتى الأسابيع التي أضاعها. وودع الفتى بعبارة "إلى اللقاء" قلبية، إلا أنه خلال الأيام القليلة التي تلت ذلك كان كلما دخل قاعة هيلاس ورأى المقاعد الثلاثة الخالية، اضطربت نفسه، وصعب عليه أن يتغلب على الظن بأن ربما جزء من اللوم لاختفاء التلميذين الموهوبين يقع عليه هو. ولكن بما أنه رجل مقدام وقوي نجح في طرد شبح الكآبة، والشكوك العقيمة من تفكيره.

غاص مشهد الدير بكنائسه وبواباته وقبابه وأبراجه مختفياً وراء الطالب الصغير، وهو راحل مع حقيبة سفره الصغيرة، وتلاشت الغابة وسلاسل الهضاب، ونهضت مكانها بساتين المروج الخصبة لمنطقة حدود "بادن"، ثم جاءت مدينة بفورتزايم ومن خلفها مباشرة بدأت أشجار الصنوبر ذات اللون الأسود المزرق لمنطقة "الغابة السوداء"، المتداخلة بعدد هائل من وديان الأنهار، وبدت أعمق زرقة، وأشد برودة وتَعِد أكثر بالظل من أي وقت آخر من قيظ هذا الصيف.

راح الفتى يتأمل في المشهد الطبيعي الذي كان يزداد تبدلاً وألفة بشكل لا يخلو من بهجة، وإلى أن تذكر، مع اقترابه من بلدة

twitter @baghdad_library

مسقط رأسه، أباه، فأفسد القلق المؤلم حول الطريقة التي يمكن أن يستقبله بها كل متعة استمدها من رحلة العودة هذه. واستعاد ذكرى رحلته إلى شتوتغارت لأداء الامتحان وأول وصوله إلى ملبرون عندما انتابه مزيج من الفرح والقلق. ماذا أفاده كل ذلك؟ إنه يعرف كما يعرف المدير أنه لن يعود؛ وهذا يعني نهاية أيام الكلية، والدراسة وكل أمل طموح. غير أن التفكير لم يحزنه، ولم يثقل على قلبه إلا خوفه من والده المخذول الذي خيب له آماله. غير أنه في الوقت الحالي، وبعد كل العذاب الذي تعرض له، لم يكن يرغب إلا في الراحة، في أن يخلد إلى نوم عميق ويبكي ملء قلبه، وأن يُترك وشأنه في سلام ليحلم حتى يرتوي. كان يخشى أن لا يستطيع أن يفعل ذلك في بيته بوجود والده. ومع نهاية رحلة القطار كان قد أصيب بصداع عنيف، وكف عن النظر من النافذة على الرغم من أنهم كانوا عندئذ يخترقون جزءاً مفضلاً من العالم بين تلك الغابات والهضاب، التي كان يتمشى بينها باستمتاع غامر، وكاد يعجز عن الترجل من القطار في محطة بلدته.

ها هو يقف هناك مع مظلته وحقيبته، بينما والده يتفحصه. لقد بدل آخر تقرير قدمه المدير خيبة أمله وسخطه من فشل ابنه إلى نوع من الخوف المرتبك. وكان يتصور أن هانز في حالة انهيار، وعلى الرغم من أنه وجد أنه نحيل الجسم ضعيف البنية، فلم يبد عليه بالضبط سوء الصحة، وعلى أية حال ما يزال يسير على ساقيه، ولا بأس بهذا. أما أسوأ شيء فخوفه من إصابته بالانهيار العصبي، الذي كاتبه عنه الطبيب والمدير. فحتى ذلك الحين لم يكن أي فرد من العائلة قد عانى من أي اضطراب عصبي، ولطالما تحدثوا عن هذا المرض بسخرية قاسية مثلما كانوا يتحدثون عن المجانين، وها هو الآن ابنه هانز عائد إلى المنزل وهو يعاني من شيء مشابه.

فرح هانز لأنه لم يتلق أي تأنيب في يومه الأول في المنزل. ثم أخذ يشعر بالمراعاة المرتبكة، الخائفة، التي كان والده يعامله بها. وكان يبذل فيها جهداً واضحاً. أحياناً كان يدرك أيضاً أن والده يتفحصه بنظرات مدققة وبفضول غريب الشكل، ويكلمه بنبرة صوت ملطفة غير طبيعية ويراقبه متوهماً أن ابنه لا يلاحظه. وكان نتيجة ذلك أن خوفه وصل إلى ذروته وبدأ يعذبه خوف غامض بشأن حالته.

عندما صفا الجو خرج ليتمدد في الغابة في العراء على امتداد ساعات طويلة وشعر بارتياح. وتردد في أرجاء روحه المتوجعة صدى أفراح عهد طفولته الخافت: استمتاعه بمرأى الأزهار والحشرات، ومراقبة الطيور أو اقتفاء آثار الحيوانات، لكنه كان قصير الأمد. كان غالباً ما يسترخي على الطحالب، وهو يعاني من نوبات الصداع، ويحاول عبثاً أن يركز تفكيره في شيء ما إلى أن تغلبه أحلام اليقظة، وتنقله إلى عوالم أخرى.

ذات مرة تتبع الحلم التالي: تراءى له صديقه هرمن هايلنر جثة هامدة ممدة داخل تابوت وأراد أن يتقدم منه، لكن مدير الكلية وأعضاء هيئة التدريس أعاقوه وأبعدوه بضربات قوية إلى الخلف كلما اندفع إلى الأمام. والحاضرون لم يكونوا فقط أساتذة الكلية والمساعدون المستجدون وإنما مدير مدرسته الثانوية والممتحنون في شتوتغارت، وكلهم يحملون تعابير ساخرة على وجوههم. وفجأة انتقل المشهد بسرعة إلى موقع آخر؛ كان الهندوسي الغريق ممدداً في تابوت ووالده الغريب الشكل بقبعته العالية يقف إلى جواره، مقوس الساقين وحزيناً.

ثم رأى حلماً آخر: كان يركض في غابة، يبحث عن هايلنر الهارب، وظل يراه يختفي في المدى البعيد بين جذوع الأشجار كلما أراد أن ينادي عليه. وأخيراً توقف هايلنر وثبت في مكانه،

twitter @baghdad_library

وسمح له أن يقترب منه، ثم قال: «اسمع، أنا لدي حبيبة». ثم أخذ يضج بضحك هادر واختفى بين الشجيرات.

رأى رجلاً نحيلاً ووسيماً، ذا عينين حالمتين، كعيني إله، ويدين رقيقتين، جميلتين، يترجل من قارب، ثم اندفع راكضاً نحوه. وفجأة انقطع الحلم وأخذ هانز يحاول أقصى جهده كي يفهم مغزاه إلى أن تذكر فقرة من الكتاب المقدس "للتو عرفوه، وهرعوا إليه"[1].

ثم أخذ يحاول أن يتذكر تصريف إحدى كلماته اليونانية، ما هي صيغة الحاضر التام، والمصدر، والصيغة التامة، والمستقبل، والفعل، وكان عليه أن يصرّفه بالمفرد والجمع، ولما استعصى عليه الأمر أصيب بالحمى وبالرعب. وعندما لملم أخيراً شتات نفسه، أحس بالألم يمضّ في رأسه من الداخل، وعندما تلوى وجهه لا إرادياً ليرسم ابتسامته القديمة التي تعبر عن الاستسلام والإحساس بالذنب، بدا كأنه يسمع مدير الكلية يقول له: «ما هذه الابتسامة السخيفة؟ امسح هذه التكشيرة عن وجهك».

باختصار، على الرغم من أيام السعادة المتفرقة، لم يطرأ على حالة هانز أي تحسن، بل على العكس. وطبيب العائلة الذي كان قد سهر على راحة أمه في الماضي، ومن ثم وقع على شهادة وفاتها بعد مرضها الأخير، وعالج والده الذي كثيراً ما عاني من نوبات خفيفة من داء المفاصل، كان يرسم على وجهه يوماً بعد يوم تعبيراً مكتئباً مبدياً بذلك رأيه.

خلال تلك الأسابيع بالذات أدرك هانز أنه لم يتبق له أي صديق من فترة السنتين الأخيرتين في المدرسة الثانوية. بعض أصدقاء تلك الفترة غادروا البلدة، وآخرون يراهم الآن يتجولون

---

[1] انجيل مرقص.

كصبية مُتمهّنين ولا شيء يربطه أو يشترك به معهم، ولا أحد منهم يأبه له. وخلال مناسبتين خاطبه مدير المدرسة الثانوية بكلمات ودود، وأستاذ اللاتينية والقس أيضاً كانا يومئان له بتحبب في الشارع، لكن هانز لم يعد يهمهم في شيء. لم يعد وعاءً تحشر فيه مختلف أنواع الأشياء، أو حقلاً يُبذر بتشكيلة من البذور: لم يعد يستحق أن يهدر أحد الوقت ويتجشم العناء لأجله.

كان سيسر الفتى لو أن القس أبدى له شيئاً من الاهتمام، ولكن ماذا كان في وسعه أن يفعل؟ إنه لم يمسك عن الفتى زاد المعرفة، أو على الأقل الرغبة في تحصيلها، وذلك عندما كان يرغب فيها، بالإضافة إلى أنه لم يكن في مقدوره أن يغرزه فيه. ولم يكن ممن يُشك في تضلعهم في اللاتينية أو ممن يأخذ مواعظه من مصادر معروفة، وإنما كان من النوع الذي يلجأ إليه المرء في وقت المحن، لأنه سيحصل على نظرة متعاطفة وكلمة ودود لتخفيف همومه. والهر غيبنرات نفسه لم يكن صديقاً ولا مواسياً مع أنه حاول بكل جهده أن يخفي شعوره بالخيبة المريرة من حالة هانز.

وهكذا شعر الفتى أنه مهجور وغير محبوب، فكان يجلس هنا أو هناك في الحديقة الصغيرة يتشمّس أو يستلقي في الغابة ويستسلم لأحلام يقظته أو لأفكاره المعذِّبة. وكان كلما لجأ إلى القراءة جلب الآلام إلى رأسه وعينيه، لأنه كلما فتح أياً من كتبه القديمة ينهض أمامه شبح أيام كلية إعداد المعلمين بكل بلاياها، وأهاج فيه أحلاماً مفرحة ومرعبة وحدق إليه بعينين متقدتين.

في هذه الحالة اليائسة واليائسة اقترب شبح آخر متخف في هيئة مُواسٍ مخادع ليغدو شيئاً فشيئاً مألوفاً ألفة لا غنى عنها،

twitter @baghdad_library

إنه التفكير في الموت. لقد كان من السهل بمكان تدبير سلاح ناري أو أنشوطة حبل ليدليها من شجرة في الغابة. كانت مثل هذه الأفكار ترافقه تقريباً كل يوم في نزهاته سيراً على قدميه، وأخذ يفتش بهدوء عن البقع المنعزلة إلى أن عثر أخيراً على واحدة رأى أن من الممتع أن يموت فيها ويقرر نهائياً أن يضع حداً لحياته. وأخيراً راح يتردد عليها ويجلس فيها ليستمد متعة غريبة من التفكير في أنهم قريباً سيعثرون على جثته الهامدة هناك. ثم اختار الغصن المناسب لتعليق الحبل واختبر قوته، ولم تعد توجد عوائق تقف في طريقه. وقليلاً قليلاً، على فترات متباعدة، دبج رسالة مختصرة موجهة إلى والده وأخرى طويلة جداً موجهة إلى هرمن هايلنر كان من المفترض أن تكتشف بجوار جثته.

هذه الاستعدادات والإحساس بالأمان الذي منحه إياه قراره كان لها تأثير مفيد على مزاجه. وأخذ يقضي ساعات طوال جالساً تحت الغصن المشؤوم، يزول عنه خلالها الإحساس بالانقباض ويحل محله آخر يكاد يكون بالسعادة.

لم يفهم بالضبط لماذا لم يُقدِم على شنق نفسه قبل زمن طويل، لقد بُتَّ القرار، وتحدد موته، بل أحياناً كان يشعر بأنه على أحسن ما يرام وبعد ذلك لم يعد يستنكف عن الاستمتاع بأشعة الشمس الجميلة أو بالانغماس في أحلام اليقظة، كما يفعل المرء قبل أن ينطلق في رحلة طويلة. لقد كان في وسعه أن يبدأ في أي يوم، فكل شيء قد أُعد وثمة متعة حزينة خاصة في التلكؤ قليلاً بين الأماكن القديمة، والنظر في وجوه الناس الذين لا يعرفون أي شيء عن قراراته الخطيرة. وكان كلما قابل الطبيب لا يسعه إلا أن يقول في نفسه: «الآن سوف ترى».

سمح له القدر أن يبتهج وهو في غمرة نواياه الخفية وراقبه وهو يستمتع ببضع قطرات من السرور والإثارة يتلقفها من كأس الموت. ولعل القدر لم يكن حقاً يأبه بهذه الحياة الغضة المشوهة ولكن يجب أن يُسمح لها أن تكمل دورتها وأن لا تترك الساحة إلا بعد أن تتذوق حلاوة الحياة المرة فترة أطول.

أخذت الأخيلة القديمة المعذّبة والمهيمنة تتلاشى بالتدريج، وأفسحت المجال للامبالاة الضجرة، وللمزاج المتراخي المجرد من الألم، كان هانز وهو فيه يراقب بشرود ذهن الأيام والساعات تعبر وتمضي، ويحدق بهدوء إلى السماء الزرقاء وكان أحياناً يبدو وكأنه يسير وهو نائم أو كأنه اتخذ من أيام طفولته ملجأ. وذات مرة كان جالساً تحت شجرة صنوبر في الحديقة عند الغسق، يدندن بلا انتباه لحناً قديماً يخطر على باله من أيام المدرسة الثانوية:

آه، كم أنا مرهق
آه، كم أنا متعب
لا مال في كيسي
وأنا وحيد منبوذ.

دندن هذا اللحن القديم دون أن يدرك أنه فعل ذلك عشرين مرة متتالية. إلا أن والده كان واقفاً عند النافذة، ينصت، وقد تملكه الخوف. إن هذا اللحن السخيف الأحمق مبهم تماماً بالنسبة إلى طبيعته الناضجة الخيال فعزا ذلك وهو يتنهد إلى ضعفٍ لا شفاء منه في العقل. ومنذ ذلك الوقت أخذ يراقب الفتى بقلق متزايد. وقد لاحظ هانز هذا وانزعج منه ومع ذلك لم يحفزه على أن يتناول الحبل ويستفيد منه على الغصن القوي الذي اختاره.

twitter @baghdad_library

في تلك الأثناء كانت أيام الصيف الحارة قد وصلت وكانت قد مضت سنة كاملة منذ أن أدى الامتحان العام، والعطل الصيفية التي تلت. أحياناً كان هانز يستعيد ذكراها جميعاً بدون أي انفعال عاطفي، والحق أن مشاعره كانت قد تبلدت قليلاً. كان يود لو يعاود صيد السمك من جديد لكنه لم يجرؤ على أن يطلب الإذن من والده في ذلك. كان في كل مرة يقف على حافة الماء بعيداً عن الأنظار يعذبه الشوق، ويتابع بعينين متلهفتين حركات الأسماك القاتمة، والهادئة وهي تسبح. ومع اقتراب المساء يتمشى قليلاً إلى أعلى النهر إلى موقع السباحة، ولما كان لا بد له من أن يمر بمنزل المفتش غسلر الصغير، تصادف أن اكتشف أن إيما غسلر التي كان مفتوناً بها قبل ثلاث سنوات قد عادت إلى منزلها الآن وقد نظر إليها مدققاً مرة أو اثنتين لكنه وجدها أقل جاذبية. كانت فتاة نحيلة الأطراف ذات بنية ضئيلة أنيقة، والآن كبرت في السن، وأصبحت حركاتها أكثر بطءً وصففت شعرها بأسلوب ناضج، حديث، أجرى على مظهرها تغييراً كاملاً. ولم يلائمها ثوبها الطويل وباءت محاولاتها في أن تظهر بمظهر السيدة المحترمة بالفشل الذريع. لقد بدت لهانز أشبه بنكتة لكنه أحس في الوقت نفسه بالأسى حين تذكر وهج الدفء الغامض بشكل غريب الذي كان يشعر به في الأيام الخوالي كلما وقع بصره عليها. لكن في تلك الأيام كان كل شيء مختلفاً، كان أجمل، وأشد مرحاً وحيوية. منذ زمن طويل وتجربته تقتصر على مجال اللاتينية، والتاريخ، واليونانية، والامتحانات، والمعهد اللاهوتي ونوبات الصداع. في الزمن السابق كانت هناك كتب الحكايات الخرافية، وقصص عصابات اللصوص، وكان قد ركّب مطحنة بيتيّة، وفي المساء كان ينصت إلى قصص المغامرات من ليز عند مدخل منزل آل

ناشولد، وفي تلك الأيام ظل فترة من الوقت ينظر إلى الجار غروسيوهن، المكنى بغاريبالدي، على أنه لص قاتل، وكان يرى كوابيس عنه، وكان يوجد على مدار العام ما يمكن أن يتطلع لحدوثه في كل شهر- صنع التبن وحصد النفل، ثم بداية موسم صيد السمك أو جراد البحر وجمع حشيشة الدينار، وقطف الخوخ بهز أشجاره، وحرق الأعشاب الضارة في حقول البطاطا، وبدء الدرس. وبين كل هذه الأعمال كانت أيام الآحاد وأيام العطل. لقد كانت هناك أشياء لا حصر لها تجذبه بسحرها الخفي - المنازل، الشوارع الضيقة، مخازن التبن، النوافير، الأسيجة، البشر والحيوانات من كل صنف ونوع، كلها كانت إما مألوفة وحبيبة أو ذات فتنة غامضة. وكان يقدم يد المساعدة في جمع حشيشة الدينار ويصغي إلى غناء القرويات، ووقع على بعض الأبيات الشعرية في أغانيهن كان أغلبها هزلياً بشكل غريب ولكن كان بينها ما هو مترع بالحزن إلى درجة أنه يشعر بغصة وهو ينصت إليها.

لكن هذا تبدد وانقضى بدون أن يلاحظ ذلك. أولاً لم تعد هناك أمسيات يقضيها في منزل لين، وكذلك صيد سمك المنوّه في صباح الآحاد، وقراءة القصص الخرافية، وهكذا انتهت الأشياء واحداً بعد أخر حتى جمع حشيشة الدينار والمطحنة اليدوية في الحديقة. أين ذهبت تلك الأيام كلها.

وهكذا كان الفتى المبكر النضج يعيش طفولة جديدة، وهمية خلال أيام مرضه تلك. ومزاجه الذي عاد به إلى عهد الطفولة اندفع إليها بقوة مفاجئة اشتياقاً إلى تلك السنين الآفلة، الرائعة، وراح يتجول مذهولاً في غابة من الذكريات تراءت له بقوة وصفاء مرجعها ربما إلى مرضه. عاشها كلها

twitter @baghdad_library

بدفء وولّه الواقع الذي عاشه سابقاً؛ جاشت طفولته المنتهكة والمضلّلة داخله كنبع طال حبس مياهه.

عندما تُقطع قمة الشجرة تنبت فروع جديدة عن أسفلها وأيضاً، بالطريقة نفسها تجد الروح التي دُمرَت في مهدها طريق عودة إلى نبع البدايات والطفولة ذات البصيرة، وكأنها تأمل في أن تكتشف هناك آمالاً جديدة وتصل من جديد الخيوط المقطوعة. وبسرعة وبقوة تنمو الجذور، غزيرة النسغ، لكنها فقط تشبه الحياة ولن تصبح أبداً شجرة كاملة.

هكذا كان حال هانز غيبنرات، لذا علينا أن نصحبه مسافة أطول في رحلة أحلامه في أرض الطفولة.

كان منزل آل غيبنرات يقوم بالقرب من الجسر الحجري العتيق ويشكل ناصية شارعين مختلفين كل الاختلاف. أحدهما - والذي كان يُعتبر أن المنزل ينتمي إليه - كان أطول، وأعرض وأفضل شارع في البلدة، ويدعى غربرشتراس (شارع المدبغة). والآخر الذي يؤدي بانحدار حاد إلى أعلى التل كان قصيراً، ضيقاً، ومُغماً ويدعى "تزوم فالكن" (شارع البان) تيمناً باسم نُزُل عتيق أزيل منذ زمن بعيد، كان يحمل شارة طائر البان.

كان كل منزل كائن في شارع الغربرشتراس يقطنه مواطنون متماسكون، صالحون، لهم منازلهم الخاصة، ومدافنهم الخاصة، وحدائق تزدهر على مصطبات منحدر التل أسيجتها، التي أقيمت في ستينات القرن الماضي، تحد نطاق سكة الحديد وقد ترعرع فيها نبات الرتم الأصفر. والمنافس الوحيد لشارع غربرشتراس في مجال الأبنية الراقية، كان الساحة العامة للبلدة حيث الكنيسة، ودار المجلس ودار الحكمة، ومقر البلدية ومقر القس بما يحيط بها من محترميّة لا تشوبها شائبة، أضفت مسحة نبيلة من الكبرياء المدينية. صحيح أن شارع غربرشتراس لم يكن يضم أي أبنية رسمية ولكن كان يتألف من منازل جميلة،

شبه خشبية، وقباب براقة تشد الأبصار إليها، وهو يدين بمظهره المريح والودود إلى كونه يتألف من صف واحد من المنازل، أما على الجانب الآخر من الشارع، وعند أسفل جدار قائم، مدعّم بركائز خشبية، فكان يجري نهر.

إذا كان شارع غربرشتراس طويلاً، عريضاً، وضاءً، فسيحاً، وأنيقاً، فإن شارع فالكن كان على النقيض منه. كنت تجد بيوتاً متداعية، حقيرة، مكسوة بجص هش، بيوت تنتأ منها قباب، وأبواب ونوافذ تصدعت مراراً ثم أُصلحت، ومداخن ملتوية ومجارير متكسرة. البيوت تتخاطف الضوء، والحيز. وكان الشارع ضيقاً ومتعرجاً بشكل غريب، وزيادة على ذلك كان مكفّناً بشفق أبدي يتحول إلى ظلام رطب في الطقس الممطر، أو بعد غروب الشمس. وترى دائماً الكثير من الغسيل معلقاً من السواري والحبال، لأن الزقاق كان قصيراً وفقيراً ويضم عدداً هائلاً من العائلات بالإضافة إلى المستأجرين من الباطن، والذين يقطنون ليلة واحدة هناك. كانت المنازل المتداعية مزدحمة في كل ركن منها، والحي كله كان بؤرة من الفقر، والرذيلة والمرض. وعندما كان مرض الكوليرا يتفشى، كان يبدأ من هناك، وكذلك الجريمة، وإذا حصلت سرقة يتم أولاً تفتيش شارع فالكن. الباعة المتجولين يسكنون هناك، بما فيهم بائع مسحوق الغسيل الهزلي، هوته هوته، وشاحذ السكاكين، آدم هيتل، الذي نُسبت إليه كل أنواع جرائم القتل والرذيلة. خلال دراسته الأولى كان هانز ضيفاً دائماً على شارع فالكن. وكان بصحبة عصبة مريبة من الفتية الرثي الثياب ذوي الشعور التبنية اللون يصغون إلى قصص الإجرام التي ترويها لوته فرومولر السيئة السمعة، التي كانت مطلقة صاحب حانة صغيرة، وقد أمضت خمس سنوات من عمرها في السجن. وخلال

twitter @baghdad_library

سنوات صباها كانت مشهورة بجمالها، وكان عشاقها كثر بين عمال المصنع وكانت سبباً لوقوع حوادث فاضحة وطعن بالسكاكين. وهي الآن تعيش وحدها، وتقضي أمسياتها، بعد أن تغلق المصانع أبوابها، في صنع القهوة ورواية الحكايات. وفي تلك الأوقات يظل باب بيتها مفتوحاً واسعاً وبالإضافة إلى تردُّد النسوة والعمال الشبان، كان يصغي إلى قصصها المرعبة جداً باستمرار حشد من الجيران والأطفال عند عتبة بابها. كان الماء الذي يُغلى في الإبريق على موقد من الحجر الأسود، والشمعة المضاءة من الشحم الحيواني بالقرب منه، وضوء اللهب الأزرق من نار الفحم الصغيرة الذي ينير الظلمة، والمكان المزدحم مع خفقات الضوء المخيفة التي تلقي ظلال المستمعين على الجدران والسقف بشكل معظم، كانت كلها تمنحهم تحركات مرعبة.

هنا تعرَّف الصبي ذو الثماني سنوات إلى الأخوين فنكنباين وحافظ على صداقتهما على مدى عام متجاهلاً بذلك تحذير والده الصارم. وكان دولف وإميل، وهما اسماهما، صاحبي أشد سمعة مثيرة للريبة بين صبية البلدة، كان معروفاً عنهما سرقتهما للبساتين، وانتهاكهما لقوانين الأحراج، وارتكابهما أعمالاً مؤذية لا حصر لها. وتاجرا أيضاً في بيض الطيور، وخردقات الرصاص، وأفراخ الغربان، وطيور الزرزور والأرانب، وخرقا قانون البلدة كلها لأن الأسيجة لم تكن شائكة، بما فيه الكفاية، ولا الأسوار محمية كفاية بكسارة الزجاج لترد عن تسلقهما وتجاوزها بلا أي صعوبة.

الصداقة الأمتن عقدها مع هرمن ريختنهايل الذي يقطن في حي فالكن. كان صبياً يتيماً، ناضجاً قبل الأوان، سقيم الصحة، وغير عادي. ولأن إحدى ساقيه أقصر من الأخرى كان مضطراً إلى استخدام عصاً أثناء السير، ولم يكن قادراً على المشاركة في

ألعاب الشارع. كان ضئيل البنية وشاحباً ذا وجه مشدود القسمات ينتهي بذقن مدببة. وكان ذا موهبة خارقة في كل ما له علاقة بالبراعة اليدوية، ومولعاً بصيد السمك، وقد نقل ولعه هذا إلى هانز. وفي ذلك الوقت لم يكن يسمح لهانز بممارسته لكن ذلك لم يمنعهما من صيد السمك، كانا يصطادان في بقع مختلفة مستترة لأنه إذا كانت الرياضة متعة، فإن ارتكاب الأعمال المحرمة، كما هو معروف، إثارة فريدة. وعلّم ريختنهايل الأعرج هانز كيف يقتطع صنارة جيدة لصيد السمك، وكيف يجدل شعر الخيل، وكيف يصبغ الخيوط، وكيف يفتل عِقَد المنزلقة[1]، وكيف يسن خطاف الصنارة. علّمه أن يتتبع تقلبات الطقس، ويتفحص الماء، ويعكره بالنخالة، وينتقي الطعم المناسب، ويثبته بفعالية، علمه كيف يميز أنواع السمك المختلفة وكيف يراقب السمك ويبقي الخيط على عمق مناسب. كان بمجرد حضوره وقدوته ينقل إليه بدون كلام مغزى ورهافة الاحساس بتوقيت شد الخيط وإرخائه. وكان لا يقابل الصنانير، وفلين الصيد، والخيوط الحيوانية، وكل المعدات المصنَّعة، إلا بعبارات الاستهجان. وأقنع هانز بأنه لا يمكن إنجاز صيد ناجح إلا إذا كان كل جزء من العدة مصنوعاً يدوياً ومركباً يدوياً كذلك.

تسبب شجارٌ في قطع علاقة الأخوين فنكنباين بهانز لكن قطع علاقة ريختنهايل الأعرج، الهادئ، به لم يكن سببه اختلاف في وجهات النظر. لقد تمدد هكذا ببساطة ذات يوم من شهر شباط على سريره الصغير المثير للشفقة، ووضع عكازه فوق ملابسه على الكرسي، وانتابته حمى شديدة، ومن ثم بسرعة

---

[1] العقدة المنزلقة: عقدة تنزلق على طول الحبل فتجعل الأنشوطة قابلة للتوسيع والتضييق. ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

وبهدوء، مات. نسيه سكان حي فالكن للتو، وحده هانز حمل له ذكرى عطرة.

غير أن هذا لم يستنفذ عدد سكان شارع فالكن الهائل. فكل الناس كانوا يعرفون ساعي البريد روتيلر، الذي كان قد طرد من عمله بسبب السُكر وكان ينطرح من فرط السُكر في المجرور بانتظام مرة كل حين، أو يتورط في فضائح ليلية، لكنه فيما عدا ذلك كان أشبه بطفل مهذب ويبتسم لكل إنسان بسماحة، وكان يفيض بالود. وكان يسمح لهانز أن يأخذ قدراً من صندوق سعوطه الأنفي. وأحياناً يقبل منه بعض السمك، فيشويه بالزبدة ويدعو هانز لمشاركته طعام العشاء، وكان لديه صقر محنّط ذو عينين زجاجيتين وساعة حائط عتيقة بدل أن تدق تصدر أنغاماً راقصة قديمة بنبرة رفيعة رقيقة. ومن كان لا يعرف الميكانيكي العجوز بورش، الذي لم يكن يتخلى عن ربطة عنقه، حتى وهو يسير حافي القدمين؟ ولما كان ابن أستاذ يدرِّس في مدرسة داخلية، صارماً من النمط القديم، كان يحفظ غيباً نصف الكتاب المقدس، بالإضافة إلى عدد لاحصر له من الأمثال والأقوال المأثورة، ولكن لا هذا ولا شعره الأبيض الناصع منعاه من قطع صلته بالنساء كلهن، ومن أن يسكر باستمرار. وعندما كان يسكر كان يستمتع بالجلوس على حافة الطريق عند ناصية منزل آل غيبنرات، ينادي على المارة بأسمائهم ويزودهم بسيل عارم من الأقوال المأثورة.

« أيها الصغير هانز غيبنرات، يا بني العزيز، أنصت إلى ما أقول، ماذا يقول الاكليبسياستكوس[1]؟ طوبى لمن لم يزل بفمه

---

[1] كتاب الإكليبسياستكوس: أحد أسفار الأبوكريفا الأربع عشرة، تُلحق أحياناً بالعهد القديم من الكتاب المقدس. لا يعترف البروتستانت بصحتها. ـ المترجم.

ومن لم يُدِنْهُ ضميره. فكما تسقط بعض أوراق شجرة كثيفة وينمو بعضها الآخر، كذلك جيل اللحم والدم، واحد ينتهي أجله والآخر يولد. والآن أيها الوغد الصغير، يمكنك أن تذهب إلى البيت».

على الرغم من أقواله الورعة، إلا أن العجوز بورش كان مملوءاً بالحكايا الأسطورية، الشريرة، عن الأشباح وما إلى ذلك. وكان يعرف الأماكن التي كانت تسكنها وكان في قصصه يتذبذب ما بين الإيمان والكفر. وكان عادة يبدأها بنبرة شك، متبجحاً وأيضاً مستخفاً بنفسه، وكأنه يسخر من القصة، ومن المنصتين إليها، ولكن شيئاً فشيئاً ومع تقدم سرد الحكاية، إذ به يجلس القرفصاء بحركة متوترة، ويخفض من نبرة صوته أكثر فأكثر إلى أن يغدو في النهاية همساً غريباً، متوغلاً وهادئاً.

يا للأسرار الغريبة، المخيفة، المشؤومة، التي يأويها هذا الشارع الصغير، البائس!.

هناك أيضاً كان يقطن بريندل، القفَّال[1]، لجأ إلى هناك بعد أن انهار عمله وأصاب الدمار الكامل دكانه المهمل. كان يجلس أغلب ساعات النهار عند نافذته الصغيرة، ينظر باكتئاب إلى الشارع الذي يعج بالحياة، وأحياناً عندما كان أحد الأولاد القذرين الجامحين من المنازل المجاورة يقع في قبضة يده، يُنزل به صنوف العذاب بمرح شرير، يعرك أذنيه، ويشد له شعره، ويقرصه حتى يتحول جسمه كله إلى بقع سوداء وزرقاء. ولكن ذات يوم عُثِرَ عليه مشنوقاً في بيت السلم، بدا فظيعاً ومرعباً حتى أن أحداً لم يجرؤ على الاقتراب من جثته إلى أن عمل الميكانيكي العجوز بورش على قص السلك بجلَم[2] معدني من

---

[1] القفَّال: صانع الأقفال ومصلحها. ـ المترجم.

[2] الجلَم: مقص كبير. ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

الخلف فغاصت الجثة بلسانها البارز إلى الخارج إلى الأمام، وسقطت بصوت مكتوم على الدرج، واندفعت وسط النظّارة المرعوبين.

كان هانز في كل مرة يغادر شارع غربرشتراس الواسع، البراق إلى شارع فالكن، المعتم، والرطب، يغمره جو خانق وغريب، إحساس مثير بالضيق، مزيج من الفضول، والخوف، والاحساس بالذنب، والهاجس الممتع. لقد كان شارع فالكن هو المكان الوحيد الذي يمكن لحكاية خرافية، لمعجزة، لحادث مرعب رهيب أن يقع فيه، حيث أي نوع من السحر قابل للتصديق، حيث من الممكن الإيمان بالأشباح، وحيث يمكنك أن تشعر برعشة الإثارة نفسها التي تنتابك وأنت تقرأ الأساطير القديمة، وحكايا أهالي روتلينغر التي كان أساتذة المدارس يصادرونها، والتي تعرض للأعمال الشريرة والعقوبات التي أنزلت بأنذال أمثال آل سوننفرتل، وشندرهان، وبوستميشل، وجاك السفاح، وأبطال أشرار آخرين، وقتلة ومغامرين.

خلاف شارع فالكن كان هناك مكان آخر يختلف عن غيره من الأماكن وفي وسعك أن تسمع فيه وتختبر أموراً فريدة، وتضل طريقك في مستودعات مظلمة وغرف غريبة الشكل. لقد كانت المدبغة الكبيرة المجاورة، المنزل القديم الضخم حيث تعلّق جلود الحيوانات الضخمة الحجم في مستودعات معتمة، حيث فجوات مستترة وممرات مرتجة في القبو وحيث في الأمسيات تحكي ليز حكاياتها الرائعة لكل الأطفال. كان مكاناً أكثر هدوءاً، وألفة، وإنسانية من شارع فالكن، لكنه لم يكن يقل عنه غموضاً. لقد كانت نشاطات الدباغين في مختلف الغرف، وفناء القبو وفي الطوابق كافة، غريبة، خاصة جداً، والغرف الشاسعة المساحة كانت هادئة بقدر ما كانت آسرة، والسيد الآمر ذو البنية القوية

يتجنبه الجميع ويرهبه كغول، وكانت ليز تتجول في أرجاء البناء الهائل كجنيّة راعية وأم لكل الأطفال والطيور، والقطط والجراء، تفيض بالعطف والحكايات والأغاني.

انتقلت الآن أفكار هانز وأحلامه إلى هذا العالم الذي طالما كان غريباً عنه. هرب من خيبة أمله الكبرى ويأسه ولجأ إلى الأيام الخوالي الطيبة عندما كان ما يزال يتعلق بالآمال وكان يرى العالم يقف أمامه كغابة سحرية شاسعة الأرجاء، تخفي في داخلها مخاطر رهيبة، وكنوزاً ملعونة وقلاعاً زمردية لا تقهر. لقد وجد درباً صغيراً إلى هذا الغاب ثم ناله التعب قبل أن يقع أي حدث عجائبي، وها هو الآن يقف مرة أخرى عند المدخل الغامض، وهذه المرة مُبعد، لكنه ما زال مشدوداً إلى هناك بفضول خامل.

كرر هانز زيارته لشارع فولكن مرات عدة. وجد القذارة المألوفة ورائحة الشر، الزوايا المعتادة وبيوت السلالم المعتمة، كان الرجال والنساء الشائبو الشعور ما يزالون واقفين أمام الأبواب، والأطفال القذرون الشُقر الشعور يتراكضون ويزعقون. بورش، الميكانيكي الذي طعن في السن، فشل في أن يتعرف إلى هانز، ورد على تحيته الخجول بحماقة هازئة. كان غروسيوهان، المكنى بغاريبالدي قد توفي، وكذلك لوته فروموللر. روتيلر، ساعي البريد السابق كان ما يزال موجوداً، اشتكى من أن الأولاد كسروا ساعته الكبيرة وقدم لهانز صندوق السعوط ومن ثم حاول أن يستجدي نقوداً منه. وأخيراً نقل إليه أن أحد الأخوين فنكنباين يعمل الآن في مصنع السيجار وأنه قد بدأ منذ الآن يجرع الخمر كسمكة، أما الآخر فاختفى بعد شجار جرى بالخناجر خلال سوق خيرية أقامتها الكنيسة. وأنه مختف منذ عام. لقد بدا الوضع كله غاية في القذارة ومغماً بالنسبة إلى هانز.

twitter @baghdad_library

وذات مساء انتقل إلى المدبغة، شعر بما يشده إلى هناك خلال البوابة وعبر فناء المدبغة الرطب، وكأن عهد طفولته مخبأ داخل البناء العتيق الشاسع بمتعه البائدة.

ارتقى الدرج اللولبي واجتاز الرواق، ووصل إلى بيت السلّم المظلم، وتلمس طريقه حتى وصل إلى المستودع حيث جلود الحيوانات معلقة. وبينما كان يستنشق رائحة الجلد المدبوغ، اللاذعة، انقض عليه فجأة حشد من الذكريات.

هبط الدرج من جديد، وعاد إلى الفناء حيث حُفَر المدبغة والهياكل العالية، الضيقة السقوف، التي أنشئت لتجفيف قطع لحاء الدباغة المضغوط. وكما توقع وجد ليز جالسة على مقعد طويل عند الجدار، وقد وضعت أمامها سلة من البطاطا من أجل التقشير، وحفنة من الأولاد المتلهفين ينصتون إليها وهي تروي لهم الحكايات.

وقف هانز في ممر الباب الذي يغمره الظلام وأخذ يسترق النظر. كان الوقت أول الليل وفناء المدبغة يخيم عليه سكون عميق، وفيما عدا غرغرة خافتة من النهر الذي يجري من خلف الجدار لم يكن يُسمع غير صوت سكين ليز وهي تكشط البطاطا وصوتها وهو يسرد حكاياتها. وكانت تحكي أسطورة القديس كريستوفر، وكيف سمع ذات ليلة صوت طفل يصرخ من الضفة الأخرى للنهر.

مكث هانز ينصت بعض الوقت، ثم اجتاز الردهة المظلمة وعاد أدراجه إلى منزله. أصبح يعرف الآن أنه لن يعود طفلاً أبداً ويجلس عند قدمي ليز في فناء المدبغة، ومنذ ذلك الحين تجنب الذهاب إلى المدبغة، وأيضاً إلى شارع فالكن.

twitter @baghdad_library

6

كان فصل الخريف يتقدم بخطى حثيثة، فكنت ترى أشجاراً نفضية متفرقة تتوهج بلوني الأصفر والأحمر كمشاعل بين غابات الصنوبر، والوديان وقد امتلأت بضباب كثيف، والبخار يتصاعد من الوديان في جو الصباح البارد.

كان الطالب السابق الشاحب اللون يتمشى في الهواء الطلق كل يوم، كئيباً وضجراً، يتجنب الفرص القليلة التي تتاح له للمخالطة الاجتماعية. وكان الطبيب قد وصف له تناول قطرات من دواء، وزيت كبد سمك القدّ، والبيض، وأخذ حمامات باردة.

لا عجب أن أياً من هذه الأشياء لم يفده بشيء. فكل حياة صحية يجب أن يكون لها هدف ومعنى، وقد فقد الفتى غيبنراث كليهما. كان والده عندئذ قد صمم على أن يخيره بين أن يصير موظفاً رسمياً أو أن يتعلم حرفة ما، لكنهم قريباً سوف يفكرون في القضية ويناقشونها معه بجدية.

منذ أن خفّت غلواء ردود أفعاله المضطربة وكف عن التفكير في الانتحار، انتقل هانز من تقلبات مزاجه القلق، السريع الهياج، والمتقطع إلى حالة من الكآبة المضطردة. كان يغوص فيها ببطء وعجز وكأنه يغوص إلى أعماق طمي لزج.

في ذلك الوقت كان يتجول في مروج الخريف ويستسلم لتأثير الفصل. كان انحدار العام إلى نهايته، والسقوط الصامت لورق الأشجار والحقول بلونها الخمري، وضباب الصباح الباكر الكثيف، والاحتضار المرهق للحياة النباتية، يجرفه، كما يحدث مع كل المرضى، إلى أمزجة وأفكار ثقيلة الوطأة وعاجزة عن الحزن العميق. تمنى لو يذوي، لو يستغرق في النوم، وحتى لو يموت، وتفاقم إحساسه هذا لأنه يجري عكس اتجاه غرائزه الشابة التي تتشبث بالحياة بعناد هادئ.

راقب الأشجار وهي تتحول من اللون الأصفر إلى البني، وأخيراً وهي تفقد أوراقها. وشاهد الضباب الناصع البياض يرتفع كما الدخان من الغابات، والحدائق التي تحتضر فيها الحياة، بعد جمع آخر الثمار، وأزهار النجمية التي لم تعد تلفت انتباه أحد، والنهر الذي انتهى موسم السباحة وصيد السمك فيه وغطت سطحه أوراق الأشجار الذاوية، ودرب سيارات القطر التي يغطيها الصقيع مقفرة، اللهم إلا من بعض الدباغين الأشداء. وكان منذ بعض الأيام يجمع أكواماً من لب التفاح، فقد كان الجميع منشغلين في صنع عصير التفاح في سقيفات العصر وفي المعاصر كلها، وكان عبق العصير الطازج، المُسكر قليلاً يجتاح شوارع البلدة كلها.

في المعصرة السفلى، كان فليغ، الإسكافي، قد استأجر معصرة صغيرة ودعا هانز إلى مساعدته في إعداد محصول عصير التفاح.

في ساحة أمام المعصرة كانت توجد معاصر كبيرة وصغيرة، وعربات نقل، وسلال، وأكياس ملأى بالثمار، وأحواض، وروا قيد[1] وبراميل، وتلال ضخمة من اللب، وعتلات خشبية،

---

[1] رواقيد: جمع راقود: وعاء أو دن ضخم للسوائل يستخدم للتكرير أو للتخمير. ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

وعربات جروسائل نقل أخرى فارغة. كانت المعاصر تضج بالحركة، وتصدر سلسلة من أصوات الصرير والأنين والطحن. وأغلب هذه المعاصر كان مطلياً باللون الأخضر. وهذا اللون الأخضر بالإضافة إلى لون الأسمر المصفر للب، ولون سلال التفاح، والنهر الأخضر البراق، والأطفال الحفاة، وضوء شمس الخريف الصافي، كانت تمنح انطباعاً بالفرح، وحب الحياة، والوفرة للناظرين. وكان صوت طحن التفاح صوتاً خشناً ويثير الشهية. ولم يكن في وسع من يمر بالمكان ويسمعه إلا أن يتناول تفاحة ويقضمها. وكان العصير الطازج، والحلو المذاق، يتدفق من فوهة على شكل سيل ثخين، ذي لون أصفر محمر، يضحك في وجه الشمس، وكل من يقترب ويشاهد هذا المشهد سرعان ما يطلب كوباً ليتذوق عيّنة منه؛ ثم يقف هناك وعيناه تترقرقان وهو يتلذذ بحلاوتها، ويسري فيه إحساس بالارتياح. ويعبق الهواء المحيط برائحة عصير التفاح الحلو، المنعشة، والقوية واللذيذة. إنها أفضل رائحة يمكن شمها على مدار العام، تمثل جوهر النضج، والحصاد والإحساس بها في المنخرين ممتع قبل حلول الشتاء القادم، فعندئذ سوف تذكر بكل امتنان حشداً من الأشياء الممتعة والرائعة: مطر أيار الناعم، وأشعة الشمس الرقراقة، وندى صباح خريفي بارد، وضياء شمس الربيع الرقيق، وحرارة الصيف الساطع، والبراعم البيضاء الوضاءة والحمراء الوردية، والومض الناضج الأسمر المحمر للأشجار المثمرة قبل قطف الثمار. ويجمع بين هذا كله، ما جلبته معها دورة عام كامل من جمال ومتعة.

لقد كانت أياماً طيبة بالنسبة للجميع. كان الأثرياء الراقون من الناس، هذا إذا ما تلطفوا وتعطفوا وظهروا شخصياً، يزنون تفاحهم الكبير بأيديهم، ويعدُّون أكياسهم الكثيرة،

ويتذوقون عينات من العصير من كأس كبير ليبينوا أن عصيرهم لا يحتوي قطرة واحدة من الماء. أما الفقراء من الناس فلم يكن في وسع الواحد منهم أن يجلب أكثر من كيس واحد من الثمار. كانوا يأخذون عينات من العصير في كؤوس عادية أو صحون من الفخار ويضيفون إليه الماء، لكنهم لم يكونوا بأي حال من الأحوال أقل شعوراً بالفخر وبالابتهاج بما جلبوا. والذين لم يكن في مقدورهم، لسبب من الأسباب، أن ينتجوا العصير، كانوا يجدون من يعطيهم ملء كأس منه ليشربوا وتفاحة في الجيب، ويبينوا عن طريق ملاحظات خبيرهم أنهم يعرفون دورهم في هذا العمل. وكان العديد من الأطفال، الأغنياء منهم والفقراء، يتراكضون في المكان وهم يحملون أباريق صغيرة، وكل منهم كان يحمل تفاحة في يد يقضم منها وقطعة ضخمة من الخبز في اليد الأخرى، وكما يجري قول مأثور لا يعرف له مصدر - إذا أكلت خبزاً في موسم جمع عصير التفاح فلن تصاب بالإسهال.

إلى جانب ضجيج الأطفال كانت تسمع مئات الأصوات، وهي تهتف في وقت واحد، وكلها تعبر عن الإثارة والمرح.

« تعال إلي هنا يا هانس! هات كأساً أخرى ».

« لا، شكراً، لأني مصاب بالإسهال فعلاً! ».

« ماذا تدفع لي مقابل هندريدويت[1]؟ ».

« أربعة ماركات. لكنه ممتاز. جرِّب رشفة ».

أحياناً كان يقع حادث صغير مؤسف. كأن يسقط كيس من التفاح قبل أوان فتحه ويخرج منه التفاح ويتدحرج على الأرض.

---

[1] الهندريدويت: من الأوزان، في إنكلترا يعادل 112 باوناً. في الولايات المتحدة يعادل مائة باوند.

twitter @baghdad_library

« يا إلهي، تفاحي! ساعدوني يا ناس! ».

ويهبوا جميعاً للمساعدة في جمعه، ويحاول بعض المعدمين أن يستغلوا الفرصة لصالحهم.

« هيه أيها الهوام، لا تضعوا شيئاً في جيوبكم! املأوا بطونكم قدر ما تشاؤون ولكن ليس جيوبكم. انتظروا، يا أولاد الحرام ».

« هيه، يا جار، لا تكن متكبراً هكذا! تعال وتذوق. إنه حلو كالعسل! كم أنتجت أنت؟ ».

« برميلين، لا أكثر. ولكن كله من النوع الجيد ».

« حمداً لله أننا لا نصنع عصير التفاح في عز الصيف، وإلا لاستهلكناه للتو ».

كان هناك بعض العجائز النكدين حاضرين ولم يفتهم الاحتفال. إنهم لم ينتجوا العصير منذ وقت طويل، لكنهم يعرفون أكثر من غيرهم عن سر المهنة، وكانوا يتحدثون عن العام كذا عندما كان المحصول وافراً إلى درجة أنهم كانوا يوزعون الثمار مجاناً. وكل شيء كان أرخص سعراً بكثير وأفضل ولم يكونوا يضيفون أي سكر إلى العصير في تلك الأيام، فقد كانت الثمار غاية في الحلاوة.

« كم كان المحصول جيداً في تلك الأيام. كان عندي شجرة تفاح تعطي وحدها خمسة هندريدويت ». وعلى الرغم من أن الأحوال أصبحت أسوأ الآن، فإن العجائز المتذمرين لا يمانعون الآن في أن يمدوا يد المساعدة، وأولئك الذين ما زالوا يملكون بعض الأسنان كانوا يمضغون حصتهم من التفاح. وقد بذل أحدهم أقصى جهده لمضغ بعض ثمار الأجاص وكان يعاني من الإسهال.

أخذ يدمدم: « هذا ما كنت أقوله؛ أيام زمان كنت آكل عشراً دفعة واحدة ». ثم أطلق ثلاث تنهيدات عميقة وهو يفكر في الوقت الذي كان يأكل فيه عشراً من هذه الأجاصات الكبيرة قبل أن يصاب بمغص الإسهال.

كانت معصرة الهر فليغ تقع وسط الحشد وقد لجأ إلى مساعدة متمهن أكبر سناً منه. وكان يحصل على تفاحه من منطقة بادن، وكان عصيره دائماً هو المفضل. كان قانعاً بهدوء ولم يقم بأي محاولة لإحباط همَّة أي شخص من خلال تذوق عينة. وكان أولاده، الذين كانوا يتنقلون حوله بمرح غامر وسط الازدحام أكثر قناعة منه. أما الأشد قناعة بينهم ولم يبد عليه ذلك فكان المتمهن الذي دربه. لقد كان سعيداً بكل جزء من جسمه لأنه كان قادراً على الخروج والعمل في الهواء الطلق، فقد نشأ في كوخ فلاح فقير في الغابة، وكان يجد متعة بالغة في الإحساس اللذيذ بالرفاهية الذي يستمده من الحلاوة الرائعة. وكان وجهه وجه فتى فلاح صحيح، يحمل تكشيرة تشبه تكشيرة ساطير، ويدا الإسكافي كانتا أشد نظافة حتى مما تكونا أيام الأحد.

عندما وصل هانز غيبنراث إلى الساحة كان هادئاً وعصبياً. لم يكن متلهفاً للحضور. لكن كأساً كبيراً قُدّم له عند أول معصرة وصل إليها، إنها معصرة ليز العاملة عند آل ناشولد. تذوقه، وحالما ابتلعه فاض بذكريات مرحة عن فصول خريف سابقة مصحوبة بمذاق عصير تفاح مُسكر، وحلو، واشتياق متردد إلى المشاركة من جديد في الجو المرح. وتحدث إليه المعارف، وقدمت إليه الكؤوس، ومع وصوله إلى معصرة فليغ، كان المرح الشائع والشراب قد جعلا منه شخصاً آخر تماماً. حيّا الاسكافي باحترام وأطلق بضع نكات تقليدية عن عصير التفاح. فرحَّبَ فليغ به وهو يخفي دهشته.

بعد مرور نصف ساعة وصلت فتاة ترتدي تنورة زرقاء، فابتسمت للاسكافي ولمدربه وباشرت بمساعدتهما.

twitter @baghdad_library

قال الاسكافي: « نعم، هذه قريبتي من هايلبرون. إنها متعودة على نوع مختلف من فصول الخريف، إن المنطقة التي تنتمي إليها تنتج النبيذ ».

كان عمرها يبلغ نحو الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، حيوية ومرحة كمثيلاتها من صاحبات المُلك، وكانت ضئيلة الجسم، متينة البنية، ومستقيمة القوام. عيناها السوداوان، الدافئتان، وفمها الجميل، الشهي، تفيض بالمرح وبالذكاء على صفحة وجهها المدوَّر. كانت مثالاً حياً لمواطني هايلبرون، صحيحة الجسم، ومفعمة بالحيوية، وإن لم تكن تشبه في شيء قريبها الاسكافي الورع. فقد كانت دنيوية قلباً وقالباً، وعيناها ليستا عينا شخص متعود على قراءة الكتاب المقدس و"منتخبات" غوسنر ليلاً.

فجأة بدا الغم على هانز وتمنى لو أن إيما تبتعد. لكنها مكثت هناك، تضحك وتثرثر، وتعطي ردوداً مناسبة على كل مزحة، وأخذ هانز يزداد ارتباكاً ولزم الصمت. كان يكره أن يتجول بصحبة فتيات يسمع منهن عبارات يضطر إلى أن يتبادل معهن عبارات خاصة بالراشدين، وهذه الفتاة تضج بالحياة، وكثيرة الكلام، وتتجاهل تماماً وجوده وارتباكه فكظم غيظه لعجزه عن فعل أي شيء. وقد تأذّى قليلاً، وتقوقع داخل ذاته كحلزون حفّت به عربة جر. ولزم مكانه لا يأتي بأي حركة وحاول أن يتلبّس مظهر اللامبالاة لكنه لم ينجح، وبدل ذلك بدا أشبه بمن فقد لتوه عزيزاً عليه.

لا أحد كان لديه الوقت ليوليه أي انتباه، خاصة إيما. كانت تقطن مع فليغ منذ أسبوعين، كما سمع هانز، لكنها مع ذلك كانت تعرف كل شخص في البلدة، وتختلط مع الجميع بدون استثناء، وتتذوق الانتاج الجديد من العصير، وتضحك

وتمزح، ثم تعود إليهم، وتتصرف وكأنها شريكة في كل ما يجري، وتعانق الأطفال وتوزع التفاح مجاناً وتنشر الضحك والمرح حولها. وكانت تهتف لكل صبي في الشارع: « أتريد تفاحة؟ ». ثم تتناول تفاحة جميلة، متوردة الخدين، وتمد يديها خلف ظهرها وتطلب منه أن يخمّن "في أي يد هي، اليسرى أم اليمنى؟". لكنهم لم يكونوا يعرفون قط في أي يد هي، ولم تكن تعطيهم التفاحة إلا بعد أن يبدأوا بالتذمر من الأمر، وإذا بها مجرد تفاحة صغيرة، خضراء. وكان يبدو عليها أنها تعرف كل شيء عن هانز، وسألته إن كان هو الفتى الذي يصاب بنوبات صداع، وقبل أن يتاح له أن يجيبها كانت قد فتحت حديثاً آخر مع أناس آخرين حولها. وأوشك هانز أن يتسلل عائداً إلى منزله فوضع فليغ عتلة العصر في يده.

« حسن يمكنك أن تقوم بمزيد من العمل الآن، وسوف تساعدك إيما. أما أنا فيجب أن أعود إلى دكاني ».

انطلق فليغ، وتلقى المتمهن التعليمات لكي يساعد سيدته في نقل العصير بالعربة وتُرك هانز وحده عند المعصرة مع إيما. فأخذ يصر اسنانه ويعمل كجني.

ثم بدأ يلاحظ أن يد العتلة صارت صعبة على الإدارة، وعندما رفع بصره، انفجرت إيما في نوبة من الضحك أشبه برنين الجرس. لقد كانت تتكئ عليها وعندما شدها مرة أخرى، وهو حانق، كررت ما سبق أن فعلته.

لم يتفوه بأي كلمة، ولكن بينما كان يشد العتلة التي تقاومها الفتاة بجسدها من الناحية المقابلة، شعر فجأة بالارتباك وبعدم القدرة على العمل وأخذ بالتدريج يتخلى عن الإدارة. واستولى عليه ما يشبه الفزع اللذيذ وعندما ضحكت الفتاة بوقاحة في وجهه، إذا بوجهها يتغير فجأة تغيراً تاماً،

twitter @baghdad_library

وأصبح في وقت واحد أكثر وداً وأشد غرابة. هنا ضحك هو بدوره قليلاً، بجرأة ولكن ليس بارتياح تام.

ثم توقفت العتلة عن العمل تماماً.

وقالت إيما: «لن نتمادى أكثر من ذلك». وقدمت له ملء نصف كأس من العصير كانت هي تشرب منه.

هذه الجرعة من العصير بدا مذاقها لاذعاً جداً، وأحلى من الجرعة السابقة، وبعد أن شربها، حدَّق بحزن إلى الكأس الفارغة، وفوجئ بمدى سرعة وجيب قلبه وبثقل تردد أنفاسه.

بعد ذلك عاد إلى العمل فترة قصيرة، ولم يكن هانز واعياً لما كان يفعله، وذلك عندما ألفى نفسه يحتال كي يقف في موقع يمكن لتنورة الفتاة أن تحف به وتلمس يدها يده. وكلما حدث ذلك كان قلبه يتوقف عن الخفقان بسعادة ممزوجة بالرعب وغلبه إحساس رائع بالضعف وارتعشت ركبتاه قليلاً وضج صوت هادر في رأسه أصابه بدوار.

لم يدر ماذا كان يقول ولكن كان عنده جواب جاهز لكل شيء، وضحك عندما ضحكت، وهز أصبعه في وجهها عدة مرات، عندما تظاهرت بالحمق، وشرب كأسيّ العصير اللذين قدمتهما إليه. وفي الوقت نفسه تسارع شريط حشد غفير من الذكريات داخل رأسه: الخادمات اللواتي رآهن واقفات مع رجال في مداخل الأبواب ليلاً، قبسات متفرقة من روايات، القبلة التي منحه هايلنر والكثير من الأقوال، والحكايا والأحاديث السرية التي سمعها في المدرسة عن "الحسناوات" وما معنى أن يكون للمرء حبيبة. وأطلق تنهيدات حارة مثل فرس هرم يكافح ليرتقي سفح جبل. كل شيء اتخذ شكلاً جديداً. الناس والنشاط الدائر من حوله انحلّ في سحابة ملونة، عظيمة من السعادة. وغاصت الأصوات المنعزلة والشتائم والضحك في كآبة كلية،

والنهر والجسر العتيق بدوا بعيدين نائيين مثل أجزاء من لوحة لمنظر طبيعي.

حتى إيما بدت مختلفة. لم يعد يرى وجهها، كل ما رآه عيناها الفاحمتان، المرحتان والشفتان القرمزيتان، وأسنانها البيضاء الحادة من خلفهما، وبدا شكلها العام وكأنه يذوب. ولم يكن يرى منها إلا جزءاً منعزلاً ـ تارة فردة حذاء وطرفاً من جورب أسود، وتارة أخرى خصلة شعر ضالة على عنقها، وتارة نحرها المستدير، الملفوح باشعة الشمس غائصاً داخل الوشاح الأزرق، وتارة الكتفين الصلبين ومن تحتهما الصدر يجيش، وتارة أُذناً وردية اللون شفافة.

بعد فترة وجيزة تركت الكأس الكبيرة تسقط داخل الراقود ثم مالت فوقه وبذلك ضغطت ركبتها على جانب الراقود وعلى رسغ يده. وانحنت إلى أسفل أيضاً، ولكن ببطء أشد وكاد وجهه يحف بشعرها. وكان لشعرها رائحة عطر خفيفة ووسط كل هذا، وخلف ظل بعض الخصلات السائبة من الشعر توهج عنق، دافئ، أسمر، اختفى داخل الصدار الأزرق اللون الذي سمح إبريمه المخرَّم الموجود في جزئه السفلي للعين أن تتابعه مسافة أبعد داخل الفتحة.

عندما استقامت منتصبة، ولمست ركبتها ذراعه وحفَّ شعرها بوجنته تورّد خداها حتى الاحمرار، وسرت قشعريرة قوية في أعضاء هانز. شحب لونه وشعر برهة بالخجل من ضعف دفين فيه، واستنجد بذراع المعصرة ليستمد منها القوة. واشتدت ضربات قلبه بعنف، وتراخى ذراعاه وأحس بألم في كتفيه.

بدءاً من تلك اللحظة لم يعد ينطق باي كلمة، وأخذ يتجنب نظرتها. لكنه كان يثبت عينيه عليها حالما تلتفت إلى الجهة الأخرى، ويصطخب فيه إحساس بالذنب مع الإثارة المكتشفة

twitter @baghdad_library

حديثاً. وشعر في تلك اللحظة كأن شيئاً داخله قد انكسر وتكشفت أمام روحه أرض جديدة، فاتنة بشكل غريب، تحدها شواطئ شاسعة زرقاء. لم يكن قد عرف بعد، أو فلنقل كوّن فقط فكرة غامضة عن كنه هذا العذاب الرائع والمرعب، ولا استطاع أن يحدد أيهما أعظم، الألم أم الفرح.

لكن الفرح كان يعني انتصار مشاعره الحسية الشابة وبوادر بعث عنفوان الحياة، والألم كان يعني أن السكينة التي كانت تسود صباح حياته قد تعكرت وأن روحه غادرت أرض الطفولة التي لن يعيد الإنسان اكتشافها أبداً. ومركبه الصغير بعد نجاته الأولى في آخر لحظة من التحطم، واجه هذه المرة عواصف عاتية بكل عنفوانها وخاض في مياه ضحلة وارتقى قمماً شاهقة كان على الشباب، على الرغم مما يحظى به من إرشاد سابق، أن يعثر بينها على طريقه وخلاصه.

لحسن الحظ كان المتمهّن قد عاد في ذلك الوقت، وأراحه من عمل المعصرة. مكث هانز هناك فترة قصيرة أخرى، آملاً في أن يحصل من إيما على مداعبة أو كلمة ودية. ومرة أخرى عادت تثرثر مع أصحاب المعاصر الأخرى. وشعر بالارتباك في حضور المتمهن فأسرع بالعودة إلى المنزل بدون أن يودع أحداً.

لقد تبدل كل شيء بشكل غريب في نظره، أصبح رائعاً، ومثيراً. كانت عصافير الدوري تسمن من أكل لب التفاح، ومن ثم تنطلق محلّقة محدثة ضجيجاً في السماء التي لم يرها من قبل بمثل ذاك العلو والجمال والزرقة والرومانسية. لم ير صفحة مياه النهر من قبل مبتسمة، ورائعة، ذات لون أخضر مزرق هكذا، ولا كان سد التحكم في المياه هادراً هكذا وذا بياض مبهر. كان كل شيء أمامه مثل سلسلة من اللوحات التزيينية تُرى من خلف زجاج جديد، صاف.

بدا كل شيء وكأنه ينتظر بدء احتفال عظيم. حتى في صدره شعر جيشاناً مقبضاً، مفزعاً، ولكن رائع من الانفعالات والآمال غير المألوفة، جريئة، غريبة، ممزوجة بخوف مرتاب في أن كل هذا حلم لن يتحقق أبداً. هذه الانفعالات المصطخبة تضخمت حتى غدت مداً جارفاً مظلماً، إحساساً بأن شيئاً قوياً كاسحاً يجب أن يتفجر داخله، ويجد له منفذاً إلى الخارج، ربما على شكل نوبة بكاء، أو أغنية، أو قصف من الضحك. ولم تهدأ هذه الإثارة قليلاً إلا مع وصوله إلى المنزل. وفي المنزل، عاد الحال كما كان دائماً.

سأله الهر غيبنرات: « أين كنت؟ ».

« في معصرة فليغ ».

« كم بلغ إنتاجه من عصير التفاح؟ ».

« برميلين، أعتقد ».

طلب السماح له بدعوة أولاد فليغ إلى المنزل إذا حضر العجوز فليغ احتفال عصير التفاح.

تمتم والده: « بدون شك، سأقيم الاحتفال في الأسبوع التالي. ادعُهم ».

كان ما يزال هناك ساعة قبل حلول موعد العشاء. خرج هانز إلى الحديقة. وهناك، خلاف شجرتي التنوب، لم يكن يُرى الكثير من النبات الأخضر. كسر غصناً من شجرة كستناء، وأخذ يسوط به الهواء ويشوّش الأوراق الذابلة. كانت الشمس قد مالت خلف الجبل الذي كان حدوده مرسومة على سماء آخر المساء السديمية بلونها الأزرق المخضر، مبرزة الخطوط الدقيقة لقمم أشجار الصنوبر. وسبحت غيمة رمادية متطاولة، مخضبة باللون البني الذهبي، متهادية متمهلة في الفضاء الذهبي الخفيف المخيم على الوادي، كسفينة عائدة إلى أرض الوطن.

تمشى هانز في أرجاء الحديقة كأنه يمر بتجربة فريدة، في وجه جمال شمس الغروب، الغني المتألق بالألوان. كان يتوقف

twitter @baghdad_library

عن السير على فترات، ويغمض عينيه، ويحاول أن يتصور إيما كما كانت واقفة قبالته في معصرة التفاح. استعاد في ذهنه كيف دفعته إلى الشرب من كأسها، وكيف مالت فوق الراقود واحمرار وجهها عندما عادت فاستقامت. وتراءى له شعرها، وقوامها وهي ترتدي صدارها الأزرق الضيق، وثدييها ومؤخر عنقها، يظلله شعرها الداكن. وسرت فيه رعشات لذيذة، لكنه بعد ذلك عجز عن استدعاء ذكرى وجهها، على رغم محاولاته المتكررة.

بعد غروب الشمس الكامل، لم يلاحظ صقيع الهواء، وبدا الغسق المغبر كحجاب يخفي أسراراً كثيرة لا يمكن البوح بها. فقد أدرك أنه وقع صريع حب فتاة هايلبرون، لكنه لم يميز إلا بشكل غامض رعشات الرجولة المستيقظة هذه، بوصفها جزءاً من حالة غير مألوفة، مفعمة بالإثارة ومرهِقة.

انتابه شعور غريب أثناء جلوسه على مائدة العشاء، وهو في حالته الذهنية المتحولة وسط المحيط القديم المعتاد. فجأة بدا له والده والخادم العجوز والمائدة وأدوات المطبخ قديمة، ونظر إلى كل شيء نظرة دهشة، وغرابة وحب، وكأنه لتوه عاد إلى أرض الوطن، بعد غياب طويل. وفي الماضي عندما كانت عيناه تستقران بحب على غصن معين، كان ينظر إلى هذه الكائنات نفسها والأشياء بكآبة وتأمل حزين كمن يستعد للرحيل، أما الآن فهي عودة إلى الوطن، مفاجأة، ابتسامة، وإعادة تأهيل.

انتهوا من تناول طعام العشاء، وهمّ هانز بالنهوض فعلّق والده بأسلوبه الجاف: « ما رأيك أن تصبح ميكانيكياً، يا هانز، أم تفضّل أن تكون موظفاً رسمياً؟ ».

أجاب هانز مذهولاً: « ولكن كيف؟ ».

« يمكنك أن تتلقى التدريب على يد هرشولر، الميكانيكي، في نهاية الأسبوع أو بداية الأسبوع بعد القادم، كتلميذ في دار البلدية. فكر في الأمر! سوف نزيد الموضوع نقاشاً غداً ».

نهض هانز واقفاً وغادر الغرفة. كان مذهولاً ومضطرباً من فُجاءة السؤال. وامتثلت أمامه بشكل غير متوقع الحياة اليومية الضاجة بالحيوية وبالعمل التي ظل غريباً عنها طوال أشهر بوجهها الجميل ولكن المهدِّد، المملوء بالوعود والمطالب. لم تكن به أي رغبة في أن يصبح ميكانيكياً أو موظفاً رسمياً. كان يرى أن مستقبل العمل الجسدي الشاق مخيفاً قليلاً. ثم تذكر صديق دراسته أوغست، الذي أصبح لتوه ميكانيكياً ويمكن أن يستفسر منه عن الأمر.

بينما كان يقلّب التفكير في الموضوع، أخذت الأفكار حوله تزداد كآبة والتباساً، بدت المسألة أقل إلحاحاً وأهمية. لقد كان يفكر في شيء مختلف تماماً. أخذ يزرع المكان جيئة وذهاباً مضطرباً، وفجأة حمل قبعته، وغادر المنزل وأخذ يصعد الشارع بخطى متمهلة. لقد شعر فجأة برغبة في مقابلة إيما ثانية في ذاك النهار.

كان الظلام قد بدأ يتسلل. هدرت من حانة مجاورة صرخات وغناء أجش، وسطع الضوء من عدد من النوافذ؛ في أول الأمر أضيئت نافذة هنا وأخرى هناك، ناشرة وهجاً أحمر شاحباً إلى الظلام. اقترب من الجهة المقابلة للشارع رتل طويل من الفتيات، المتشابكات بالأذرع، يتمشين، يضحكن، ويتسامرن، ويتمايلن في الضوء الغامض، ثم اندفعن خلال الشوارع الهاجعة كموجة دافئة من الشباب والسعادة. تابعهن هانز بنظره لبعض الوقت، وشعر بالندم ينبض في عروقه. وكان في الإمكان سماع أحدهم يعزف على آلة الكمان، خلف ستارة

twitter @baghdad_library

إحدى النوافذ. وكانت امرأة تغسل بعض الخس عند مضخة الماء. وكان شابان يتمشيان فوق الجسر مع حبيبتيهما. أحدهما، وكان يمسك ذراع فتاته بخلاعة، تركها وأخذ يدخن سيجارة. الزوج الثاني كانا يسيران على مهل، متلاحمين، الرجل يحيط خصر الفتاة بذراعه وهي تميل برأسها وكتفيها على صدره. وكان هانز قد رأى مثل تلك المشاهد مئات المرات بدون أن يوليها أي انتباه. أما الآن فقد أصبح لها مغزى سرياً، مبهماً، حسياً، لكنه فاتن. استقرت عيناه على المجموعة وأجهد مخيلته ليستوعب الأمر كله. وشعر وهو مضطرب، ومهزوز من أعماقه، بأنه شديد القرب من سر عظيم، لا يدري إن كان رائعاً أم فظيعاً وإنما كان مدركاً لوجود طرف من كلا الاحتمالين. توقف أمام كوخ فليغ، لكنه لم يقو على استنهاض قدر كاف من الشجاعة ليدخل. ماذا سيقول أو يفعل بعد أن يدخل؟ لا يسعه إلا أن يتذكر كم من مرة جاء إلى هنا، وهو صبي في الحادية عشرة أو الثانية عشرة. في تلك الأيام حكى فليغ له حكايات من الكتاب المقدس وأشبع فضوله المندفع حول الجحيم، والشيطان والأرواح الشريرة. كانت ذكريات مزعجة وجعلته يشعر بالذنب. لم يدر ماذا يفعل، لم يدر حتى ماذا يريد، ومع ذلك بدا له أنه يقف في مواجهة شيء سري ومحرم. شعر أنه يتصرف بطريقة غير منصفة مع الاسكافي بوقوفه هكذا في الظلام أمام بابه بدون أن يدخل. وإذا رآه هذا الأخير واقفاً أو وهو يهبط الدرج مبتعداً عن الباب، فقد لا يطلب منه أن يبتعد، قد يكتفي بالضحك. وهذا بالذات ما كان يثير خشيته.

أخذ يتسلل متمشياً حول المنزل واستطاع أن يرى من خلال سياج الحديقة غرفة الجلوس المضاءة. لم ير فليغ نفسه. بدت زوجته وكأنها تخيط شيئاً أو تنسج، ابنه الأكبر كان ما

يزال ساهراً وكان جالساً عند الطاولة، يقرأ، وكانت إيما تتنقل في المكان، من الواضح أنها مشغولة بالترتيب، بحيث أنه لم يتمكن إلا من إلقاء نظرات سريعة وعابرة عليها. كان الهدوء شاملاً ومن السهل سماع كل خطوة في الشارع، عن بعد، وغمغمة النهر الرقيقة من الطرف الآخر للحديقة. وكان الظلام وصقيع الليل ينتشران بسرعة.

كانت هناك نافذة أصغر حجماً في الردهة قريبة في موقعها من نوافذ غرفة الجلوس. وبعد قليل ظهر شكل غير واضح في أول الأمر، مال إلى الأمام، وحدق إلى الظلام. وعرف هانز أنها إيما، فغمره أمل متوجس، وتوقف قلبه عن الخفقان. أطالت التحديق بهدوء من النافذة، لكن هانز لم يدر إن كانت ستراه وتتعرف إليه. لم يأت بأي حركة وهو يسدد نظراته إليها يحدوه الأمل، ويخشى في الوقت نفسه وهو يرتعش أن تلاحظ وجوده.

ثم اختفى الشكل المبهم من النافذة، بعد ذلك مباشرة سُمعت قرقعة بوابة الحديقة الصغيرة وظهرت إيما من المنزل. وفي غمرة رعبه الفجائي شعر هانز بحافز إلى الهروب لكنه ظل متكئاً على السياج، لا يقوى على الاتيان بحركة، وتابع الفتاة وهي تقترب ببطء منه عبر الحديقة التي يغمرها الظلام، وكان مع كل خطوة تخطوها تزداد رغبته في الهرب، لكن شيئاً أقوى منه كان يلجمه.

أصبحت إيما واقفة قبالته تماماً، لا يفصله عنها أكثر من نصف ياردة، ويقف بينهما سياج واطئ، توجه إليه نظرة استفسار غريبة. ظلت برهة لا تتكلم، ثم قالت برقة: « ماذا تريد؟ »، وكانت نبرة صوتها حنوناً كأنها مداعبة.

قال: « لا شيء ».

twitter @baghdad_library

مدت يدها إليه عبر السياج. تناولها بخجل ورهافة وضغط عليها بنعومة، ولما وجد أنها لم تسحبها، استجمع شجاعته ولاطف يدها الدافئة بنعومة. وعندما سمحت له بمتابعة الإمساك بها، وضعها على خده. وتغلغل فيه فيض من الرغبة، والدفء الغريب، والكلال اللذيذ، وكان واعياً لهبوب نسيم دافئ، رطب من حوله، وذابت الحديقة والشارع حتى تلاشيا، ولم يعد يرى غير الوجه الوضاء القريب من وجهه وكتلة مشوشة من الشعر الفاحم.

خيل إليه أن صوتها يصله من أعماق الليل عندما قالت برقة: « ألا تقبّلني؟ ».

اقترب وجهها المتقد، ولوى ضغطُ جسمها قليلاً السياج إلى الوراء، وشعرها السائب الذي يفوح بعطر خفيف، حفّ بجبين هانز، وواجهتْ عيناها المغمضتان بجفنيهما العريضين الأبيضين والرموش السوداء، عينيه. وسرت فيه رعشة عندما لامست شفتاه الخجولتان فم الفتاة. انكمشت برهة وتراجعت وهي ترتعش لكنها ضمت رأسه بيديها، وضغطت رأسها إلى رأسه، ولم تترك شفتيه. وشعر بالتهاب فمها عندما ضغطته على فمه، وكأنها أرادت أن تستنزف كل ما فيهما من حياة. وغلبه إحساس بضعف طاغ، ولكن قبل أن تحرره شفتاها، كانت شهوته المرتعشة قد تحولت إلى إرهاق مهلك وألم. وبعدما حررته إيما ترنح وتشبث بقوة بالسياج بأصابع متشنجة.

قالت إيما: « عُدْ غداً، يا عزيزي ». وهرعت عائدة إلى داخل المنزل. لكن هانز بدا وكأنه دخل في الأبدية. تابعتها عيناه بنظرة فارغة، وكان ما يزال متشبثاً بالسياج الخشبي، ومن فرط الإرهاق بحيث عجز عن الابتعاد خطوة واحدة. وسمع كأنه في حلم، الدم يضرب على صدغيه، ويركض إلى قلبه ومن ثم يعود بفورات مؤلمة، غير منتظمة، جعلته يلهث طلباً للهواء.

هنا رأى الأبواب في الغرفة تفتح ثم دخل فليغ،الذي كان حتماً قد غادر الورشة لتوه. وتولى هانز خوفٌ من أن يكون قد رآه، مما دفعه إلى الابتعاد. سار بخطى متمهلة، مترنحة، على مضض، وكأن به شيئاً من السُكر، ومع كل خطوة يتخذها كان يشعر أن ركبتيه ستخذلانه، كانت الشوارع المظلمة بجملوناتها الناعسة وعيون النوافذ المحدقة، الحمراء، الحزينة، تجري مارة به مثل أجزاء متلاشية من مشهد مسرحي، ثم الجسور، والنهر، والأقنية والحدائق. كانت نافورة شارع غربرشتراس ترشش رذاذها بصوت عال، ذي أصداء، بطريقة غريبة. وأخذ يفتح باباً ويغلق آخر كالنائم، ثم جلس عند طاولة ما كانت موجودة هناك، ولم يستيقظ على اكتشاف أنه في غرفة الجلوس في منزله إلا بعد مرور بعض الوقت. واستغرق منه أيضاً بعض الوقت ليخلع ملابسه. وقد فعل ذلك بذهن شارد ثم جلس مجرداً من ملابسه عند النافذة إلى أن أرسل هواء الليل الخريفي رعشة البرودة في جسمه ودفعه إلى اللجوء إلى الوسائد.

حسب أنه سيستغرق في النوم في الحال، ولكن حالما استلقى في السرير بدأ قلبه يضرب بقوة وشعر بالدم ينبض في شرايينه وعندما أغمض عينيه، شعر وكأن شفتي إيما ما زالتا معلقتين بشفتيه، وتفرغانه من روحه، ومن ثم تملآنه بحرارة الحمى.

في وقت متأخر من الليل استغرق في النوم وأخذ يندفع بسرعة منتقلاً من حلم إلى آخر بمطاردة مسعورة. تراءى له أنه يقف وسط ظلام حالك يثير الرعب، يتلمس ما حوله، ثم قبض على ذراع إيما، عانقته وغاصا ببطء في تيار دافئ عميق. وفجأة تمثّل الاسكافي أمامه وسأله لماذا لم يعرِّج عليه ولم يسع هانز إلا أن يضحك، ثم لاحظ أنه ليس فليغ أبداً وأن الذي كان واقفاً إلى

twitter @baghdad_library

جواره في حضن النافذة في مصلّى مولبرون، هو هرمن هايلنر، يطلق النكات. ولكن هذا أيضاً تلاشى وإذ به واقف عند معصرة التفاح. وكانت إيما تتكئ على العتلة وكان هو يشد الذراع في مقاومة لثقلها بكل ما أوتي من قوة. كانت تنحني فوقها، تتلمس بحثاً عن شفتيه وساد السكون والظلام ثم أخذ يغوص عائداً إلى الأعماق المظلمة، الدافئة، مصاباً بالدوار، وبالإغماء. في الوقت نفسه كان يسمع مدير الكلية يلقي خطاباً لكنه لم يفهم إن كان موجهاً إليه أم لا.

أطال نومه حتى وقت متقدم من الصباح. كان نهاراً مشمساً، براقاً. أخذ يتمشى جيئة وذهاباً في الحديقة محاولاً أن ينفض عنه نعاسه وأن يجلب الصفاء إلى ذهنه لكه عجز عن نفض ضبابة النعاس الثقيلة. تراءى له زهر النجمة ذو اللون البنفسجي، آخر الزهرات المتبقية في الحديقة، جميلة وبهيجة تحت أشعة الشمس وكأن الوقت ما يزال شهر آب، ورأى النور الدافئ الساحر الذي يحيط بالأغصان والغصينات الذابلة، وعروق الكرمة الخالية من الأوراق تنتشر بغواية في كل الأنحاء وكأنها مقبلة على فصل الربيع. لكنه رأى ذلك كله بعيني جسمه، لا بعيني عقله، لذا لم يؤثر على مزاجه. وفجأة وقع في قبضة ذكرى صافية، حية، لأرانبه المدجّنة، حين كانت تتقافز ها هنا في الحديقة وكانت ناعورته وطاحونته ما تزالان تعملان. أعادته ذكراه بسرعة إلى ذات صباح من شهر أيلول قبل ثلاث سنوات، اليوم السابق لذكرى معركة سيدان[1]. وكان صديقه أوغست قد زاره وأحضر معه باقة من اللبلاب، ومن ثم غسلا سواري

---

[1] معركة سيدان: سيدان بلدة تقع في شمال شرق فرنسا على نهر موز. شهدت هزيمة الجيش الفرنسي في الحرب الفرانكو ـ بروسية 1870. ـ المترجم.

أعلامهما حتى اللمعان وثبتا اللبلاب إلى النتوءات الذهبية، وكانا يتسامران حول ما سيجري في اليوم التالي وكانا يتوقان إليه. ولم يحدث أي أمر آخر، لكنهما كانا يفيضان بالتوقع السعيد للاحتفال. كانت الرايات تسطع تحت الشمس وكانت آنا قد خبزت كعك الخوخ وفي الليل كانت ستُضرم نارُ مناسبةِ سيدان فوق قمة الجبل الشاهق.

لم يفهم هانز لماذا يعود بذاكرته، في هذا اليوم بالذات إلى تلك الأمسية، لماذا تبقى ذكراه بهذه الحيوية، والجمال، أو لماذا يثير فيه ذاك الشجن والحزن. لم يفهم أن عهد طفولته ومراهقته يتمثلان أمامه سعيدين مبتسمين، على صورة هذه الذكرى متأهبين لوداعه وليخلفا وراءهما وخز سعادة عظيمة عاشها سابقاً ولن تعود أبداً. وأدرك بصورة مبهمة أن هذه الذكرى لا تتوافق وتصوراته عن إيما وما جرى في الأمسية السابقة، وأن شيئاً نهض داخله، لا يمكن ربطه بالسعادة التي عرفها من قبل. كان يؤمن بأن في إمكانه أن يرى النتوءات الذهبية لسواري الأعلام الملمعة، وأن يسمع رنين ضحكة صديقه أوغست ويشم عبق الكعك الطازج، وكان كل شيء نبعاً للمرح والسعادة وقد بات غريباً نائياً فاتكأ على جذع شجرة صنوبر ضخمة حمراء وانفجر في نوبة نشيج عاجز مدّته براحة ومواساة مؤقتين.

عند منتصف النهار توجه مسرعاً لمقابلة أوغست الذي كان الآن قد غدا متمهناً كبيراً وأصبح أضخم جثة منه بكثير، وأعمق خبرة. وأفضى هانز إليه بما يثقل كاهله.

قال أوغست معلقاً: « هذا مفهوم. هذا مفهوم. عندما تكون ضعيفاً في مادة الرياضيات، فإنهم دائماً يوكلون إليك عمل الطرق بالمطرقة في العام الأول، والمطرقةليست مغرفة حساء. وعليك أن تجرجر الأدوات الثقيلة وترتب المكان في المساء، ثم إن

twitter @baghdad_library

العمل بالمبرد فن، ففي أول الأمر لا يعطونك إلا المبارد القديمة والرديئة، التي لا تصلح للعمل بها وملساء مثل مؤخرة الطفل الرضيع ».

وغرق هانز في الهم.

ثم سال ببرود: « ألا تعتقد أن من الأفضل لي أن أتخلى عن الفكرة؟ ».

« هراء! لا تقل هذا! لا تكن خرعاً! كل ما في الأمر أنه ليس عملاً سهلاً هيناً. لكن مهنة الميكانيكي مهنة عظيمة، ويجب أن يكون لديك عقل مفكر لتؤديها وإلا انتهى بك الأمر إلى أن تصبح مجرد حداد. أنظر إلى هذا! ».

أخرج أجزاءً صغيرة من الفولاذ اللامع، دقيقة الصنع من آلة وعرضها على هانز.

« ممنوع الخطأ في هذه حتى بمقدار نصف ميلليمتر. وكلها منفذة باليد حتى أدق برغي، وعليك أن تتصف بعينين حادتي النظر لتصنع هذه. ويجب أن تصقل وتعالج، وبعدها تصبح جاهزاً ».

« نعم، رائع! ليتني كنت أعرف.. ».

ضحك أوغست.

« أراك متوتر الأعصاب؟ نعم، غالباً ما يجد المبتدئون من يدفعهم إلى الهرب ويبعث فيهم روح اليأس. لكني مستعد لمد يد العون لك. وإذا قررت أن تبدأ في يوم الجمعة القادم، عندئذ سأكون أنا قد أكملت عامي الثاني وسوف أنال أجرتي الأسبوعية الأولى في يوم السبت. وسوف أحتفل بهذه المناسبة في يوم الأحد بتقديم البيرة والكعك، وسيحضر كل زملائي في العمل وسوف ترى كم سنمرح. آه، الآن يبدو عليك الاهتمام! في كل الأحوال لقد كنا في الماضي صديقين حميمين ».

أثناء تناول طعام الغداء، أخبر هانز والده أنه يريد أن يصبح ميكانيكياً وسأله إن كان في وسعه أن يباشر في غضون أسبوع من الزمن.

قال والده: « أحسنت »، ثم رافقه إلى ورشة شولر في فترة بعد الظهر وسجّله هناك.

إلا أن هانز نسي الأمر كله مع حلول أول المساء، وكل ما تبقى في ذاكرته أن إيما ستكون في انتظاره هذا المساء. أخذ يشعر بضيق في التنفس، وكان الوقت يبدو تارة كأنه يجري مسرعاً وتارة أخرى يجر نفسه واقترب من موعد لقائه كاستعداد مراكبي للابحار. وفي تلك الليلة لم يأكل أي شيء من طعام عشائه. إلا أنه نجح في شرب كأس من الحليب. وبعد ذلك انطلق خارجاً.

كان المشهد العام هو نفسه كما في اليوم السابق ـ الظلام، الشوارع الهاجعة، النوافذ المضاءة، نور المصباح الباهت والعشاق يتمشون.

لدى وصوله إلى سياج حديقة الاسكافي غلبه رعب عظيم فأخذ يرتعش لأوهى صوت يسمعه وشعر كأنه لص يكمن في الظلام، ولم يكن قد مضى عليه دقيقة من الوقت عندما وجد إيما ماثلة أمامه، مرّرت يديها خلال شعره وفتحت بوابة الحديقة. دخل بحذر وجرته برفق على طول الدرب الذي تحفه الشجيرات، ومنه ولجا الباب الخلفي إلى ممر داخلي مظلم.

هناك جلسا جنباً إلى جنب على الدرجة الأعلى من سلم القبو ومر بعض الوقت قبل أن تتعود عيونهما بقدر كاف على الظلمة ليرى كل منهما أي شيء من الآخر. كانت إيما مرحة وأخذت تثرثر همساً. لقد كانت قد تذوقت قبلات كثيرة في الماضي وتعرف كل شيء عن مطارحة الغرام. وذاك الفتى

twitter @baghdad_library

المحب، الخجول، كان يعجبها. ضمت رأسه الضيق بين يديها، وقبّلت جبينه، وعينيه، ووجنتيه، وعندما جاء دور شفتيه قبلتهما القبلة المطولة نفسها التي منحته إياها في المناسبة السابقة. انتاب هانز الدوار فاتكأ عليها، وقد اصابه الوهن والحيرة. ضحكت ضحكة خافتة وقرصت أذنه.

ثم عادت تثرثر بدون توقف وأنصت إليها ولكن بدون أن يعرف عما كانت تتكلم. وداعبت ذراعه وشعره، وعنقه ويده، وضغطت خدها على خده، ومالت برأسها على كتفيه. وظل هانز صامتاً وسلبياً، يملؤه الرعب اللذيذ، وفزع عميق، وتهزه رعشة قصيرة، رقيقة، كمن أصابته حمى.

ضحكت وقالت: « يا لك من عاشق! تبدو خائفاً من نفسك! ».

ثم أمسكت يده ومررتها على عنقها، وخلال شعرها وحطتها على ثديها وضغطتها هناك. أحس بشكله الناعم واستشعر خفقانه الغريب، الرائع، ثم أغمض عينيه وشعر كأنه غاص بعيداً في أعماق لا قرارة لها. قال: « لا، كفى! »، وعندما حاولت أن تقبله من جديد أشاح بوجهه، فضحكت.

شدته إليها وهي تضغط جنبها إلى جنبه، مزاوجة ذراعها بذراعه لكي يشعر بجسدها على جسده، وطاش صوابه وضاع منه كل كلام.

سالته: « أتحبني إذن؟ ».

حاول أن يقول "نعم"، ولكن كل ما قدر على فعله أن أومأ برأسه إيجاباً وظل يهزّه هكذا بعض الوقت.

مرة أخرى تناولت يده وأقحمتها وهي تضحك إلى داخل صدارها. فتوقف قلبه عن الخفقان عندما أحس بنبض الدم في عروقها وبأنفاسها الدافئة القريبة منه، وظن أنه سيختنق، وكم

كان صعباً عليه التقاط أنفاسه. فسحب يده، وأنَّ قائلاً: «يجب أن أذهب إلى البيت الآن».

عندما حاول أن ينهض واقفاً أخذ يترنح. وكاد أن ينقلب رأساً على عقب، إلى أسفل درج القبو.

سألته إيما مذهولة: «ماذا حدث؟».

«لا أدري. أنا شديد التعب».

لم يلاحظ أنها كانت تسنده وهما في طريق عودتهما إلى الحديقة، ومن جديد ضغطت نفسها عليه، ولم يسمعها وهي تتمنى له ليلة هانئة، وتغلق البوابة الصغيرة خلفه. لم يعرف كيف يتوجه وهو يسير في الشوارع، وكأن عاصفة هوجاء تطيح به أو موجة عاتية تتقاذفه في كل اتجاه.

رأى الوهج الشاحب يطل من المنازل على الجانبين، وقمم الجبال ورؤوس اشجار الصنوبر على المنحدرات في الأعالي، وفوقها جميعاً يخيم ظلام الليل والنجوم الساكنة. وشعر بهبوب الريح، وسمع غمغمة النهر وهو يتدفق ماراً بدعامات الجسر وشاهد الحدائق والمنازل المعتمة، والليل الحالك، وأضواء الشارع، والنجوم تنعكس صورتها على صفحة الماء.

جلس مضطراً على الجسر، لقد كان مفرط التعب، وحسب أنه لن يصل إلى البيت أبداً. وبينما هو جالس على حاجز الجسر أنصت إلى انزلاق المياه على دعامات الجسر، تهدر فوق سد التحكم في جريان المياه، وتغرغر عند سد الطاحون. كانت يداه باردتين ودمه يجري بتشنج في صدره وحنجرته ويرسم غشاوة أمام عينيه، ثم يهرع عائداً إلى قلبه،ورأسه باندفاعة مفاجئة حتى يصاب بالدوار.

وصل إلى المنزل، واتجه إلى غرفته، وتمدد على سريره وللتو استغرق في النوم، وغاص في أحلامه، منتقلاً من عمق إلى آخر في

twitter @baghdad_library

فضاء لامتناهٍ. ثم استيقظ مستنزَفاً ومعذَّباً، وهو بين النوم واليقظة وظل هكذا حتى الصباح، يملؤه اشتياق لا ينطفئ وتتقاذفه قوى لا سيطرة له عليها، إلى أن وجد عذابه وضيقه عند الفجر متنفساً في نوبة طويلة من البكاء وبعدها استغرق من جديد في النوم على وسائد مخضّلة بالدموع.

twitter @baghdad_library

7

واصل هر غيبنرات عمله في معصرة التفاح بوقار وبكثير من الضوضاء وعاونه هانز في ذلك. وكان اثنان من أولاد الاسكافي قد قبلا دعوته وانهمكا في فرز الثمار، وتذوقا كأساً من العصير، وكل منهما يحمل بيده قطعة كبيرة من الخبز الأسود، لكن إيما لم تحضر معهما.

عندما غادر والده، مدة نصف ساعة مع صانع البراميل، غامر هانز وسأل عنها:

« أين إيما؟ ألم تحضر؟ ».

مضى بعض الوقت ريثما فرغ فما الولدين الصغيرين من الطعام قليلاً ليجيبا.

قالا: « لقد رحلت » وهزا رأسيهما مؤكدين.

« رحلت؟ إلى أين؟ ».

« إلى وطنها ».

« استقلت قطاراً؟ ».

هز الولدين رأسيهما بنشاط إيجاباً.

« متى؟ ».

« هذا الصباح ».

مدّ الولدان أيديهما لتناول تفاحهما. وأخذ هانز يتلمس ذراع المعصرة، ويحدق إلى رواقد عصير التفاح وبدأت الحقيقة تتجلى أمامه ببطء.

عاد والده، وواصلوا العمل وهما يضحكون ويمزحون، ثم ودعهما الولدان، وأسرعا بالرحيل، وحل الظلام وذهب الجميع إلى بيوتهم.

بعد العشاء جلس هانز وحيداً في غرفته. ودقت الساعة العاشرة، ثم الحادية عشرة لكنه لم يشعل المصباح. ثم غرق في نوم عميق.

عندما استيقظ أخيراً كان ذلك في وقت متأخر أكثر من المعتاد ولم يكن لديه إلا إحساس مبهم بالخسارة، وبالكارثة ومن ثم تذكر أمر إيما. لقد رحلت عني حتى بدون وداع، ولكن لا بد أنها كانت تعلم في الأمسية الأخيرة التي أمضاها معها في منزلها أنها تنوي الرحيل. وراح يفكر في ضحكتها وقبلاتها وفي استسلامها المتعمد عندئذ. إنها لم تأخذه على محمل الجد. لقد أصبح القلق الذي سببه ولهه المستعر، النهم وحزنه المرير، جزءاً من العذاب المحزن الذي دفعه إلى مغادرة المنزل والنزول إلى الحديقة، والشارع والغابات ومن ثم العودة إلى المنزل ثانية.

تلك كانت معرفته الأولى، ولعلها المبكرة أكثر مما ينبغي، بأسرار الحب، وقد كان فيها من المرارة أكثر بكثير مما احتوت على الحلاوة. أيام من الشكوى العقيمة، والذكريات المؤثرة والتأملات الحزينة اليائسة، وليال كان خفقان قلبه بقوة خلالها وإحساس بالضيق يمنعانه من النوم أو يغرقانه في سلسلة من الكوابيس الرهيبة. كوابيس كان هيجان دمه الغامض خلالها يتحول إلى صور خرافية، مرعبة، فظيعة، وأذرع معانقة قاتلة، ووحوش شريرة، مخيفة، وجروف شاهقة وعيون عملاقة،

twitter @baghdad_library

محتقنة. وكان يستيقظ ويجد نفسه وحيداً، تحيط به وحشة ليلة خريفية باردة، فيشتاق إلى حبيبته ويدفن رأسه وهو يئن بين الوسائد المخضلة بالدموع.

اقترب يوم الجمعة، الذي كان من المفروض أن يباشر فيه تدريبه في ورشة الميكانيكي. أحضر له والده طقماً من بذلة العمل الزرقاء وقلنسوة زرقاء، نصف صوفية، وجربها فرأى أنه يبدو أحمق في زي القفّال هذا. وانتابه إحساس فظيع عندما أخذ يمر ببناء المدرسة، وبمنزل مدير المدرسة الثانوية أو منزل أستاذ الرياضيات، أو بورشة فليغ، أو بمقر القس. كم من عذابات وعمل شاق وعرق، كم من مسرات صغيرة تخلى عنها، كم من كبرياء وطموح وأحلام زاخرة بالآمال ضحّى بها، كلها ذهبت هباء لكي يستطيع الآن، بعد أن تأخر كثيراً عن بقية زملاء المدرسة الذين يرمونه كلهم بالنظرات الساخرة أن يلتحق بورشة كصبي مبتدئ!.

ماذا يمكن لهايلنر أن يقول عن هذا؟.

مر وقت طويل قبل أن يتمكن من أن يتوافق مع زي القفّال الأزرق ويتطلع إلى حلول يوم الجمعة عندما سيبدأ العمل. على أي حال إنها تجربة جديدة!.

لكن هذه الأفكار لم تكن أكثر من ومضات نادرة بين سحب قاتمة. إنه لم ينسَ رحيل إيما ولا جسده نسِيَ، أو فلنقل أنه أصبح لامبالياً، ثمالة تلك الأيام. كان في اشتياق حاد إلى المزيد، وصرخ مطالباً بتحرير شهوته المرتبكة. وهكذا مر الوقت بطيئاً بهذه الطريقة الموجعة، المغمّة.

كان أجمل فصل خريف شهده، غنيا بأشعة الشمس الناعمة، ذا صباحات فضية، ونهارات بسّامة، وضاءة، ومساءات صافية. وكانت الجبال الأبعد تتخذ لوناً أزرقاً مخملياً

عميقاً، واشجار الكستناء تسطع بالأصفر الذهبي، والكرمة البرية تتدلى أرجوانية من فوق الجدران والأسيجة.

كان هانز مضطرب الحال خلال هذا الهروب من الواقع. كان خلال النهار يتمشى حول البلدة، وفي الحقول متجنباً مقابلة الناس، معتقداً أنهم سيلاحظون ما يعاني من عذاب. إلا أنه في المساء كان يخرج إلى الشارع، ينظر إلى كل خادمة يمر بها، ويتسلل مع إحساس بالذنب متعقباً كل عاشقين يصادفهما. مع إيما كان يبدو كل شيء يستحق العناء وبدا أن سحر الحياة كله في متناوله، أما الآن فقد تلاشى نكاية به. نسي العذاب والاضطراب كله اللذين عاناهما وهو معها. لو أنه يستطيع أن يعيدها لتخلّص من حيائه كله، لانتزع منها أسرارها كلها ونفذ حتى عمق جنة حبها المسحورة التي أُوصدت للتو بوابتها في وجهه. إن مخيلته برمتها تشابكت في الدغل الخطر، الخانق وهامت على وجهها وسط هذا كله ورفضت بإصرارها على تعذيب نفسها، أن تعترف بوجود مساحات أليفة، رحبة، مهوّاة وجميلة خارج دائرة السحر الضيقة.

وأخيراً فرح لأن يوم الجمعة الذي ظل يترقب وصوله بتوجس، قد حل. وفي الصباح الباكر لبس رداء العمل الأزرق واعتمر قلنسوته وهبط شارع غربرشتراس وبه شيء من التوتر قاصداً ورشة شولر. أخذ بعض من معارفه يرمقونه بنظرات فضولية وسأله أحدهم: « ماذا يجري، أأصبحت قفّالاً؟ ».

كان العمل في ورشة الحداد على أشده للتو. كان الحداد الأكبر في تلك اللحظة يضع قطعة من الحديد الحامي على السندان، وكان أحد المساعدين يتعامل ببراعة مع المطرقة الثقيلة، أما المعلم فكان يسدد ضربات التشكيل الأكثر دقة، حاملاً قطعة الحديد بالملقط. كان يضرب بانتظام على السندان

twitter @baghdad_library

بمطرقته اليدوية فيتردد صدى رنينها خارج البوابة المفتوحة صافياً وساطعاً في وجه الصباح.

عند دكّة طويلة، اسودّت بفعل الزيت وبرادة الحديد، وقف مساعدٌ أكبر سناً وإلى جواره وقف أوغست، وكل منهما كان منهمكاً بملزمته. ومن أعلى السقف صدر هدير سيور[1] تدور بسرعة وتشغّل المخارط، والمجلخة، والمنفاخ الكبير وآلة الثقب، لأن كل شيء كان يدار بقوة المياه. أومأ أوغست لصديقه حالما دخل، واشار إليه كي ينتظر عند الباب حتى يتوفر الوقت للمعلم ويتولى أمره.

استرق هانز نظرة خجلى إلى الكير، والمخارط، والسيور الهادرة، ودواليب البكرات. وبعدما أنهى المعلم عمله تقدم ومدَّ يداً دافئة، كبيرة، وقال: « علّق قلنسوتك هناك فوق ». وأشار إلى مسمار خال على الجدار.

« تعال معي. هنا مكانك وهذه ملزمتك ».

قال هذا وقاده حتى أمام آخر ملزمة في الورشة، وبيّن له أولاً كيف يتعامل مع ملزمته ويحافظ على دكته وأدواته بحالة جيدة.

« لقد أخبرني والدك للتو أنك لست هرقلاً وهذا واضح. في البداية سوف تبقى بعيداً عن الكير، ريثما يشتد عودك أكثر».

تلمّس تحت الدكة وأخرج دولاباً حديدياً مسنناً.

« تستطيع أن تبدأ بهذا. ما زال الدولاب المسنن خشناً بفعل الفرن ومكسواً بالعقد والحواف. يجب بردها وإلا أفسدت الآليات الدقيقة ».

ثبّت الدولاب في الملزمة، والتقط مبرداً قديماً وبين له كيف يتم العمل.

---

[1] سيور: جمع سَيْر: حزام عريض من الجلد يستعمل في تشغيل الآلات. ـ المترجم.

« والآن واصل العمل بهذا. ولكن إياك أن تستعمل أياً من مباردي الأخرى! سوف تبقيك منشغلاً حتى منتصف النهار. عندئذ تستطيع أن تريني ما فعلت. يجب أن ينصب اهتمامك كله على التعليمات الموجهة إليك. إن العامل المبتدئ ليس بحاجة إلى التفكير».

وباشر هانز البرد.

صرخ المعلم: « توقف! ليس هكذا. ضع يدك اليسرى على المبرد. أم أنك أعسر؟ ».

« لا ».

« حسن إذن، هذا أفضل ».

ثم توجه إلى ملزمته، تلك القريبة من الباب وأخذ هانز يراقب طريقة عمله.

بعد أن قام بالضربات الأولى فوجئ بأن الدولاب شديد النعومة يبلى بسرعة. ثم وجد أن الطبقة العليا الهشة فقط تقشّرت وأن الحُبيبة المبرغلة التي عليه أن يزيلها بالبرد موجودة تحتها. وأخذ يبذل جهداً مثابراً في ذلك. لم يكن قد استمد متعة من متابعة شيء مرئي ومفيد يخرج من بين يديه منذ أيام الألعاب الصبيانية.

صرخ المعلم: « لا تسرع كثيراً. يجب أن تلتزم بالتوقيت في عمل البرد، واحد إثنان، واحد إثنان واضغط عليه، وإلا أفسدت المبرد ».

ثم انهمك المساعد الأول في عمل ما عند المخرطة ولم يستطع هانز أن يقاوم إغراء إلقاء نظرة. كان هناك مثقاب فولاذي مثبت في الظرف، والسير يتحرك فوق والمثقاب اللامع يئز بينما كان المساعد يزيل قشارة الفولاذ المتلألئة الرقيقة.

كنت ترى في كل مكان أدوات مختلفة، كتلاً من الحديد، والفولاذ والنحاس، وأعمالاً غير مكتملة، ودواليب لامعة، وأزاميل

twitter @baghdad_library

ومثاقب، وأزاميل ومثاقب خاصة بالخرّاط من كافة الأشكال والأحجام. وإلى جانب الكير عُلّقت مطرقة، وأدوات لاستخدامات شتى، وملاقط، وحديد لحم، وعلى طول الجدران كانت صفوف من المبارد ومبارد حادة، وعلى الرف وُضعت خرق زيتية، وفراش صغيرة، وورق صنفرة، ومناشير ومزيتات وقنان، وصناديق مسامير وبراغي. وكانت المجلخة تقريباً دائماً في حالة استعمال.

شعر هانز بالرضى إذ لاحظ أن يديه قد اسودتا تماماً لتوهما وأَمِل في أن يبدو على رداء عمله سريعاً أنه مستعمل قليلاً لأنه كان ما يزال يبدو جديداً بشكل غير مُستحب وأزرق بالمقارنة مع أردية الآخرين المتسخة، المبقّعة.

مع تقدم فترة الصباح، بدأت الحياة من العالم الخارجي تفِد إلى الداخل. أخذ عمال من معمل الحياكة المجاور يفدون لكي يقوموا بسن أجزاء آلية صغيرة أو لإصلاحها. وجاء مزارع وأخذ يستعلم عن مكواة أسطوانية تخصه كانوا يصلحونها له وطفق يكيل السباب عندما علم أنها لم تجهز بعد. ثم ظهر صاحب مصنع أنيق الملبس فرافقه المعلم إلى غرفة جانبية.

وسط هذا كله كان سير العمل في الورشة من الرجال والدواليب والسيور المشغلة للآلات يتم على قدم المساواة، يتواصل على أحسن ما يرام، ولأول مرة في حياته سمع هانز وفهم شاعرية العمل الشاق الذي كان يتسم، في البدء على أية حال، بسمة فاتنة، ومثيرة محببة، ورأى شخصه المتواضع وحياته الصغيرة وهما يصبحان جزءاً من إيقاع عظيم واحد.

عند الساعة التاسعة أُعطيت فترة استراحة مدتها ربع ساعة، وتلقى كل شخص قطعة كبيرة من الخبز، وكأساً من عصير التفاح. عندئذ انتهز أوغست الفرصة لإلقاء التحية على

العامل المبتدئ. أسمعه بضع كلمات من التشجيع، ومن ثم أخذ يهذي حول يوم الأحد التالي عندما سيحتفل هو وأصدقاؤه بتلقي أول أجر له. فسأله هانز عن نوع الدولاب الذي أعطوه لكي يبرده وعلم أنه جزء من ساعة برجية. وأراد أوغست أن يبين لهانز الدور الذي يقوم به في الآلية الكاملة لاحقاً، لكن في تلك اللحظة عاود المساعد الأول عمل البرد فتوجب على الجميع أن يعودوا بسرعة إلى أماكنهم.

ما بين الساعة العاشرة والحادية عشرة، بدأ التعب يتسلل إلى هانز، بدأت ركبتاه وذراعه الأيمن تؤلمه قليلاً. وحاول أن يركّز ثقل جسمه أولاً على إحدى ساقيه ومن ثم على الأخرى وبعد ذلك يمدها خلسة، لكن بلا فائدة. ثم ترك المبرد برهة، واستند إلى الملزمة. لم ينتبه إليه أحد. وبينما هو واقف هناك يستريح ويسمع هدير السيور من فوقه، شعر بدوار خفيف ولم يسعه إلا أن يغمض عينيه دقيقة. وفجأة ألفى المعلم واقفاً خلفه:

« والآن، ما المشكلة؟ أتعبت بهذه السرعة؟ ».

اعترف هانز: « نعم، قليلاً ».

ضحك المساعد.

وقال المعلم بهدوء: « ستتحسن الأمور قريباً. والآن تعال لترى كيف يتم اللحم! ».

راقب عملية اللحم مفتوناً. أولاً كان حديد اللحم يُسخّن، ومن ثم يُرش الجزء المسخن بكلور الزنك فيسقط معدن أبيض عن الحديد الحامي ويهس برفق.

« خذ خرقة ونظف هذا الشيء. إن كلور الزنك يتأكسد لذا عليك أن لا تترك أي قدر منه على سطح المعدن ».

بعد ذلك عاد هانز ليقف أمام ملزمته ويكشط حول الدولاب الصغير بمبرده. آلمته ذراعه وتقرحت يده اليسرى التي كان عليه أن يضغطها على المبرد، وبدأت تؤلمه.

twitter @baghdad_library

عند منتصف النهار، وبعد أن وضع المساعد الأول مبرده جانباً، وذهب ليغتسل، حمل هانز عمله إلى المعلم، فألقى هذا الأخير عليه نظرة خاطفة.

« لاباس، دعها عند هذا الحد. هناك دولاب آخر مثله داخل صندوق دكّتك. إبدأ به من بعد ظهر هذا اليوم ».

غسل هانز يديه بدوره وانطلق. كانت أمامه ساعة قبل حلول موعد الغداء.

طارده إثنان من الصبية السعاة، وكانا زميلين له في المدرسة، في الشارع، وأخذا يسخران منه.

هتف أحدهما: « قفّال مثقف! ».

أسرع خطاه. لم يكن متأكداً إن كان سعيداً أم لا، لقد كان يستمتع في الورشة، لكنه مرهق من التعب، متعب إلى أقصى حد.

في الرواق، حتى وهو يستبق الإحساس بمتعة الجلوس وتناول شيء من الطعام، تذكر فجأة إيما. لقد نسي أمرها طوال فترة الصباح. فتوجه بهدوء إلى غرفته الصغيرة، وارتمى على السرير وأخذ يئن من إحساسه بالبؤس. رغب في أن يبكي لكن عينيه كانتا ناضبتين من الدمع. ومرة أخرى وجد نفسه ضحية ولهه المُهلك ولكن اليائس. وشعر كأن رأسه يكاد ينفلق إلى نصفين. وكانت حنجرته تتوجع من نشيجه المخنوق.

كانت فترة تناول الغداء عذاباً. أجاب عن أسئلة والده وأخبره بكل شيء، وصبر على مختلف الطُرف الضعيفة لأن والده كان منبسطاً. وحالما رُفعت المائدة اندفع هانز خارجاً إلى الحديقة وقضى مدة ربع ساعة وهو يحلم تحت أشعة الشمس، ثم حان وقت العودة مرة أخرى إلى الورشة.

مع نهاية الفترة الصباحية بدأت يداه تتبثران[1]، وكانتا تؤلمانه بشدة. ومع حلول المساء تورمتا كثيراً حتى تعذر عليه التقاط الأشياء، بدون أن يعاني من الألم. وبعد انتهاء يوم العمل كان أمامه أن يرتب المكان كله تحت توجيهات أوغست.

كان الوضع يوم السبت أسوأ. فقد التهبت يداه، والأماكن المتقرحة تحولت إلى بثور. وكان المعلم في مزاج عكر وأخذ يسب لأدنى سبب. وكان أوغست يواسيه ويقول له إن بثوره سوف تبرأ في غضون أيام قليلة وعندئذ سوف تخشوشن يداه ولن يعود يشعر بأي تقرح، لكن هانز كان في حالة غم قصوى، وطوال النهار كان يحدق إلى الساعة ويواصل الكشط على دولابه ولا يجد بارقة أمل.

في المساء بينما كان يرتب المكان أسرَّ إليه أوغست أنه سوف يذهب إلى بيلاخ في اليوم التالي مع بعض الأصدقاء، وأنهم سيستمتعون كثيراً وأن على هانز أن لا يفوّت هذه الفرصة، وقال إنه سيعرج عليه عند الساعة الثانية. ووافق هانز وإن كان يفضل أن يقضي سحابة يوم الأحد وهو مستلق في البيت، لأنه مفرط التعب، ويشعر بالبؤس. ودهنت له العجوز آنا يديه بمرهم معين. وعند الساعة الثامنة أوى إلى السرير وظل نائماً حتى وقت متقدم من الصباح وكانت النتيجة أنه اضطر إلى أن يهرع للانضمام إلى والده في ذهابه إلى الكنيسة.

أثناء تناول الطعام بدأ يتكلم عن أوغست وشرح أنه يريد أن يخرج في نزهة معه عبر الحقول خلال فترة بعد الظهر. ولم يُبد والده أي اعتراض بل لقد نفحه خمسين بفنغاً[2]، ولم يضع إلا شرطاً واحداً - أن يعود قبل وجبة العشاء.

---

[1] تتبثران: تظهر عليهما البثور. - المترجم.

[2] البفنغ: جزء من مئة من المارك الألماني. - المترجم.

twitter @baghdad_library

بينما كان هانز يتمشى في الشوارع تحت أشعة الشمس الجميلة وجد نفسه يستمتع من جديد بيوم الأحد للمرة الأولى منذ أشهر عدة. بدت الشوارع أكثر وقاراً، والشمس أكثر إشراقاً بل في الواقع لقد بدا كل شيء أكثر مرحاً وجمالاً، بعد أن خلّف وراءه أياماً من العمل الشاق بيديه المجردتين وأطرافه التعبة. الآن بات يفهم اللحامين والدباغين، والخبازين والحدادين الذين يجلسون على دككهم معرَّضين لأشعة الشمس أمام أكواخهم، وتبدو عليهم السعادة الملكية، ولم يعد يتكبر عليهم بوصفهم أفراداً تافهين من الطبقة العاملة. لقد اكتسب عيناً تهتم بالعمال العاديين، والبارعين والمبتدئين وهم يسيرون معاً أو يقصدون الحانات وقبعاتهم تميل بزاوية معينة، ويرتدون الياقات البيضاء وبذلات يوم الأحد النظيفة. فقبل كل شيء إن الحرفيين يجتمعون مع الحرفيين، والدباغين مع الدباغين، والبنّائين مع البنائين، حفاظاً على شرف مكانتهم، وكان القفالون بينهم هم الأعلى مهارة ويُعتَبرون مع الميكانيكي الأرقى. كانت تجمع بينهم ألفة واحدة، وإذا كانوا يتصفون بشيء من السذاجة والغرابة، فإن في حرفتهم جمالاً ومبعث فخر. وهما سمتان ما زالتا حتى يومنا هذا تحتفظان برونقهما وقيمتهما وترى انعكاسهما على أبسط مبتدئ في حرفة الخياطة.

عندما يقف الميكانيكيون الصغار بهدوء وفخر أمام محل شواء يومئون للمارة ويتسامرون، ترى أنهم يشكلون مجتمعاً يُعوَّل عليه ولا يحتاج إلى أي عنصر خارجي، حتى أثناء قضاء وقت ممتع في أيام الأحد.

لقد كان هانز مثلهم وكان فخوراً لكونه واحداً منهم، ومع ذلك كله شعر بشيء من عدم الارتياح لما ينتظره من جو مرح في يوم الأحد، لعلمه أنه فيما يخص مسألة قضاء وقت ممتع لا

يتصرف الميكانيكيون الشبان باعتدال. بل إنهم قد يرقصون. ولم يكن هانز يحسن الرقص، ولكنه رأى أن في إمكانه أن يتدبر هذا الأمر بل وحتى أن يشرب قليلاً إذا لزم الأمر. إذ لم يكن متعوداً على شرب الكثير من البيرة، وفيما يخص التدخين فقد أحرز تقدماً بحيث أصبح قادراً على تدخين سيجار كامل بدون أن يشعر بكثير من الانزعاج أو الخزي.

رحب به أوغست بابتهاج احتفالي، وقال إن العامل الأول لم يرغب في الحضور، ولكن فرداً في ورشة أخرى انضم إليهم بدلاً عنه، وهكذا سيصبح عددهم أربعة، وهو عدد كاف لإشاعة الحيوية في المكان. ويمكن لكل منهم أن يشرب قدر ما يشاء من البيرة، فهو الذي سيدفع ثمنها. وقدم سيجاراً لهانز، ثم خرج الأربعة ليجوبوا أرجاء البلدة، ولم يبدأوا بمد خطاهم إلا عندما وصلوا إلى ليندنبلاتس لكي لا يتأخروا في الوصول إلى بيلاخ.

كان النهر يومض بألوان الأسود والذهبي، والأبيض، وكان في الإمكان الإحساس بحرارة شمس تشرين الأول المقبلة تسطع في سماء زرقاء براقة خالية من الغيوم، من خلال أشجار القبقب والأكاسيا. كان يوماً من أيام الخريف الودية، الصافية، الهادئة، التي يملأ فيها جمال الصيف المنصرم كله الهواء الرخيّ مثل ذكرى مبهجة، منسابة، عندما ينسى الأطفال في أي فصل هم ويفكرون في البحث عن الأزهار ليقطفوها. ويرسل العجائز نظراتهم المتأملة أمام منازلهم وكأنهم يشاهدون ذكريات محببة ليس فقط عن ذاك العام إنما عن حياتهم الماضية كلها، تُحلّق في سماء زرقاء صافية. لكن الشبان كانوا في مزاج مرح وكل منهم يحتفي بالنهار الجميل، وفقاً لميوله ومزاجه الخاص سواء بشرب الخمر أو بذبح أضحية ما، بالغناء أو الرقص، أو بالمزاح الفظ، فقد كان كعك الفاكهة الطازجة متوفراً بكثرة وآلات الكمان

twitter @baghdad_library

والهارمونيكا تحتفل بالأيام الصافية الأخيرة من العام أمام الحانات وفي ساحات القرى الصافية حيث الجميع مدعوون إلى الرقص، والغناء وممارسة الحب.

حث أصحابنا الأصدقاء الشبان خطاهم، وكان هانز ينفث دخان سيجاره متخذاً مظهر اللامبالي وقد دُهش إذ وجد هذه الهيئة تناسبه. وحدثه العامل الأول عن رحلة تمهّنه ولم يعترض أي منهم على مفاخرته بنفسه. لقد كان ذلك جزءاً لا يتجزأ من العمل. فحتى أشد المتمهّنين المتواضعين سوف يحكي قصصاً أحياناً عندما يكون متأكداً من حسن استماع جمهوره، عن أيام تجواله بأسلوب فخم أنيق، ذلك أن الشاعرية الرائعة لحياة الحرفيين هي ملك عام للناس، وهي تستخرج من كل فرد منهم المغامرات التقليدية القديمة بسرد جديد مزخرف، وكل متمهِّن جوال عندما يباشر سرد قصة ما يكون فيه شيء من الخالد تِلْ لؤلنشبيغل وعنصر الخالد الآخر شتروبنغر.

« ما أشق الحياة التي عشتها في فرانكفورت، حيث كنت عندئذ! هل سبق أن حكيت لكم عن صاحب المتجر الثري، الذي كان وغداً بغيضاً بالمناسبة، وأراد أن يتزوج من ابنة رئيسي في العمل، لكنها رفضته لأنها كانت تفضلني عليه، وكانت حبيبتي منذ أربعة أشهر ولو لم أتشاجر مع العجوز لكنت مكثت هناك وأصبحت صهره ».

وتابع كلامه وأخذ يحكي كيف هدّده رئيسه المتوحش بأن يسوطه، ابن الحرام الحقير، وفي إحدى المرات تجرأ وسدّد إليه ضربة لكنه لم يتنازل ويتفوه بأي كلمة، واكتفى بأن هز مطرقته ورمى معلمه بنظرة قاسية حتى أن هذا الأخير سار بهدوء مبتعداً، مفضلاً الاحتفاظ بسلامة جمجمته، واختار لاحقاً أن يطرده كتابة، ذلك الوغد الجبان. وأخبرهم أيضاً عن شجار كبير

احتدم في أوفنبرغ حيث كاد ثلاثة من القفالين، بما فيهم هو نفسه، أن يقتلوا سبعة من عمال المصانع، وكل من يتوجه إلى أوفنبرغ، كما قال، يكفي أن يسال عن شورش الضخم، الذي ما زال يعيش هناك وكان حاضراً في ذلك الوقت.

كل هذا سُرد بنبرة صلبة ولكن أيضاً بحيوية وأنس حتى أنهم جميعاً استمتعوا بالحادثة وقرروا ضمناً أن يعيدوا روايتها بأنفسهم، على رفاق آخرين، عندما تحين الفرصة. إذ أن كل قفال كان يتخذ من ابنة معلمه حبيبة له، وسدد في وقت من الأوقات ضربة بالمطرقة إلى معلم نذل وهاجم سبعة من عمال المصانع. أحياناً كانت الحادثة تقع في بادن وأحياناً في هسِّن، وأحياناً أخرى في سويسرا، وقد تُستبدل المطرقة بمبرد أو بكتلة من الحديد الحامي، وقد يكون الضحايا من الخبازين أو الخياطين بدل عمال المصانع، لكن القصص تكون دائماً هي ذاتها، وكان الجمهور دائماً يستمتع بالإنصات إليها، لأنها كانت قصصاً جيدة وتشرِّف الحرفة. وهذا لا يعني أن هناك نقصاً في الوقت الحالي في العمال المبدعين في التجربة وفي الابتكار معاً وهما بشكل أو بآخر شيء واحد.

ابتهج أوغست أيّما ابتهاج لكل ما سمع. ولم يكف قط عن الضحك والإيماء تعبيراً عن الاستحسان، وشعر للتو أنه كاد يكون عاملاً كفؤاً وأخذ ينفث دخان التبغ في الجو الذهبي بما يشبه الرضا المترفّع. وعزّز الراوي دوره، لأنه أراد أن يكون حضوره بمثابة تعطف ودي، إذ بوصفه عاملاً له مكانته لم يكن ينتمي إلى مجموعة المبتدئين، خاصة في يوم أحد، وأن عليه أن يخجل من نفسه لأنه شجع هذا الفتى على إنفاق أجره كله على شرب الخمر.

twitter @baghdad_library

كانوا قد قطعوا مسافة لا بأس بها على طول النهر، وبات عليهم الآن أن يختاروا بين اتخاذ درب العربات المتصاعد ببطء ويدور صاعداً التل، ودرب المشاة المنحدر الذي لا يتعدى طوله طول الدرب الأول. واختاروا الأول على الرغم من أنه مغبراً وطويلاً. فدروب المشاة هي للاستعمال اليومي وللسادة الذين يرغبون بالتنزه سيراً على الأقدام، أما الناس العاديون فإنهم يفضلون، أي في يوم الأحد، الطريق الريفية التي لم تفقد بعد جاذبيتها الرومانسية بالنسبة إليهم. إن ارتقاء درب المشاة المنحدرة مخصصة للعمال الريفيين ولمحبي الطبيعة من أهالي المدن، أي أنه إما للعمل أو لممارسة الهواية، لكنها لا تروق لعموم الناس. ومن ناحية أخرى فالدرب الريفية مكان تستطيع عليه أن تسير بخطى واسعة على هواك، وتتبادل أطراف الحديث أثناء مسيرك، بدون أن ينال البلى حذاءك وملابس يوم الأحد، مكانٌ تشاهد عليه جياداً وعربات، وتقابل مشاة آخرين أو تتجاوزهم، وتقابل فتيات بكامل أناقتهن، ومجموعات من الشبان يغنون أثناء سيرهم، وعليه تتبادل النكات المختلفة، وتتوقف لتثرثر. وإذا كنت بمفردك تلاحق مجموعات من الفتيات أو تضحك منهن، أو تسوّي أموراً وتحل خلافاتك الشخصية مع أصدقائك المقربين بتبادل بعض الكلمات، في أوقات المساء.

وهكذا طرقوا درب العربات في انعطافه المنحرف برقة وبشكل ممتع بأسلوب أناس لديهم الكثير من وقت الفراغ، ولا رغبة لديهم في إجهاد أنفسهم. وخلع المساعد سترته وحملها على طرف عصا أسندها إلى كتفه، وبدل أن يحكي حكايات أخذ الآن يصفّر بمرح وحيوية، إلى أن وصلوا بعد ساعة من الزمن إلى بيلاخ. وتلقى هانز بعض عبارات الاستهزاء لكنها لم تستفزه

كثيراً، أما أوغست فرد عليها بحميّة أكبر. في ذلك الوقت كانوا قد وصلوا مشارف بيلاخ.

كانت القرية بسقوفها القرميدية وأكواخها ذات السقوف القشية بلونها الرمادي ـ الفضي، تندسّ بين بساتين حل بها الخريف وتهيمن عليها من الخلف غابات جبلية قاتمة.

لم يتفق الشبان على الحانة التي ينوون الانضمام إليها. فحانة "المرساة" تقدم أفضل أنواع البيرة، لكن حانة "البجعة" تقدم أفضل أنواع الكعك، وفي حانة "الزاوية الحادة" تقطن ابنة صاحب المحل الجميلة. وأخيراً حظي أوغست بالموافقة على فكرته القائلة إن عليهم أن يتعاملوا مع حانة "المرساة" مضيفاً وهو يغمز بعينه أن حانة "الزاوية الحادة" لن تهرب أثناء شربهم بعض الكؤوس من الشراب وما زال في إمكانهم زيارتها لاحقاً. هذه الخطة وجدت صدى عند الجميع وانطلقوا يلجون القرية، مارين بالاسطبلات وأكواخ القرويين الواطئة والرابضة وأزهار إبرة الراعي في النوافذ، قاصدين حانة "المرساة" بشارتها الذهبية تلمع جذابة في وجه الشمس بين شجرتي كستناء غضتين مدورتي الجذعين ولسوء حظ الشبان الذين كانوا راغبين جداً في الدخول كانت الردهة مزدحمة بالناس واضطروا إلى البحث عن مجلس لهم في الحديقة.

بالنسبة إلى زبائنها كانت حانة "المرساة" هي الأفضل، بمعنى ليست إحدى الحانات القروية القديمة، وإنما هي بناء من حجر القرميد حديث الطراز مزود بعدد كبير من النوافذ، وبكراس بدل المقاعد الخشبية الطويلة ذات الظهر والذراعين، وبعدد كبير من الاعلانات المعدنية، وزيادة على ذلك كانت تفخر بوجود نادلة من المدينة وصاحب ملك لم يُر قط رافعاً كمي قميصه وإنما كان دائماً يرتدي بذلة بنية اللون أنيقة. وفي

twitter @baghdad_library

حقيقة الأمر لقد كان مفلساً، لكنه كان قد استأجر منزله من دائنه الرئيسي وهو صاحب مصنع تخمير الجعة، ومنذ ذلك الحين أصبح أشد فخامة. وكانت الحديقة تتألف من شجرة أكاسيا وتعريشة كبيرة من الأسلاك وقد أضحت الآن شبه ممتلئة بكرمة برية.

هتف الشاب: « في صحتكم، شباب! »، وقرع كأسه بكأس كل من الثلاثة الآخرين. وفي محاولة للفت الانتباه إلى نفسه جرع محتوى الكأس كله دفعة واحدة.

هتف: « هيه، أنت، يا آنسة، يا حلوة، احضري لي طلباً آخر. فلم يكن يوجد أي شيء في هذا! ». وناولها إبريقه عبر الطاولة.

كانت البيرة ممتازة، باردة وليست لاذعة كثيراً، واستمتع هانز بشرب كأسه. وشرب أوغست بسِمة الخبير، متلمظاً بلسانه، وفي الوقت نفسه كان يدخن كمدَخنة مصنع، وكان هانز مملوء بإعجاب هادئ به.

إن هذا المرح الصاخب في يوم الأحد ليس سيئاً أبداً. فها هو جالس عند طاولة كمن اكتسب الحق في أن يتواجد بين أناس خبروا الحياة، ويعرفون كيف يستمتعون. جميل أن يشاركهم ضحكهم وأحياناً يغامر حتى بإلقاء نكتة بنفسه، ورائع ويدل على النضج أن يخبط إبريقه على الطاولة بعد أن يشرب محتواه وأن يهتف عَرَضاً: « كأساً أخرى، يا آنسة ». ومن الممتع أن يشرب في صحة أحد المعارف على طاولة أخرى وأن يدلّي عقب السيجارة من يده اليسرى، وأن يدفع بقبعته إلى خلفية راسه تشبُّهاً ببقية الشبان.

هنا بدأ المساعد الغريب عنهم يتحمس ويحكي حكايته. كان يعرف قفالاً في "أولم" كان قادراً على أن يجرع ملء عشرين كأساً من بيرة "أولم" الجيدة وبعد أن ينتهي يمسح فمه ويقول:

« والآن، إليّ بزجاجة كبيرة من النبيذ ». وفي كاناشتات عرف إطفائياً كان في استطاعته أن يأكل دزينة من النقانق، واحدة بعد أخرى وريح رهاناً على ذلك. لكنه خسر الرهان الثاني. فقد كان قد راهن على قدرته على أكل كل أصناف الطعام كافة المدونة على قائمة الطعام في حانة صغيرة وقد أكل فعلاً كل شيء، ولكن كان مدوناً في آخر قائمة الطعام أربعة أنواع من الجبن، وعندما جاء دور النوع الثالث دفع الصحن بعيداً عنه وهو يقول: « أفضّل الموت على أكل لقمة واحدة أخرى ».

هذه الحكايا أيضاً قوبلت بالتهليل وبتصفيق حار وبينت أنه لا بد من أن هناك الكثير من محطمي الأرقام في الأكل والشرب في العالم المحيط بنا يجعل كل من لا زال على قيد الحياة منهم قادراً على رماية قصة عن هذا النوع من الأبطال وعن مآثره. فواحد يحكي عن "رجل في شتوتغارت"، وآخر عن "جندي في سلاح فرسان مدينة لودفيغسبرغ"، وفي إحدى الحكايات يكون هناك سبع عشرة حبة بطاطا، وفي أخرى إحدى عشرة فطيرة محلاة مع سلطة. وتلك الحوادث كانت تروى بكل وقار وكان الجميع يجلسون باسترخاء لعلمهم أنهم مقبلون على التعرف على العديد من ذوي المواهب البارزة والرجال الرائعين، بالإضافة إلى عدد لا يستهان به من المجانين الغريبي الأطوار. هذا المدخل المريح والعملي هو الإرث المشرِّف لوجهة النظر الضيقة الأفق التي تسود كل حانة محلية ويقلدها الجيل الجديد بالطريقة نفسها كما يقلد من يكبرونه في السن في أمور شرب الخمر، والحديث، والسياسة، والتدخين والزواج والموت.

عند شرب الكأس الثالثة سأل أحدهم إن تبقّى أي كعك،فاستدعوا النادلة وعلموا أنه لم يتبق أي شيء منه، وأصبح هذا الأمر مدار حديث الجميع. ونهض أوغست وقال بما أنه لم

twitter @baghdad_library

يتبق أي قدر من الكعك فيمكنهم أن ينتقلوا إلى حانة أخرى. وأخذ رفاق آخرون من مكان آخر يشتمون الحانة الحالية البائسة، وحده الرجل القادم من فرانكفورت قرر المكوث. لقد كان قد وطّد علاقته بالنادلة وانتهز لتوه فعلاً فرصاً عدة لداعبتها. وكان هانز قد لاحظ ذلك، وزاد من تأثير البيرة عليه، فشعر بإثارة غريبة. وعندما قرروا الانتقال إلى مكان آخر تنفس الصعداء.

بعد أن دفع أوغست قيمة الفاتورة وخرجوا جميعاً مرة أخرى إلى الشارع بدأ هانز يشعر بتأثير كؤوس البيرة الثلاثة عليه. كان إحساساً لذيذاً، مزيجاً من التعب وميل إلى الطيش، وشعر أيضاً بما يشبه الغشاوة الرقيقة تظهر أمام عينيه، كان كل شيء يبدو من خلالها نائياً، وهمياً، كما في الأحلام. وألفى نفسه يضحك طوال الوقت، وأمال قبعته بزاوية تدل على طيش زائد، وتخيل نفسه على صورة رجل متهتك. وعاد رجل فرانكفورت إلى الصفير من جديد بطريقته الخشنة وحاول هانز أن يسير على إيقاعه.

كان الهدوء يسود أجواء حانة "الزاوية الحادة". لم يكن هناك أكثر من حفنة من المزارعين يشربون نبيذ الموسم الجديد. ولم يكونوا يقدمون جرعات من البيرة، فقط زجاجات كاملة منه، وللتو وُضعت واحدة أمام كل من الزبائن الجدد. كان العامل الأول تواقاً للبرهان على كرمه وطلب كعكة تفاح كبيرة لهم جميعاً. وفجأة شعر هانز بجوع شديد فأكل عدة قطع منها على التوالي. وجلس على المقعد العريض، المتين، مرتاحاً وحالماً، في الردهة البنية اللون والقديمة. وغرق النضد العتيق الطراز والمدفأة الضخمة وسط شبه الظلام، وفي قفص كبير مزود بقضبان خشبية كان يسقسق عصفوران أزرقان، أُقحِمَ لهما غُصين العليق الأحمر من خلال القضبان.

اقترب صاحب المحل من الطاولة برهة ورحّب بزبائنه. وسرعان ما نشأ حديث بينهم. جرع هانز بضع جرعات من زجاجة البيرة وتساءل عما إذا كان سيستطيع أن ينهيها.

مرة أخرى باشر صاحبهم الفرانكفورتي في رواية حكاياته الخيالية عن أعياد حصاد عنب الراين، وعن عمله كعامل مياوم وحياته في المنازل المؤقتة. أنصتوا إليه بابتهاج ولم يكف هانز عن الضحك.

فجأة لاحظ أنه ليس على ما يرام. فقد تراءت له الغرفة، والطاولة والزجاجة والكؤوس وأشكال أصدقائه كلها تسبح وتترنح معاً في سديم بني باهت، ثم تستعيد أشكالها المنفصلة، المنفردة عندما يهز نفسه. وكان بين حين وآخر، عندما تعلو وتيرة الضحك والحديث، يضحك بصوت عال أو يقول ملاحظة سرعان ما ينساها تماماً. وعندما يتقارعون بالكؤوس ينضم إليهم، وبعد مضي ساعة على ذلك فوجئ إذ وجد أن زجاجته قد أضحت فارغة.

قال أوغست: « إن عطشك لا يرتوي. هل ترغب في أخرى؟ ».

هز رأسه موافقاً وابتسم. وكان قد تصور أن قضاء ليلة في الخارج أمر ينطوي على مخاطر أفدح بكثير. والآن عندما بدأ صديقهم الفرانكفورتي يغني، وشاركه الجميع في الغناء، كانت حماسة هانز لا تقل عن حماسة الباقين.

في تلك الأثناء كان المكان قد امتلأ عن آخره وجاءت ابنة صاحب المحل لكي تساعد النادلة في عملها. كانت آنسة صغيرة قوية الجسم، ذات وجه تظهر عليه الصحة، والنشاط، وعينين بنيتين توحيان بالثقة بالنفس.

عندما وضعت النادلة زجاجة جديدة أمام هانز، انهال عليها جاره العابث على الفور بعبارات التودد الأنيقة لكنها لم

twitter @baghdad_library

توله انتباهها. وربما لكي تظهر لامبالاتها لهذا الأخير أو ربما لأنها أعجبت برأسه الصبياني الرقيق، التفتت إلى هانز ومررت يدها خلال شعره، ثم عادت إلى النضد.

لحق بها العامل الأول، وكان عندئذ يجرع من زجاجته الثالثة، وبذل أقصى جهده لكي ينخرط معها في حديث، ولكن عبثاً. فقد نظرت الفتاة القوية الجسم إليه ببرود بدون أن تجيب بأي شيء ومن ثم أعطته ظهرها. عاد إلى الطاولة وأخذ يدق عليها بكأسه الفارغة، وهتف في نوبة مفاجئة من المرح: «يا شباب، يا شباب، استمتعوا، في صحتكم!».

وطفق يروي حكاية رومانسية.

لكن كل ما سمعه هانز كان فوضى كئيبة من الأصوات، وعندما شارف على الإتيان على محتوى زجاجته الثانية صار صعباً عليه أن يتكلم أو حتى أن يضحك. ونهض واقفاً لكي يمشي حتى قفص العصفورين الأزرقين ليضايقهما، ولكن بعد أن خطا خطوتين أصيب بدوار، وكاد أن يسقط وعاد فتوازن بحذر.

منذ تلك اللحظة أخذ مزاجه المرح يذوب تدريجياً ويتلاشى وأدرك أنه كان يمر بحالة "عمى" وفقدت فكرة شرب الخمر جاذبيتها. ورأى من مكمنه على البعد متاعب كثيرة بانتظاره: رحلة العودة إلى البيت، شجاراً مع والده، وفي اليوم التالي الورشة. وشيئاً فشيئاً عاوده الصداع.

الآخرون أيضاً كانوا قد نالوا كفايتهم. وطلب أوغست في لحظة صفاء الفاتورة ولم يتبق له الكثير من ماركاته الثلاث. وأخذوا يسيرون الهوينا على الطريق يتحدثون ويضحكون مذهولين بضياء المساء البراق. وكان هانز عاجزاً عن الوقوف باعتدال وأخذ يميل وهو يترنح على أوغست وترك له أن يدعمه.

عندئذ كان العامل الأول قد أصبح رومانسي المزاج وأخذ يغني: «غداً يجب أن أغادر هذه البلدة» والدموع تطفر من عينيه.

كان في نيتهم أن يتوجهوا إلى بيوتهم ولكن أثناء مرورهم بحانة "البجعة" أصرّ العامل الأول على ولوجها. وعندما وصلوا إلى رواقها انفصل هانز عنهم.

«يجب أن أعود إلى البيت».

ضحك العامل الأول وقال: «لن تصل أبداً إلى هناك وحدك».

«نعم، نعم. يجب... أن أصل ... إلى البيت».

«إذن على الأقل تناول رشفة من البراندي، أيها الشاب. سوف أعيدك إلى صوابك وأداوي معدتك. نعم، سترى».

وعى هانز وجود كأس في يده. سفح قدراً كبيراً من محتواه وجرع القدر الباقي. شعر وكأنه صبّ ناراً ملتهبة في أحشائه. وترنح وكاد يقع، ولم يفهم كيف توصل إلى الخروج من القرية. وسبحتْ المنازل والأسيجة والحدائق أمام عينيه وتحركت في كل الاتجاهات.

ارتمى تحت شجرة تفاح وسط المرج الرطب. ومنعه إحساسه بالاشمئزاز والمخاوف المعذبة والأفكار المشتتة من الاستغراق في النوم. شعر بالقذارة والخجل. كيف يمكن أن يصل إلى المنزل؟ ماذا سيقول لوالده؟ ماذا سيحدث له في الغد؟ وشعر بأنه محطم وبائس وكأنه بحاجة إلى أن يرتاح وينام ويكفر عن تصرفه إلى الأبد، وكان رأسه وعيناه تؤلمه ولم يكن فيه من القوة ما يكفيه لينهض واقفاً ويتابع سيره.

فجأة عادت إليه لمحة من مرحه السابق، مثل موجة شاردة، متوانية، فلوى تعابير وجهه وأخذ يغني لنفسه:

«آه، أيها العزيز أوغسطين،

أوغسطين، أوغسطين،

twitter @baghdad_library

آه أيها العزيز أوغسطين،
لقد ضاع كل شيء».

لكنه ما كاد ينتهي من الغناء حتى شعر بغثيان فظيع وفاض داخله سيل كئيب من الصور المبهمة وذكريات عن إحساس بالخجل ووخز الضمير. وأخذ يئن بصوت عال وغاص بين العشب وهو يجهش بالبكاء.

بعد ذلك بساعة، بعد أن هبط الظلام نهض واقفاً وأخذ يترنح هابطاً التل بخطى متعثرة وهو يتألم.

أخذ هر غيبنرات يلعن بصوت عال عندما تأخر ابنه عن الوصول إلى وجبة العشاء. وعندما بلغت الساعة التاسعة لم يكن هانز قد وصل بعد، فأخرج عصا غليظة كان قد وضعها جانباً طويلاً. لقد ظن الفتى أنه كبر على عصا والده، أليس كذلك؟ حسن، سيجد في انتظاره مفاجأة جميلة لدى عودته إلى المنزل. عند الساعة العاشرة أوصد الباب. إذا أراد ابنه أن ينغمس في العربدة الليلية فعليه أن يجد له مكاناً آخر يأوي إليه.

غير أن هر غيبنرات لم ينم، بل انتظر، وغضبه يتصاعد مع مرور كل ساعة، أن يسمع يداً تلمس مقبض الباب وتشد الجرس بخوف. وتخيل الشجار الذي سيقع. على ذلك المتسكع أن يتعلم درسه! لعله يكون سكراناً لكنه سيعيده سريعاً إلى صوابه، ذلك الوغد، الماكر، الحقير البائس! وإذا اضطر إلى كسر كل عظمة في جسمه فسيفعل.

أخيراً تغلب سلطان النوم عليه وعلى حنقه.

في تلك اللحظة كان موضوع هذه التهديدات كلها ينجرف ببطء بارداً وصامتاً، غائصاً في المياه القاتمة للنهر. لقد طرح عنه كل إحساس بالاشمئزاز، والخجل والحزن، ونظر الليل الخريفي المصقع، والأزرق، بازدراء إلى جسمه النحيل، القاتم، وعبثت

المياه السوداء بيديه وشعره وشفتيه المتقعتين. لم يكن قد رآه أحد، اللهم إلا قضاعة[1] خجلى قبيل بزوغ الفجر، راقبته بحذر وهو ينزلق ثم يغيب بصمت. لم يدر أحد كيف وصل إلى أعماق المياه. لعله ضل سبيله وانزلق إلى نقطة سحيقة من المنحدر، ولعله كان ثملاً وفقد توازنه. لعل المياه جذبته إليها بفعل سحرها القاتل عندما مال فوقها، وبدا له الليل والقمر الشاحب يفيضان بالسكينة والراحة العميقة حتى أن التعب والخوف دفعاه بقسوة نحو ظل الموت.

عثروا عليه مع طلوع النهار وحملوا جثته إلى المنزل. أصيب والده بالرعب، وكان لا بد له من أن ينحّي عصاه جانباً ويتخلّى عن غضبه الحانق. صحيح أنه لم يذرف أي دمعة وأخفى مشاعره القليلة لكنه في الليلة التالية بقي يقظاً من جديد وكان بين فينة وأخرى يلقي نظرة من فرجة الباب إلى ولده الصامت الممدد على السرير النظيف، الساكن دائماً، الذي بدا، بجبينه الصافي، ووجهه الشاحب والدال على الذكاء، مخلوقاً فريداً يتمتع بحق طبيعي في أن يفوز بمصير مختلف عن مصير العامة. كانت بشرة جبينه ويديه مصابة بخدوش ومزرقة قليلاً، وكانت قسمات وجهه الوسيمة متراخية والجفنان الأبيضان مسدلين على عينيه، وارتسم على الشفتين المتباعدتين قليلاً تعبير قانع ويكاد يكون مرحاً. وكأن حياة الفتى قد أزهرت فجأة وكأنه عاد إلى طبعه المرح، حتى والده وسط إرهاقه وأسى عزلته كان ضحية ذاك الوهم الممتع.

جلبت الجنازة عدداً كبيراً من المواكبين والمتفرجين. ومرة أخرى أصبح هانز غيبنراث شخصية مشهورة ومحط أنظار

---

[1] القُضاعة: أو ثعلب الماء: حيوان مائي. ـ المترجم.

twitter @baghdad_library

الجميع، ومرة أخرى شاركه الأساتذة ومدير الكلية والقس مصيره. ظهروا بمعاطفهم الفروك وقبعاتهم العالية الوقور، واكبوا النعش ووقفوا عند القبر برهة يتبادلون الهمس. وبدا على أستاذ اللاتينية حزن حقيقي وغمغم مدير الكلية: « نعم، كان في إمكانه أن يصبح شخصية بارزة، أليس أمراً مأساوياً أننا غالباً ما نُصدم في تلاميذنا؟ ».

لم يبق عند القبر بالإضافة إلى والده والعجوز آنا التي بكت بدموع حرة غير فليغ.

قال بنبرة تعاطف: « نعم، ما أصعب تحمل هذا الموقف. أنا أيضاً كنت مولعاً بالفتى ».

تنهد غيبنراث وقال: « إنني لا أفهم. لقد كان عالي الموهبة، وكل شيء يسير على أحسن ما يرام، المدرسة، الامتحان، ثم فجأة أخذت الكوارث تتوالى ».

أشار الاسكافي إلى ذوي المعاطف وهم يختفون خارجين من بوابة المقبرة.

قال بصوت هادئ: « ها! هناك بعض من السادة الذين ساهموا في دفعه إلى هذا ».

قال غيبنراث: « ماذا؟ »، وحدّق مذعوراً، غير مصدّق: « يا إلهي، كيف؟ ».

« لا عليك، يا جاري. كنت فقط أشير إلى معلمي المدرسة ».

« ماذا تعني بالضبط؟ ».

« أوه، لا شيء. ما قلته فقط. وأنت وأنا أيضاً، ألا ترى أننا ربما ساهمنا في فشل الصبي بطرق شتى؟ ».

امتدت سماء زرقاء صافية فوق البلدة الصغيرة، وتلألأ النهر في الوادي، والمنحدرات المكسوة بأشجار الصنوبر بدت على البعد

أشبه بسديم أزرق فاتناً. ابتسم الاسكافي بحزن. تناول ذراع الرجل الذي كان يخلّف وراءه السكون والأفكار المؤلمة بشكل غريب التي احتشدت في رأسه، وشق طريقه بخطى متعثرة، عائداً إلى المستويات الدنيا من حياته الاعتيادية.

twitter @baghdad_library

من إصدارات الدار

موليير / مسرح	ترجمة: يوسف الجهماني
على دروب الثقافة الديمقراطية	بوعلي ياسين
الشعر النبطي في حوران	علي المصري
قراصنة وأباطرة	نوعام تشومسكي
المعري والشيرازي	علي خلوف
حوران عبر التاريخ	د. خليل المقداد
كاليجولا/ مسرحية	ترجمة: يوسف الجهماني
حرية الآخر	جاد الكريم الجباعي
القرآن بين التفسير والتأويل	أنور خلوف
ما وراء الحجاب	فاطمة المرنيسي
خلفاء بلا خلافة	أ. أ. إغناتنكو
حزب الرفاه ـ أرباكان	يوسف ابراهيم الجهماني
حوارات في قضايا المرأة، الحرية، التراث	نبيل فياض
الصراع السياسي في تركيا	ف. ي. دانيلوف
خبايا الانهيار	ف. إ. شيرونين

نرسيس وغولدموند/ رواية	هرمان هسه
روسهالده / رواية	هرمان هسه
ذئب السهوب / رواية	هرمان هسه
غرترود/ رواية	هرمان هسه
أيام الثلج الأحمر/ رواية	د. فواز الأزكي
ثغر حلم/ قصص	يوسف ابراهيم الجهماني
عشتار والمولودة/ قصص	فاديا سعد
أخلاقيات السعادة	كيريل نيشيف
أخلاقيات المعاشرة	غ.ب. بوتيليكو

twitter @baghdad_library

سيصدر عن الدار

الخيبة/ رواية — بولينا داشكوفا

صفحات مجهولة من تاريخ
الحزب الشيوعي السوفييتي — ترجمة: يوسف الجهماني

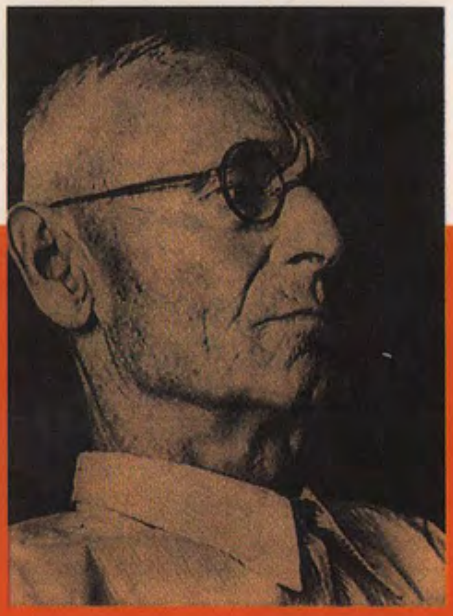

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

تحت الدولاب

إن سيرة حياة هرمان هسّه الروحية، "تحت الدولاب" هي مِحكٌ في تفحُّص المؤلف، الحائز على جائزة نوبل، الدائم للصراع بين توكيد الذات وتدمير الذات. إن روايته الثانية هذه، التي تقوم على أساس تجربته الشخصية، تهاجم النظام الثقافي الذي يدعم العقل والطموح على حساب المشاعر، والروح والموهبة النظرية. ورواية "تحت الدولاب" تحكي بحنو ورقة حكاية تنطبق على عصرنا، بما تتصف من شاعرية وغنائية جعلا من هسّه شخصية أدبية بارزة في القرن العشرين. إنها المفتاح لفهم أعماله اللاحقة كافة.

حوران

دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق ص . ب 32105

هـ : 6713079

السعر: 225 ل.س

$7

twitter @baghdad_library